

# تَفْسِيرُ الْفَرْخِ الرَّازِي

## الشَّرِحُ بِالتَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ وَمَفَاعِيْغِ الْفَتْيَةِ

لِدِيْنَامِ مُحَمَّدِ الرَّازِي فِي الرَّذِينِ ابْنِ الْعَلَمَاءِ حَسَنِ الدِّيْنِ عَمَرِ  
الشَّرِحُ بِجُطْبِيْبِ الرَّى نَفْعُ اللَّهِ بِالسَّامِينِ

٦٤٤ — هـ



تَقْرَبُ هَذِهِ الطَّبْعَةِ بِفَهْرِسِ لَأْيَاتِ الْاَحْکَامِ  
*الْبَيْعُ السَّنَعُ الْعَجُونُ*

دار الفكر  
للطباعة والتشریف والتوزیع

حقوق الطبع محفوظة للناشر  
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : لبنان - بيروت - حارة حربيك شارع عبد النور  
هاتف ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٣٤٨٧ ص . ب ٧٠٦١ برقيا فيكتوري

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

قُلْ يَعْبُدُونِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ  
 الْذُنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾ وَأَنْبِيَا إِلَيْكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ  
 أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنَصَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَأَتَبْعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رِبَّكُمْ مِنْ  
 قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٣١﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرَتِي عَلَىٰ  
 مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّارِخِينَ ﴿٣٢﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَنِي  
 لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَقِينَ ﴿٣٣﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كُرْبَةً فَأَكُونَ مِنَ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ بَلْيَقْدِ جَاءَتِكَ أَيَّتِي فَكَذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكَبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ  
 الْكُفَّارِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿٢﴾ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا يقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إله هو الغفور الرحيم ، وأنبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا ينصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بفترة وانت لا تشعرون ، أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت من السارخين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين ، بلي قد جاءتك آيات فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٣﴾ اعلم أنه تعالى لما أطرب في الوعيد أردفه بشرح قال رحته وفضله وإحسانه في حق العبيد وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتاج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعمد عن الكبائر ، فقالوا : إنما بينما في هذا الكتاب أن عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين<sup>(١)</sup> قال تعالى ( وعباد الرحمن

(١) الصواب أن يقال : بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله تعالى ، كما في الآية والأبين التي استشهد بها ، إلا فإن مما يعارضه قوله الله تعالى ( ياحسنه على العباد ما يأنبهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ) فالذين يستهزئون برسول الله ليسوا بهؤمنين والذين يستهزئون عليهم لم يذكروا في معرض التعظيم وإنما ذكروا في النبذ والإهانة كما هو صريح الآية ولو صرحت ذلك لم يجت إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقضى المدح أو القبح ، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ، ولذا خصمه بالصفة .

الذين يمشون على الأرض هوناً ) وقال ( عيناً يشرب بها عباد الله ) ولأن لفظ العباد مذكور في معرض التعظيم ، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين ، إذا ثبت هذا ظهر أن قوله ( يا عبادى ) مختص بالمؤمنين ، ولأن المؤمن هو الذي يدرك كونه عبد الله ، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعد اللات والعزى عبد المسيح . ثبت أن قوله ( يا عبادى ) لا يليق إلا بالمؤمنين ، إذا ثبت هذا فتقول إنه تعالى قال ( الذين أسرفوا على أنفسهم ) وهذا عام في حق جميع المسرفين .

ثم قال تعالى ( إن الله يغفر الذنوب جمِيعاً ) وهذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين ، وذلك هو المقصود فإن قيل هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها ، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً ، وأنتم لا تقولون به ، فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به ، والذي يقولون به لا تدل عليه هذه الآية ، فسقط الاستدلال ، وأيضاً إنَّه تعالى قال عجيب هذه الآية ( وأنيبوا إلى ربكم وأسلواه من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا تتصرون ) إلى قوله ( بفتحة وأنتم لا تشعرُون ) ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيبه بالتوبة ، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، وأيضاً قال ( أن تقول نفس ياحسِرتا على ما فرطت في جنب الله ) ولو كانت الذنوب كلها مغفورة ، فإِنْ حاجة به إلى أن يقول ( يا عسرتا على ما فرطت في جنب الله ) ؟ وأيضاً ولو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك إغراً بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها ، وذلك لا يليق بحكمة الله ، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبية على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا يخاف له من العذاب البة ، فإن من اعتقد ذلك فهو قاطن من رحمة الله ، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى ثاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة ، فمعنى قوله ( إن الله يغفر الذنوب جمِيعاً ) أي بالتوبة والإباتة ( والجواب ) قوله الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعاً وأنتم لا تقولون به ، فلن Abel نحن نقول به ونذهب إليه ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهي للاستقبال ، وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً ، إما قبل الدخول في نار جهنم ، وإما بعد الدخول فيها ، ثبت أن ما يدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا .

أما قوله لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة ، فالجواب أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم ، فإننا لانقطع بازالة العقاب بالكلية ، بل نقول لم يله يغفو مطلقاً ، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يغفو بعد ذلك ، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة والله أعلم .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** أعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوهه : ( الأولى ) أنه سمي

المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بال الحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم لفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج (الثاني) أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بـياء الإضافة فقال (ياعبادي الذين أسرفوا) وشرف الإضافة إليه يفيد الأمان من العذاب (الثالث) أنه تعالى قال (أمسروا على أنفسهم) ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ماعاد إليه بل هو عائد إليهم ، فيكشفهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم ، ولا ساقه إلى إلحاق ضرر آخر بهم (الرابع) أنه قال (لا تقطعوا من رحمة الله) نهان عن القنوط فيكون هذا أurer بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم (الخامس) أنه تعالى قال أولاً (ياعبادي) وكان الألائق أن يقول لا تقطعوا من رحمتي لكنه ترك هذا اللفظ وقال (لاتقطعوا من رحمة الله) لأن قوله أعلم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (السادس) أنه لما قال (لا تقطعوا من رحمة الله) كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً . ولكننه لم يقل ذلك ، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة إن المقيدة لاعتظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد بالرحمة (السابع) أنه لو قال (يغفر الذنوب) لكن المقصود حاصلاً لكنه أردده باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً وهذا أيضاً من المؤكدات (الثامن) أنه وصف نفسه بـكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة (التاسع) أنه وصف نفسه بـكونه رحيماً والرحمة تفيض فائدة على المعرفة فكان قوله (إنه هو الغفور) إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله (الرحيم) إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب (العاشر) أن قوله (إنه هو الغفور الرحيم) يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة ، وهذه الوجوه العشرة مجروعة في هذه الآية ، وهي بأسراها دالة على كمال الرحمة والغفران ، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته .

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا في سبب النزول وجوها ، قيل أنها نزلت في أهل مكة فأنهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الآوثان وقتل النفس لم يغفر له ، وقد عبدها وقتلنا فكيف نسلم ؟ وقيل نزات في وحشى قاتل حزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم المسلمين عامه ؟ فقال بل لل المسلمين عامه وقيل نزلت في أناس أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوه لا يقبل الله توبتهم ، وقيل نزلت في عياش ابن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فتتوا فافتنتوا وكان المسلمين يقولون فيهم لا يقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبتها عمر ، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا ، وأعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فنزلت هذه الآيات في هذه الواقع لا يمنع من عمومها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم (ياعبادي) بفتح الباء والباءون

واعاصم في بعض الروايات بغير فتح وكثيرهم يقفون عليه بائبيات الياء. لأنها ثانية في المصحف ، إلا في بعض رواية أبي بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء ، وقرأ أبو عمرو والكسائي تقططاً بكسر النون وبالباقون بفتحها وما لعنان ، قال صاحب الكشاف ، وفي قرامة ابن عباس ، وبن مسعود ( يغفر الذنب جيماً لم يشا ) .

ثم قال تعالى ( وأنبوا إلى ربكم ) قال صاحب الكشاف أى وتبوا إليه وأسلوا الله أى وأخلصوا الله العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لثلا يطمع طامع في حصولها بغير توبه وللدلالة على أنها شرط فيها الازم لا تحصل بدونه ، وأقول هذا الكلام ضعيف جداً لأن عندنا التوبة عن المعاصي واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد بالمغفرة ، فإن قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلًا فطبعاً مما احتج إلى التوبة ، لأن التوبة إنما تزداد لاستفاط العقاب ، فإذا سقط العقاب بغير الله عنه فلا حاجة إلى التوبة . فنقول هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنب بطبعاً ويعفو عنها بطبعاً إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة في النار ثم يخرجه من النار ويغفر عنه ، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب ، ثبتت أن الذي قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه .

ثم قال ( واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ) واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء ( فالاول ) أمر بالإنابة وهو قوله تعالى ( وأنبوا إلى ربكم ) و ( الثاني ) أمر بمنابعة الأحسن ، وفي المراد بهذا الأحسن وجوه ( الأول ) أنه القرآن ومعناته واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى ( الله نزل أحسن الحديث كتاباً ) ( الثاني ) قال الحسن معناه ، والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله ، فإن الذي أتول على ثلاثة أوجه ، ذكر القبيح ليجتنب عنه ، والأدون لثلا يرغب فيه ، والأنحسن ليتقوى به ويتبع ( الثالث ) المراد بالإحسن الناسخ دون المذموم لأن الناسخ أحسن من المنسوخ ، لقوله تعالى ( مانفسح من آية أو نفسها ذات بخسرين منها أو مثلها ) ولأن الله تعالى لما نسخ حكماً وأثبت حكماً آخر كان اعتقادنا على المنسوخ .

ثم قال ( من قبل أن يأتيكم العذاب بعنته وأنتم لا تشعرؤن ) والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه ، واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون ففكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات ( فالاول ) قوله تعالى ( أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت من الساخرين ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله ( أن تقول ) مفعول له أى كراهة أن تقول ( يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ) وأما تكبير لفظ النفس فيه وجهان ( الأول ) يجوز أن تزداد نفس ممتازة من سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لا يبني رغبتها في المعاصي ( و الثاني ) يجوز أن

براد به الكثرة ، وذلك لأنه ثبت في علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلم بذلك الوصف ، فقوله (يا حسرتا) يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن وأنه مذكور عقيب قوله تعالى (على ما فرطت في جنب الله) والتferiat في طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضي حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التferiat ، وذلك يفيده العموم بهذا الطريق .

﴿المسألة الثانية﴾ القائلون يائيات الأعضاء لله تعالى استدلو على إثبات الجنب بهذه الآية ، وأعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت ، فلا فائدة في الإعادة ، ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضواً مخصوصاً لله تعالى ، فإنه يمكنه وقوع التferiat فيه ، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل وللمفسرين فيه عبارات ، قال ابن حباس يريد ضياع من ثواب الله ، وقال مقاتل ضياع من ذكر الله ، وقال مجاهد في أمر الله ، وقال الحسن في طاعة الله ، وقال سعيد بن جبير في حق الله . وأعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيده شرح الصدور وشفاه الغليل ، فنقول : الجنب سمي جنباً لأنه جانب من جوانب ذلك الشيء والشيء الذي يكون من لوازمه الشيء وتواتره يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له ، لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة قال الشاعر :

أما تقيين الله جنب وامق له كبد حرا عليك تقطع

﴿المسألة الثالثة﴾ قال صاحب الكشاف قرئ (يا حسرتي) على الأصل و(يا حسرتاي) على الجمجم بين العوض والمعوض عنه .

أما قوله تعالى ( وإن كنت من الساخرين ) أى أنه ما كان مكتيفاً بذلك التقصي بل كان من المستهزئ بالدين ، قال قتادة لم يكفيه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أمها ، وجعل وإن كنت نصب على الحال كأنه قال ( فرطت في جنب الله ) وأنا ساخر أى فرطت في حال سخري .

﴿النوع الثاني﴾ من الكلمات التي حكها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بدنزول العذاب عليهم قوله ( أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ) .

﴿النوع الثالث﴾ قوله ( أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرها فأكون من المحسنين ) وحاصل الكلام أن هذا المقصود أى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التferiat في الطاعة (وثانية) التعلل بفقد المداية (وثالثها) بمعنى الرجعة ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد المداية باطل ، لأن المداية كانت حاضرة والأعذار زائدة ، وهو المراد بقوله ( بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت و كنت من الكافرين ) وهنها مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الزجاج بلى جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي إلا أنه حصل

فيه معنى النفي ، لأن معنى قوله (لو أن الله هداني) أنه ما هداني ، فلا جرم حسن ذكر لفظة (ملي) بعده .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** قال الواحدى رحمة الله : القراءة المشهورة وافية على التذكير في قوله ( بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت و كنت من الكافرين ) لأن النفس تقع على الذكر والآثى بغير طب المذكرة ، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على التأنيث ، قال أبو عبيدة لو صح هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان حجة لا يجوز لأحد ترکها ولكنه ليس بمسند ، لأن الربيع لم يدرك أم سلمة ، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ، ولفظ النفس ورد في القرآن في أكثر الأئم على التأنيث بقوله ( سولت لى نفسي ، وإن النفس لأماره بالسوء ، وبأيتها النفس المطمئنة ) .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** قال القاضي هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه (الأول) أنه لا يقال : ملأن أسرف على نفسه على وجه التم إلام يكون من قبله ، وذلك بدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى ، ( وثانياً ) أن طلب الغفران والرجاء في ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد ، ( وثالثاً ) إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون إلا مع تمكنته من محاونهما قبل نزول العذاب ، ومن ذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك ( ورابعاً ) قوله تعالى ( واتبعوا أحسن ما أزل إليكم من ربكم ) وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للإنجاع ( وخامسها ) ذمه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح إلا مع الممكن من الفعل ، ( وسادسها ) قوله ( يا حسرى على ما فرطت في جنب الله ) ولا يتحسن المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله ، ( وسابعها ) قوله تعالى ( على ما فرطت في جنب الله ) ومن لا يقدر على الإيمان كي يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله لا يكون مفرطاً ، ( وثامنها ) ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصبح منهم أن لا يفعلوه ، ( وناسعها ) قوله ( لو أن الله هداني ) أى مكتفى ( اسكنت من استقين ) وعلى هذا قوله إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه ، ( وعاشرها ) قوله ( لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ) وعلى قوله لو رده الله أبداً كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسناً ، ( والحادي عشر ) قوله تعالى موجهاً لهم ( بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت و كنت من الكافرين ) وبين تعالى أن الحجۃ عليهم لا أن الحجۃ لهم على الله ، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فيما التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها . ( والثاني عشر ) أنه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم ولو لم تكن هذه الآيات أفعالاً لهم لما صاح الكلام ، ( والجواب ) عنه أن هذه الوجه معارضة ، بما أن القرآن يملؤه من أن الله تعالى يصل ويمنع ويصدر منه الدين

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسُودَةٌ الْبَيْنُ فِي جَهَنَّمَ مُثْوَى  
لِلْمُتَكَبِّرِينَ (١٣) وَيَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقْوَى بِمَفَازِرِهِمْ لَا يَمْسِمُهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ

(١٣)

والقصوة والاستدراج ، ولما كان هذا التفسير ملوماً منه لم يكن إلى الإعادة حاجة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسُودَةٌ الْبَيْنُ فِي جَهَنَّمَ مُثْوَى  
لِلْمُتَكَبِّرِينَ ، وَيَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقْوَى بِمَفَازِرِهِمْ لَا يَمْسِمُهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد ، أما الوعيد فقوله تعالى ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى  
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسُودَةٌ ) وفيه بحثان : ( أحداها ) أن هذا التكذيب كيف هو ؟  
والثانى أن هذا السواد كيف هو ؟

{ البحث الأول } عن حقيقة هذا التكذيب ، فنقول : المشهور أن الكذب هو الإخبار عن  
الشيء على خلاف ما هو عليه ، ومنهم من قال هذا القدر لا يكون كذباً بل الشرط في كونه كذباً  
أن يقصد الإثبات بخبر يخالف الخبر عنه ، إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس في هذه الآية :  
قال السعبي : ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقب قوله ( لو أن الله هداني ) يعني أنه ماهداه  
بل أضلني ، ولما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه ( ترى الذين كذبوا على الله ووجوههم مسودة )  
وجب أن يكون هذا عائداً إلى ذلك الكلام المتقدم ، ثم روى عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم  
أنه قال « ما بال أقوام يصلون وبقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، ومم  
كذبة على الله ، والله مسود وجوههم » واعلم أن أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل  
لأنه تعالى قال في آخر الآية ( أليس في جهنم مثوى للتكبرين ) وهذا يدل على أن أولئك الذين  
صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون ، والتکبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة  
والإيجاد ، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى ، أما الذين يقولون إن الله يريد شيئاً وأنا أريد  
بعضه ، فيحصل مرادى ولا يحصل مراد الله ، فالتكبر بهذا القائل أليق ، ثبت أن هذا التأويل  
الذى ذكروه فاسد ، ومن الناس من قال إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال  
إنه مختص بشركى العرب ، قال القاضى يجب حل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من  
وصف الله بما لا يليق به نفياً وإنكاراً ، فأضاف إليه ما يجب تزييه عنه أو زمه عما يجب أن يضاف  
إليه ، فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية ، لأنهم كلهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة  
والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز ، واعلم أننا لو أجرينا هذه الآية على حموه ما كا ذكره القاضى

لزمه تكثير الأمة ، لأنك لازم فرقه من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد في صفات الله تعالى ، إلا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبي هاشم وأهل السنة في سائلن كثيرة من صفات الله تعالى ، ويلزم على قانون قول القاضي تكفيرون أحدهما ، فثبتت أنه يجب أن يحمل الكذب المذكور في الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشيء مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول ، ومثال هذا كفار قريش فإيمان كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها بجادات ، وكانوا يقولون إن الله تعالى حرم البخارة والواسطة والوصيلة والحام ، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا ، وكان قائله عالماً بأنه كذب وإذا كان كذلك فالحقائق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل [يكون] مناسباً ، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ يبعد الحق هذا الوعيد به .

( البحث الثاني ) الكلام في كيفية المراد المحاصل في وجوههم ، والأقرب أنه سرادع مخالف لسائر أنواع السواد ، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله ، وأقول إن الجهل ظلة ، والظلمة تخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أو جب سواد وجوههم ، وتحت هذا الكلام أسرار عديدة من مباحث أحوال القيمة ، فلما ذكر الله هذا الوعيد أرده بالوعد فقال ( وينجي الله الذين اتقوا بفناهم ) الآية ، قال القاضي المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتفاق المطلق إلا من كان هذا حاله ، فيقال له : أمرك عجيب جداً فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى ( لو أن الله هداني لكتن من المتقين ) وجباً أن يحمل قوله ( ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) على الذين قالوا ( لو أن الله هداني ) فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ( ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) .

ثم قال تعالى بعده ( وينجي الله الذين اتقوا بفناهم ) وجباً أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب ، فهذا يقتضي أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعيد المذكور بتوله ( وينجي الله الذين اتقوا بفناهم ) وأن يكون قوله ( الذين اتقوا ) المراد منه من اتقى كل السكبات فاسداً ، فثبتت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة ، بل الحق أن تقول المتق هو الآتي بالاتفاق . والآتي بالاتفاق في صورة واحدة آت بمعنى الاتفاق ، وبهذا الحرف فلنا الأمر المطلق لا يفيد التكرار ، ثم ذلك الافتاء غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجباً حمله على الاققاء عن الشيء الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى ، فثبتت أن ظاهر الآية يقتضي أن من اتقى عن تلك الصفة وجباً دخوله تحت هذا الوعيد الكريم .

ثم قال تعالى ( بفناهم ) وفيه مسائل :

• المسألة الأولى هي قرأ حزة والكسان وأبو بكر عن عاصم بفناهم على الجمجم ، والباقيون بفناهم على التوحيد ، وحكي الواحدى عن الفراء أنه قال : كلامها صواب ، إذ يقال في الكلام

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِبَادَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الظَّاهِرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَفْغَنَ اللَّهُ تَامُرَ وَتَيْ أَعْبُدُ  
أَيْهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبَطَنَ  
عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الظَّاهِرِينَ ﴿٢٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٦﴾

قد تبين أمر القوم وأمور القوم ، قال أبو علي الفارسي : الإفراد للمصدر ووجه الجم أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها ، كقوله تعالى ( وَتَظَنُّونَ بِاللهِ الظَّنُونَ ) ولا شك أن لكل متن نوعا آخر عن المفازة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، فكان المعنى أن النجاة في القيمة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات ، فغير عن الفرز بأوقاتها ومواضعها . ثم قال ( لا يمسهمسوء ولا مم يحزنون ) والمراد أنه كالفسير لتلك النجاة ، كأنه قيل كيف ينجيهم ؟ فقيل ( لا يمسهمسوء ولا مم يحزنون ) وهذه كامة جامدة لأنه إذا علم أنه لا يمسهسوء كان فارغ البال بحسب الحال عمما وقع في قلبه بسبب فرات الماضي ، فيبتعد يظهر أنه سلم عن كل الآفات ، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنته وكرمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيمة ، وتأكد هذا بقوله ( لا يحزنون الفزع الأكبر ) .

قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، له مقايد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ، قل أفنير الله تأمرني أعبد أيها الماجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لن أشركت ليحيطن عملك ولتكوون من الخاسرين ، بل الله فأعبد وكُن من الشاكِرِين ﴾ .

واعلم أنه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا في سورة الأنعام أن أصحابنا نسخروا بقوله تعالى ( الله خالق كل شيء ) على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأطربنا هناك في الأسنة والأجر به ، فلا فائدة هنا

في الإعادة ، إلا أن الكعبى ذكر هنا كلاماً فنذكرها ونجيب عنها ، فقال إن الله تعالى مدح نفسه بقوله (الله خالق كل شيء) وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبح فلا يصح أن يحتاج المخالف به ، وأيضاً فلم يكن في صدر هذه الآية خلاف في أعمال العباد ، بل كان الخلاف بينهم وبين المجرس والزنادقة في خلق الأرض والسباع والهوام ، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه ، وأيضاً لفظه (كل) قد لا توجب العموم لقوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) (تدمر كل شيء) وأيضاً لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما ضافها إليهم بقوله (كفاراً حسداً من عند أنفسهم) ولما صح قوله (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) ولما صح قوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا) فهذا جملة ما ذكره الكعبى في تفسيره ، وقال الجبانى : الله خالق كل شيء سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمور والنهى واستحقوا بها الثواب والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلافاً لله تعالى مجاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في الوانهم وصورهم ، وقال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل ، فيصح أن يقال إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجوداً له .

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء في سورة الانعام ، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضوع من هذا الكتاب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ( وهو على كل شيء وكيل ) فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتندييرها من غير منازع ولا مشارك ، وهذا أيضاً يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى ، فلم يكن الله تعالى وكيلاً عليه ، وذلك ينافي غموم الآية .

ثم قال تعالى ( له مقايد السموات والأرض ) والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكشائية ، لأن حافظ الخزائن ومدير أمرها هو الذي بيده مقايدتها ، ومنه قوله تعالى : فلان أقيمت مقايد الملك إليه وهي المفاتيح ، قال صاحب الكشاف : ولا واحد لها من لفظها ، وقيل مقلید ومقاید ، وقيل مقلاد ومقاید مثل مفتاح وفاتيح ، وقيل (أقليد وأقاید) ، قال صاحب الكشاف : والكلمة أصلها فارسية ، إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية ،

واعلم أن الكلام في تفسير قوله ( له مقايد السموات والأرض ) قريب من الكلام في قوله تعالى ( وعنده مفاتيح الغيب ) وقد سبق الاستقصاء هناك ، قيل سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير قوله ( له مقايد السموات والأرض) فقال «ياعثمان ما سألكي عنها أحد قبلك ، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحانه الله وبحمده ، أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قادر » هكذا نقله صاحب الكشاف .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُنْتُمُ الظَّاهِرُونَ﴾ وفيه مسألتان :  
﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر ، وهذا يدل على أن كل من لم  
يكن كافراً فإنه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله .

﴿المسألة الثانية﴾ أور صاحب الكشاف سؤالاً، وهو أنه بمحصل قوله (والذين كفروا)؟ وأجاب عنه بأنه بمحصل قوله تعالى (وينجي الله الذين اتقوا) أي ينجي الله المتقين بمفازتهم (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) واعتبر من ما ينفيه أنه خالق للأشياء كلها، وإن (له مقايد السموات والأرض) وأقول هذا عندى ضعيف من وجهين (الأول) أن وقرع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد (الثانى) أن قوله (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) جملة فعلية، وقوله (والذين كفروا بآيات الله هم الخاسرون) جملة إسمية، وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية لا يجوز، بل الأقرب عندى أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية، وهو كونه خالقاً للأشياء كلها، وكونه مالكاً لمقاييس السموات والأرض بأسرها، قال بعده: (والذين كفروا) بهذه الآيات الظاهرة الظاهرة (أولئك هم الخاسرون).

ثم قال تعالى ( قل ألم يأنف الله تأمورني عبد أيها الجاهلون ) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر تأمر وتنى بنونين ساكنة اليماء وكذلك هي في مصحف الشام ، قال الواحدى وهو الأصل ، وقرأ ابن كثير تأمر ونې بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها في الثانية ، وقرأ نافع تأمر ونې بنون واحدة خفيفة ، على حذف إحدى النونين والباقيون بنون واحدة مكسورة مشددة .

﴿المسألة الثانية﴾ (أفغير الله منصوب بأعبد وتأمر ون اعتراف ، ومنناه : أفتغير الله أعبد بأمركم ؟ وذلك حين قال له المشركون أسلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وأقول نظير هذه الآية ، قوله تعالى (قل أغير الله أتحند ولما فاطر السموات والأرض ) وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل .

﴿المسألة الثالثة﴾ إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء وبكونه مالكاً لمقابل الدسمونات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واستغفل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة ، فقد بلغ في الجهل مبلغاً لا يزيد عليه ، فلهذا السبب قال (أيها الجاهلون) ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيْجَبْطَنْ عَمْلَكَ ، وَلَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ اعلم إن الكلام التام مع الدلائل القوية ، والجواب عن الشبهات في مسألة الإجهاط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده ، قال صاحب **الكشف** فرى . ( ليجبطن عملك ) على

قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره . سورة الزمر .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ  
مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ

البناء المعمول وقرىء بالباء والذون أى : ليحيطن الله أو الشرك وفي الآية سؤالات :  
 (السؤال الأول) كيف أوحى إليه وإلى من قبله حال شرك على التعين ؟ و (الجواب)  
 تقدير الآية : أوحى إليك لئن أشركت ليحيطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحى إليك  
 وإلى كل واحد منهم لئن أشركت ، كما تقول كسانا حالة أى كل واحد منها .  
 (السؤال الثاني) ما الفرق بين اللامين ؟ (الجواب) الأولى موطة للقسم المخوف والثانية  
 لام الجواب .

(السؤال الثالث) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسلاه لا يشركون ولا ينحط  
 بأعمالهم ؟ و (الجواب) أن قوله (لئن أشركت ليحيطن عملك) قضية شرطية والقضية الشرطية  
 لا يلزم من صدقها صدق جزأها إلا ترى أن قوله لو كانت الخمسة زوجاً وكانت منقسمة بتساوين  
 قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق ، قال الله تعالى (لو كان فيما آلة إلا الله  
 أفسدتا) ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيما آلة وبأنهما قد فسدتا .

(السؤال الرابع) ما معنى قوله (ولئكون من المحسوبين) ؟ و (الجواب) كأن طاعات  
 الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم ، فـ كذلك القبائع التي تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور  
 تكون أقرب لقوله تعالى (إذا لاذفالك ضيق الحياة وضيق المات) مكان المعنى ضيق الشرك  
 الحاصل منه ، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله أقوى وأعظم .

واعلم أنه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ماهو المقصود فقال (بل الله فاعبد وكن من  
 الشاكرين) والمقصود منه ما أمر به من الإسلام بعض آلهتهم ، كأنه قال إنكم تأمروني بأن  
 لا أعبد إلا غير الله لأن قوله (قل أنت ربنا ونحنا نعبد) يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله ،  
 فقال الله إنهم بتسمى قالوا ولكن أنت على الصدقا قالوا ، فلا تعبد إلا الله ، وذلك لأن قوله (بل  
 الله فاعبد) يفيد الحصر . ثم قال (وكن من الشاكرين) على ما هداك إلى أنه لا يجوز إلا عبادة  
 الإله القادر عن الإطلاق العليم الحكيم ، وعلى ما أرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل  
 ماسوى الله .

قوله تعالى : (وَمَا قدروا الله حق قدرة والأرض جمِيعاً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات  
 بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، وتفتح في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ  
قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَهُ  
بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوَفِيتَ كُلُّ نَفْسٍ  
مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

إلا من شاء الله ثم نفح فيه أخرى هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ۚ .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الزر، وللعبادة الأصنام، ثم إنه تعالى أقام الدليل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه، بين أمم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخبيثة مشاكلاً له العبودية، فقال ( وما قدروا الله حق قدره ) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتاج بعض الناس بهذه الآية على أن المخلوق لا يعرفونحقيقة الله ، قالوا لأن قوله ( وما قدروا الله حق قدره ) يفيد هذا المعنى إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال السكفار فلا يلزم من وصف الكفار بهم ما قدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك ، فسقط هذا الكلام .  
 ﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( وما قدروا الله حق قدره ) أي ما عظموه حق تعظيمه ، وهذه الآية مذكورة في سور ثلاثة ، في سورة الأنعام ، وفي سورة الحج ، وفي هذه السورة .

واعلم أنه تعالى لما بين أمم ما عظموه تعظيمها لاتفاقه بأردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته ، فقال ( والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمنيه ) قال الف قال ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة ) كفرول القائل وما قدرتني حق قدرى وأما الذي فعلت كذا وكذا ، أي لما عرفت أن حالى وصفى هذا الذى ذكرت ، فوجب أن لا تتحطى عن قدرى ومنزلى ، ونظيره قوله تعالى ( كيف تكفرون بالله وكمتم أمواتاً فأحياءكم ) أي كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملوكه فكذا هؤلاء ، والمغنى ( وما قدروا الله حق قدره ) إذ زعموا أن له شركاء وأنه لا يقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات في قبضته وقدره ، قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بحملته وبمحرره تصوير عظمته

والترقيق على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا بالعين إلى جهة حقيقة أو بجاز ، وكذلك ماروى أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيمة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك افضلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبأ مما قال ، قال صاحب الكشاف وإنما ضحك أوضح العرب لأنهم لم يفهموا إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شىء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وأخره على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تغير فيها الأوهام ولا تذكرها الأذهان هيئته عليه . قال ولا زرني بباباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، فيقال له هل تسلم أن الأصل في الكلام حله على الحقيقة ، وأنا إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حله على حقيقته ممتنع ، خيئتك يجب حله على المجاز ، فإن انكر هذا الأصل خيئتك يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة ، فإن لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلاحية كذا وكذا فأنا أهل الآية على ذلك المقصود ، ولا أنتقت إلى الظواهر ، مثاله من تمسك بالأيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار ، قال المقصود بيان سعادات المطهرين وشقاوة المذنبين ، وأنا أهل هذه الآيات على هذا المقصود ولا ثبتت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية ، ومن تمسك بالأيات الواردة في إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله ، فأنا أكتفي بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة ، وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية ، وحيئتك يخرج القرآن عن أن يكون حجة في المسائل الأصولية والفروعية ، وذلك باطل قطعاً ، وأما إن سلم أن الأصل في علم القرآن أن يعتقد أن الأصل في الكلام حله على حقيقته ، فإن قام دليلاً منفصل على أنه يتعدر حله على حقيقته ، خيئتك يتبعين صرفة إلى بجازه ، فإن حصلت هناك بجازات لم يتبعين صرفة إلى بجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعين ، فنقول هنا لفظ القبضة ولفظ العين حقيقة في الجارحة المخصوصة ، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أفت الدلالة على أن حل هذه الأفاظ على ظواهرها ممتنع خيئتك يجب حلها على المجازات ، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلافي يصح جعله بجازاً عن تلك الحقيقة ، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره ، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذي عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت في هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب ، بل هو حين ما ذكره أهل التحقيق ، ثبت أن الفرج الذي أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذي لم يعرفه غيره طريق فاسد ، دال على فلة وفقة على المعنى ، ولنرجع إلى الطريق الحقيقي فنقول لاشك أن لفظ القبضة والعين مشهور بهذه الأعضاء والجوارح ، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتاع ثبوت الأعضاء والجوارح

الله تعالى ، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز ، فنقول إنه يقال فلان في قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره . قال تعالى (لا على أزواجهم أو ما ملكت أيديهم) والمراد منه كونه ملوكا له ، ويقال هذه الدارف يد فلان ، وفلان صاحب اليد ، والمراد من الكل القدرة ، والفقهاء يقولون في الشروط وبغض فلان كذا وصار في قبضته ، ولا يرتدون إلا خلوص مأك ، وإذا ثبت تغدر حل هذه الألفاظ على حقاتها وجب حلها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل ، فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب ، ولنا كتاب مفرد في إثبات تنزية الله تعالى عن الجسمية والمكان ، سيناه بتأسيس التقديس ، من أراد الإلتباس في هذا الباب فليترجم إليه .

﴿المسألة الثالثة﴾ في تفسير الفاظ الآية قوله (والارض) المراد منه الأرضون السبع، ويدل عليه وجوه (الأول) قوله (جيعاً) فان هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجم ونظيره قوله (كل الطعام) وقوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظروا على عورات النساء) وقوله تعالى (والنخل باسقات) وقوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعلوا الصالحات) فإن هذه الألفاظ الملحقة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجم فكذا هنا (والثانى) أنه قال بهذه (والسموات مطويات) فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون (الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتغريم فهذا مقتضى المبالغة، وأما القبضة فى المرة الواحدة من القبض، قال تعالى (قبضت قبضة من أثر الرسول) والقبضه بالضم المقدار المقصود بالكاف، ويقال أيضاً اعطنى قبضة من كذا، يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر، والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أى ذوات قبضته يقبحن قبضة واحد من قبضاته، يعنى أن الأرضين مع ما هما من العظمة والبساطة لا يليغان إلا بقضة واحدة من قبضاته، أما إذا أردت معنى القبضة، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين يحملتها مقدار ما يقبحه بكف واحدة فإن قبل ما وجه قرابة من قرأ قبضته بالنسبة، فلنا جعل القبضة ظرفاً<sup>(١)</sup> وقوله (مطويات) من الطلاق الذى هو ضد النشر كما قال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل) وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمنيه، ثم قال صاحب الكشاف : وقيل قبضته ملئه ويمينه قدرته، وقيل مطويات بيمنيه أى مفنيات بقسمه لانه أقسم أن يقبحها، ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول بأنها وجوه ركيكة، وأن حل هذا الكلام على محض التهليل أولى، وبالغ في تقرير هذا الكلام فأطيب، وأقول إن حال هذا الرجل في إقدامه على تحسين طريقة، وتقبيح طريقة القدماه عجيب جداً، فإنه إن كان مذهبة أنه يجوز ترك الظاهر اللفظ ، والمصير إلى المجاز من غير دليل لهذا طعن في القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة في شيء، وإن كان مذهبة أن الأصل في الكلام الحقيقة ، وأنه لا يجوز العدول عن إلا لدليل منفل ، فهو هذا هو الطريقة التي أطبق عليها جمهور المتقدمين ، فain السكلام الذي يزعم أنه علمه ؟ وأين العلم الذي لم يعرفه غيره ؟ مع أنه وقع في التأويلات

(١) يزيد أن منصوب نزع على المأهول والتقدير « في قيافته » .

العسر والكلمات الركيكة ، فإن قالوا المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء ، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد ، بل نفترض عليه إلى الله تعالى ، فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون إننا نعلم ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء ، فأما تعيين المراد ، فإننا نفترض ذلك العلم إلى الله تعالى ، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات ، فثبتت أن هذه التأويلات التي أني بها لهذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلاً ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذي تقدم قال (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته تبزه وقدس عن أن تجعل الأصنام شركا له في العبودية ، فإن قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه (الأول) أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ، ثم إنه قال في صفة العرش (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثباتية) وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم ، فكيف يمحرون تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والأرض ؟

(السؤال الثاني) أن قوله (والارض جيماً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه) شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيمة ، والقوم ما شاهدوا ذلك ، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكرونون معتبرين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركا لله تعالى ، فلا فائدة في إبراد هذه الحجة عليهم ، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله (والارض جيماً قبضته يوم القيمة) فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك ؟ .  
 (السؤال الثالث) حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكلامية الوفية بحفظ هذه الأجسام العظيمة ، وكما أن حفظها وإمساكها يوم القيمة ليس إلا بقدرة الله فكذاك الان ، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيمة ؟ .

(الجواب عن الأول) أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرًا على حفظ هذه الأجسام العظيمة ، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادرًا على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش .

(الجواب عن الثاني) أن المقصد أن الحق سبحانه هو المtower لإبقاء السموات والأرضين على وجوه الهمارة في هذا الوقت ، وهو المtower لتخريبها وإلقائها في يوم القيمة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام ، وتنبيه أيضًا على كونه غنياً على الإطلاق ، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكانه يقبض قبضة صغيرة ويريد افراها ، وذلك يدل على كمال الاستفهام .  
 (الجواب عن الثالث) أنه إنما خصص تلك يوم القيمة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا ، فكذاك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمته ، وذلك شرح مقدمات يوم القيمة لأن نفح الصور يكون قبل ذلك اليوم ، فقال (ونفح في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفح فيه أخرى فإذا هم قيام ينتظرون) واختلفوا في الصعقة ، منهم من قال إنها غير الموت بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام (وخر موسى صعقاً مع أنه لم يمت ، فهذا هو النفح الذي يورث الفزع الشديد ، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفح الصعقة ومن نفح الفزع واحد ، وهو المذكور في سورة النمل في قوله (وبوم ينفح في الصور فزع من في السموات ومن في الأرض) وعلى هذا القول فنفح الصور ليس إلا مرتين .

(والقول الثاني) أن الصعقة عبارة عن الموت والقاتلون بهذا القول قالوا إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت ، وعلى هذا التقدير فالنفح تحصل ثلاث مرات (أولها) نفح الفزع وهي المذكورة في سورة النمل (والثانية) نفح الصعقة (والثالثة) نفحمة القيام وهذا مذكور تان في هذه السورة .

وأما قوله (إلا من شاء الله) فقيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما : عند نفح الصعقة يموت من في السموات ومن في الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يميت جبريل .

(والقول الثاني) أنهم هم الشهداء لقوله تعالى (بل أحياه عند ربهم برزقون) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « هم الشهداء متقدرون أسيافهم حول العرش » .

(القول الثالث) قال جابر هذا المتشى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعبه ثانية .

(القول الرابع) أنهم الحور العين وسكان العرش والسماء .

(والقول الخامس) قال قنادة الله أعلم بأنهم من هم ، وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم .

قوله تعالى : « ثم نفح فيه أخرى فإذا هم قيام ينتظرون » وفيه أبحاث :

{الأول} لفظ القرآن دل على أن هذه النفح متأخرة عن النفح الأولى ، لأن لفظ (ثم) يفيد التراخي ، قال الحسن رحمة الله تعالى دل على أن هذه النفح الأولى ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن بينهما أربعين » ولا أدرى أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون ستة أو أربعون ألف سنة .

{الثاني} قوله (آخر) تقدير الكلام ونفح في الصور نفح واحدة ثم نفح فيه نفحة أخرى ، وإنما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة .

{الثالث} قوله (إذا هم قيام) يعني قيامهم من القبور بحصول عقيبة هذه النفحة الأخيرة

فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ تِرَاخٍ لَأَنَّ الْفَاءَ فِي قُولِهِ (فَإِذَا هُمْ) تَدْلِيلٌ عَلَى التَّعْقِيبِ .

(الرابع) قوله (ينظرون) وفيه وجهان (الأول) بنظرون يقلدون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم (والثاني) ينظرون ماذا يفعل بهم ، ويجوز أن يكون القائم بمعنى الورف والخزود في مكان لأجل استيلاه الحيرة والدهشة عليهم .

ولما بين الله تعالى هاتين النفحتين قال (وأشرت الأرض بنور ربها) وفيه بسائل :  
﴿المسألة الأولى﴾ هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يقعد عليها الآن بدليل قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وبدليل قوله تعالى (وحلت الأرض والجبار فدكتنا دكة واحدة) بل هي أرض أخرى بخلتها الله تعالى لمحفل يوم القيمة .

﴿المسألة الثانية﴾ قالت الجسمة : إن الله تعالى نور حمض ، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله ، وأمسكوا بها بقوله تعالى (الله نور السموات والأرض) .

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) أنا بينما في تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة ، وبينما أنه لما تمذر حل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور هنا على العدل ، فتحتاج هنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في هذا المعنى ، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور هنا ليس إلا هذا المعنى ، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملائكة العادل أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطلك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجورك ، وقال عليه السلام «الظلم ظلمات يوم القيمة» ، وأما بيان أن المراد من النور هنا العدل فقط أنه قال (وحي بالبيين والشهداء) وعلوم أن الجني بالشدة ليس إلا لإظهار العدل ، وأيضاً قال في آخر الآية (وهم لا يظلمون) فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم ، فكانه تعالى فتح هذه الآية بآيات العدل وختمنا بنفي الظلم (والوجه الثاني) في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى (وأشرت الأرض بنور ربها) يدل على أنه يحصل هناك نور مضاد إلى الله تعالى ، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى ، لأنّه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب ، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأنّ أصنافه إلى نفسه كان ذلك النور نوراً ، كشوله : بيت الله ، ونافع الله وهذا الجواب أقوى من الأول ، لأنّ في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والمذهب إلى المجاز . (والوجه الثالث) أنه قد يقال فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملائكة من الملوك ، وعلى هذا التقدير فلا ينتفع كونه نوراً .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنه تعالى ذكر في هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء : (أولها) قوله (وأشرت الأرض بنور ربها) وقد سبق الكلام فيه (وثانية) قوله (ووضع الكتاب)

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ زَمِّا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتُحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ  
خَزْنَتِهَا إِنَّ رَبَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتَلَوَّنَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَّيْكُمْ وَيُنَذِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمٍ كُمْ  
هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٦)  
قِيلَ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧)

وفي المراد بالكتاب وجوه (الاول) أنه الارجح المحفوظ الذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيمة (الثانى) المراد كتب الأعمال كما قال تعالى في سورة سبحان ( وكل إنسان أ Zimmerman طاره في عنقه وخرج له يوم القيمة كتاباً يلقاه منشوراً ) وقال أيضاً في آية أخرى (ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ) (وثالثاً) قوله (وجيء بالنبين) والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ، قال تعالى (فسكيف إذا جتنا من كل أمة بشهيد وجننا بذلك على هؤلاء شهيداً ) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ) (ورابعها) قوله (والشهداء) والمراد ما قاله في (وكذلك جعلناكم أمة وسطأ لتكونوا شهداء على الناس ) أو أراد بالشهداء المؤمنين ، وقال مقابل : يعني الحفظة ، وبدل عليه قوله تعالى (وجات كل نفس معها سائق وشهيد ) وقيل أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله ، ولما بين الله تعالى أنه يحضر في حفل القيمة جميع ما يحتاج إليه في فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بين تعالى أنه يصل إلى كل أحد حقه ، وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات (أولها) قوله تعالى (وقضى بينهم بالحق ) (وثانية) قوله (وم لا يظلمون ) (ثالثها) قوله (ووفيت كل نفس ما عملت ) أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت ، (ورابعها) قوله ( وهو أعلم بما يفعلون ) يعني أنه تعالى إذا لم يكن عالماً بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالماً بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم ، ثبت أن الله تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكافف فإنه يصل إلى حقه .

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ زَمِّا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتُحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ  
خَزْنَتِهَا إِنَّ رَبَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتَلَوَّنَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَّيْكُمْ وَيُنَذِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمٍ كُمْ  
هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٦)  
قِيلَ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧)

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيمة على سبيل الإجمال فقال (ووفيت كل نفس ما عملت )  
بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب و ختم السورة .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا  
وَقَالَ لَهُمْ خَرْنَتْهَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْطِيمٌ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْرَثَنَا أَلْأَرْضَ نَبَّوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعِمَ أَبْرُ

أما شرح أحوال أهل العتاب فهو المذكور في هذه الآية ، وهو قوله ( وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِلَى جَهَنَّمْ زُمْرًا ) قال ابن زيدان : سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع ، والدليل  
عليه قوله تعالى ( يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ) أي يدفعون دفعاً ، نظيره قوله تعالى ( فَذَلِكَ الَّذِي  
يَدْعُ الْيَتَمْ ) أي يدفعه ، ويدل عليه قوله تعالى ( وَنَسْرَقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمْ وَرَدًا ) .

وأما الزمن ، فهي الأفراج المترفة بعض في إثر بعض ، فيبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم  
إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تفتح عند وصول أولئك إليها ،  
 فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ( أَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ) أي من جنسكم ( يَتَّلَوُنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ  
وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا ) فإن قيل فلم أضيف اليوم إليهم ؟ فلنا أراد لقاء وتقىكم هذا وهو وقت  
دخولهم النار ، لا يوم القيمة ، واستعمال لفظ اليوم والأيام في أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا  
تقول الكفار : بل قد أتوا وتلوا علينا ( ولكن حلت كلمة العذاب على الكافرين ) وفي هذه  
الآية مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقدير الكلام أنه حلت علينا كلمة العذاب ، ومن حلت عليه كافة العذاب  
فكيف يمكنه الخلاص من العذاب ، وهذا صريح في أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقي لا ينقلب  
سعيداً ، وكلمات المعتزلة في دفع هذا الكلام معلومة ، وأجبتنا عنها أيضاً معلومة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أنه لا وجوب قبل بعث الشرع ، لأن الملائكة يبنوا أنه  
ما يلقى لهم علة ولا يغدر بعد بعث ، الآنباء عليهم السلام ، ولو لم يكن بعث الآنباء شرطاً في استحقاق  
العذاب لما يقع في هذا الكلام فائدة ، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ( ادخلوا  
أبواب جهنم خالدين فيها فليس من موئلي التكبريين ) قالت المعتزلة : لو كان دخولهم النار لأجل أنه  
حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة ( ليس من موئلي التكبريين ) فائدة ، بل هذا الكلام  
إنما يبيح مفيدة إذا قلنا إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الآنباء ولم يقبلوا قرائهم ، ولم يلتفتوا  
إلى دلائلهم ، وذلك يدل على صحة قولنا ، والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى : هـ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ  
خَرْنَتْهَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْطِيمٌ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

**الْعَمَلِينَ ﴿٦﴾ وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِنَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**

**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾**

تبوراً من الجنة حيث نشا . فعم أجر العالمين ، وترى الملائكة حافن من حول العرش بسبعون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ) .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب في الآية المتقدمة ، شرح أحوال أهل النواب في هذه الآية ، فقال ( وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ) فإن قيل السوق في أهل النار للمعذاب معقول ، لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى مرضع العذاب والشقاوة لابد وأن يساقوا إليه ، وأما أهل الشراب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة ، فما حاجة فيه إلى السوق ؟ والحراب من وجوه ( الأول ) أن الحجبة والصدقة باقية بين التقين يوم القيمة كما قال تعالى : ( الأخلا . يومئذ بعض عدو إلا التقين ) فإذا قيل لو أحد منهم لذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبابي وأصدقائي فيتاخرن عن هذا السبب ، فيينفذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة ( والثاني ) أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة ، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقو إلى الجنة ( والثالث ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أكثر أهل الجنة البخل وعليون للأبرار » فلهذا السبب يساقو إلى الجنة ( والرابع ) أن أهل الجنة وأهل النار يساقوان إلا أن المراد بسوق أهل النار طردتهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقييد ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكمتهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل من يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك ، فشتان ما بين السوقين .

ثم قال تعالى ( حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ) الآية ، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود : ( القيد الأول ) هو بمحبيهم إلى الجنة ( والقييد الثاني ) قوله تعالى ( وفتحت أبوابها ) فإن قيل قال أهل النار فتحت أبوابها بغير الواء ، وقال هنا بالواو فما الفرق ؟ فلنا الفرق أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، فأما أبواب الجنة ففتحها يمكن متقدماً على وصولهم إليها بدليل قوله ( جنات عدن مفتوحة لهم الأبواب ) فذلك حقيقة بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها . ( القيد الثالث ) قوله ( وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم فادخلوهها خالدين ) وبين تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب بهذه الكلمات الثلاث ( فأولها ) قوله ( سلام عليكم ) وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات

( وثانياً ) قوله ( طنم ) والمعنى ظلم من دنس المعاصي وظهر لهم من خبث الخطايا ( وثالثاً ) قوله ( فادخلوها خالدين ) والفاء في قوله ( فادخلوها ) يدل على كون ذلك الدخول معللاً بالطيبة والظهور ، قالت العزيلة هذا يدل على أن أحداً لا يدخلها إلا إذا كان ظاهراً عن كل المعاصي ، فلنا هذا ضعيف لأن الله تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ، وحينئذ يصيرون طيبين ظاهرين بفضل الله تعالى ، فإن قيل فهذا الذي تقدم ذكره هو الشرط في الجواب ؟ فلنا فيه وجهان ( الأول ) أن الجواب محنوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره ( الثاني ) أن الجواب هو قوله تعالى ( وقال لهم خزنتها سلام عليكم ) والواو محنوف ، وال الصحيح هو الأول ، ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات ، قال المتقون عند ذلك ( الحمد لله الذي صدقنا وعده ) في قوله ( أن لا تخافوا ولا تخزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، وأورثنا الأرض ) المراد بالأرض أرض الجنة ، وإنما عبر عنه بالإرث لوجه ( الأول ) أن الجنة كانت في أول الأمر لأدم عليه السلام ، لأن الله تعالى قال ( فكلا منها رغداً حيث شئتم ) فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث ( الثاني ) أن هذا اللفظ أحوذ من قول القائل : هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة ، لا جرم قالوا ( وأورثنا الأرض ) والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للإتيان بأعمال أورثت الجنة ( الثالث ) أن الوارث يتصرف فيها يرثها كاشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون في الجنة كيف شاءوا وأرادوا ، والمشابهة علة حسن المجاز فإن قيل ما معنى قوله ( حيث شاء ) وهل يتبعوا أحدهم مكان غيره ؟ فلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره ، قال حكماً الإسلام : الجنات نوعان ، الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لا تتحمل المشاركة فيها ، أما الروحانيات فخصوصها واحد لا يمنع من حصولها الآخرين ، ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنات قال ( فنعم أجر العاملين ) قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنات ، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنات قال بعده ( فنعم أجر العاملين ) ولما قال تعالى ( وترى الملائكة حاففين من حول "عرش ) ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هي الجنة ، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه ، فلهذا قال ( وترى الملائكة حاففين من حول العرش ) أي محيين بالعرض . قال الليث : يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفأ إذا طافوا به .

إذا عرفت هذا ، فنقول بين تعالى أن دار ثوابهم هوجوانب العرش وأطرافه ثم قال ( يسبحون بحمد ربهم ) وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التمجيد والتسبيح ، وحينئذ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات اشتراك قلوب العباد في درجات التفريج ومنازل التقديس .

ثم قال ( وقضى بينهم بالحق ) والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة ، فلكل واحد

منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهو المراد من قوله ( وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ) أى الملائكة لما قضى بينهم بالحق قالوا ( الحمد لله رب العالمين ) على قضائه بيتنا بالحق ، وهبنا دقة أعلى مما سبق وهي أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق ، فهم ماحمدوه لأجل ذلك القضاة ، بل حمدوه بصفته الواجبة وهي كونه رب العالمين ، فإن من حمد المذم لاجل أن إنعمه وصل إليه فهو في الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام ، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فهو ناقد وصل إلى جهة بحر التوحيد ، هذا إذا قلنا أن قوله ( وترى الملائكة حافين من حول العرش ) شرح أحوال الملائكة في الثواب ، أما إذا قلنا أنه من بقية شرح ثواب المؤمنين ، فتقريره أن يقال إن المتقين لما قالوا ( الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث شاء ) فقد ظهر منهم أنهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء ، فيبين تعالى أنه كما أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التمجيد والتجيد . فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة ، وحيثند يظهر منه أن المؤمنين المتقين . وأن الملائكة المقربين يصيرون متافقين على الاستغراق في تمجيد الله وتسبيحه ، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذم بذلك التسبيح والتحميد .

ثم قال ( وقضى بينهم بالحق ) أى بين البشر ، ثم قال ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) والمعنى أنهم يقدمون التسبيح ، والمراد منه تزويه الله عن كل مالا يليق بالإلهية .

وأما قوله تعالى ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) فالمراد وصفه بصفات الإلهية ، فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتفضيله عن كل مالا يليق به وهو صفات الجلال ، و قوله ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهي صفات الإكرام ، وبجمعهما هو المذكور في قوله ( تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ) وهو الذي كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قوله ( ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) وفي قوله ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) دقيقه أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو ، والمقصود من هذا الإبهام التزويه ، على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكمبرباء ليس إلا أن يقولوا ( الحمد لله رب العالمين ) وتأكيد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة ( وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ) .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ثم تفسير هذه السورة في ليلة الثلاثاء آخر ذي القعدة من ستة ثلاث وستمائة . يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنايك ، فن أنا ، والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور ، فن أنا ، وليس معي إلا أن أقول أنت وأننا ، فنك الرحمة والفضل والجود والإحسان ، ومني العجز والذلة والخيبة والخسران ، يا رحمن يا ديان يا حنان يا منان أفض على مجال الرحمة والغفران برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأئم وعلى آله وأصحابه وأزواجها أمميات المؤمنين ، وسلم تسليماً كثيراً .

(٤) سُبُّوكُتْغَانْ فَكِيْشَة  
فَأَنْتَ أَهْمَاءِ خَيْرٍ وَثَمَاهُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ  
الْتَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الْطَّوْلِ لَا إِنَّهُ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ مَا يَجِدُ  
فِي عَابِتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغُرُّكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ كَذَبَ قَبْلَهُمْ  
قَوْمٌ نُوحٌ وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا إِلَى الْبَاطِلِ  
لِيُدْخِلُوهُمْ بِهِ الْحَقَّ فَأَخْذَتْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ۝ وَكَذَلِكَ حَفَّتْ كَلِمَتُ  
رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَد ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد ، كذب قبلهم قوم نوح والآخرباب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدخلوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حفت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ۝ .

اعلم أن في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ۝ قرأ أعام في رواية أبي بكر ومحنة والكساني حم بكسر الحاء ، والباءون بفتح الحاء ، ونافع في بعض الروايات ، وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحاً شديداً ، قال صاحب الكشاف : قرىء بفتح الميم وتسكنها ، ووجه الفتح التحرير لالقاء الساكنين وإثناء أخف الحركات نحو : أين وكيف ، أو النصب يا ضئار اقرأ ، ومنع الصرف إما

للتأنيث والتعریف ، من حيث إنها اسم للسورة للتعریف ، وإنها على زنة أجمیع نحو قایل وھا یل ، وأما السکون فلأننا یینا أن الأسماء الجردية تذکر موقوفة الاوآخر .

﴿المسألة الثانية﴾ الكلام المستقصى في هذه الفوائح مذکور في أول سورة البقرة ، والأقرب هنا أن يقال حم اسم للسورة ، ف قوله (حم) مبتدأ ، و قوله (تنزيل الكتاب من الله) خبر والتقدیر أن هذه السورة المسیاء بحم تنزيل الكتاب ، ف قوله (تنزيل) مصدر ، لكن المراد منه المنزل . وأما قوله (من الله) فاعلم أنه لما ذکر أن (حم ، تنزيل الكتاب) وجہ ییان أن المنزل من هو ؟ فقال (من الله) ثم بين أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصیر ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستئناع وزجره عن التهاون والتوازن فيه ، فیین أن المنزل هو (الله العزیز العلیم) .

واعلم أن الناس اختلفوا في أن العلم بالله ما هو ؟ فقال جمع عظیم ، أنه العلم بكونه قادرًا وبعده العالم بكونه عالما ، إذا عرفت هذا فقول (العزیز) له تفسیران (أحدما) الغائب فيكون معناه القادر الذي لا يساویه أحد في القدرة (والثانی) الذي لا مثل له ، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزیز هنا القادر ، لأن قوله تعالى (الله) يدل على كونه قادرًا ، فوجہ حمل (العزیز) على المعنى الثاني وهو الذي لا يوجد له مثل ، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما ، والذی لا يكون جسما يكون منها عن الشهوة والنفرة ، والذی يکون كذلك يکون منها عن الحاجة . وأما (العلیم) فهو مبالغة في العلم ، والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالما بكل المعلومات ، ف قوله (من الله العزیز العلیم) يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق ، الغی المطلق ، العالم المطلق ، ومن كان كذلك كان عالما بوجره المصالح والمقاصد ، وكان عالما بكونه غیبا عن جر المصالح ودفع المقاصد ، ومن كان كذلك كان رحیما جوادا ، وكانت أفعاله حکمة وصواباً منها عن القبیح والباطل ، فكانه سبحانه إما ذکر عقب قوله (تنزيل) هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حکمة وصواب ، وهي كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حفأ وصوابا ، وقيل الفائدة في ذکر (العزیز العلیم) أسان (أحدما) أنه بقدرته وعلمه أزال القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز ، ولو لا كونه عزیزا عليما لما صاح ذلك (والثانی) أنه تسکل بحفظه وبعموم التکلیف فيه وظهوره إلى حين انتهاء التکلیف ، وذلك لا يتم إلا بكونه عزیزا لا يغلب وبكونه عليما لا يخفی عليه شيء ، ثم وصف نفسه بما یجمع الوعد والوعيد والرهیب والترغیب ، فقال (غافر الذنب ، وقابل التوب شدید العقاب ، ذی الطول لا إله إلا هو إله المصیر) نہنہ ستة أنواع من الصفات :

(صفة الأولى) قوله (غافر الذنب) قال الجبائی : معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بهلوة أو طعة أعظم منه ، ومراده منه أن قاعل المصیبة إما أن يقال إنه كان قد أدى قبل ذلك بطاقة

كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأول كانت هذه المعصية صغيرة فيحيط عقابها ، وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتنوبة ، ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يغفر عن الكبيرة بعد التوبة ، وهذه الآية تدل على ذلك وي بيانه من وجوه (الأول) أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الأمور الواجبة على العبد ، وبهذا ينبع الأنباء والأولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون في فعل الواجبات ، فلو حلت كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أول الناس من زمرة المطهرين فرق في المعنى الموجب لهذا المدح وذلك باطل ، فثبتت أنه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الثاني) أن الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر إنما يعقل في الشيء الذي يكون باقياً موجوداً فيستر ، والصغرى تحبط بسبب كثرة ثواب قاعلها ، فمعنى الغفر فيها غير معقول ، ولا يمكن حل قوله غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة ، لأن معنى كونه قابلاً للتوب ليس إلا ذلك ، فلو كان المراد بكونه غافر الذنب هذا المقصى لزم التكرار وإنما باطل . ثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافراً للذنب الكبير قبل التوبة (الثالث) أن قوله (غافر الذنب) مذكور في معرض المدح العظيم ، فوجب حله على ما يفيد أعظم أنواع المدح ، وذلك هو كونه غافراً للكبائر قبل التوبة ، وهو المطلوب .

(الصفة الثانية) قوله تعالى **﴿وقابل التوب﴾** وفيه بحثان :

(الأول) في لفظ التوب قوله تعالى : **﴿الْأَوَّلُ أَنَّهُ مَصْدِرُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عِيْدَةَ، وَالثَّانِي أَنَّهُ جَمَاعَةُ التَّوْبَةِ وَهُوَ قَوْلُ الْأَخْفَشِ، قَالَ الْمَبْرُدُ يَحْوِزُ أَنَّهُ مَصْدِرًا يَقُولُ تَابَ يَتُوبُ تَوْبَاً وَتَوْبَةً مِثْلَ قَالَ يَقُولُ قَوْلًا وَقَوْلَةً، وَيَحْوِزُ أَنَّهُ مَجْمَعًا لِتَوْبَةٍ فَيَكُونُ تَوْبَةً وَتَوْبَةً مِثْلًا نِسْرًا وَثُمَرًا إِلَّا أَنَّهُ مَصْدِرٌ أَفْرَبٌ لِأَنَّهُ عَلَى هَذِهِ الْتَّقْدِيرِ يَكُونُ تَأْوِيلَهُ أَنَّهُ يَقْبِلُ هَذَا الْفَعْلَ.**

(الثاني) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضيل ، وليس بواجب على الله ، وقالت المعتزلة إنه واجب على الله واحتاج أصحابنا بأنه تعالى ذكر كونه قابلاً للتوب على سبيل المدح والثناء ، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل ، وهو القدر الذي يحصل جميع الصالحين عند أداء الواجبات والاعتراض عن المظاهرات .

(الصفة الثالثة) قوله **﴿شَدِيدُ الْعَقَاب﴾** وفيه بحاث :

(البحث الأول) في هذه الآية سؤال وهو أن قوله (شديد العقاب) يصلح أن يكون نعتاً للنكرة ولا يصلح أن يكون نعماً للمرة تقول مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول مررت بعد آلة شديدة البطش ، وقوله آلة علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يجعل وصفاً للنكرة ؟ قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غداً ، وإنما أردت

ثبوت ذلك ودواجه ، فكان حكمه ما حكم إله الخلق ورب العرش ، وأما (شديد العقاب) فشكل لأنه في تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جمله صفة المعرفة ، وهذا تقرير السؤال وأجيب عنه بوجه (الأول) أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسن ذكرها كما في قوله (وهو الغفور الودود ، ذو العرش الجيد ، فعال لما يريد) (والثاني) قال الزجاج إن خصص شديد العقاب على البطل ، لأن جعل النكرة بدلاً من المعرفة وبالعكس أمر جائز ، واعتراضوا عليه بأن جمله وحده بدلاً من الصفات فيه نبوة ظاهرة (الثالث) أنه لازماع في أن قوله (غافر الذنب وقابل التوب) يحسن جملهما صفة ، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار ، فكذلك قوله (شديد العقاب) يفيد معنى الدوام والاستمرار ، لأن صفات الله تعالى مزدهرة عن الحدوث والتتجدد ، فكونه (شديد العقاب) معناه كونه بحيث يستند عقابه ، وهذا المعنى حاصل أبداً ، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك ، فهذا ما قبل في هذا الباب .

(البحث الثاني) هذه الآية مشعره بترجيع جانب الرحمة والفضل ، لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منها يقتضي زوال العقاب ، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة ، وهو قوله ذي الطول ، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقاً ببینك الصفتين وملحوظاً بهذه الصفة ، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح .

(البحث الثالث) لقائل أن يقول ذكر الواو في قوله (غافر الذنب وقابل التوب) ولم يذكرها في قوله (شديد العقاب) فما الفرق ؟ فلتأن إنه لو لم يذكر الواو في قوله (غافر الذنب وقابل التوب) لا يتحمل أن يقع في خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب ، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ، لأن عطف الشيء على نفسه محال ، أما كونه شديد العقاب فعلوم أنه مغاير لكونه (غافر الذنب وقابل التوب) فاستغني به عن ذكر الواو .

(الصفة الرابعة) قوله (ذى الطول) أي ذى التفضيل يقال طال علينا طولاً أي تفضل علينا تفضلاً ، ومن كلامهم طل على بفضلك ، ومنه قوله تعالى (أولوا الطول منهم) وممضى تفسيره عند قوله (ومن لم يستطع منكم طولاً) واعلم أنه لم وصف نفسه بكونه (شديد العقاب) لابد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتياً بالعقاب الشديد الذي لا يقبح منه لإتيانه به ، بل لا يمحوز وصفه تعالى بكونه آتياً لفعل القبيح ، وإذا ثبت هذا فنقول : ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل ، فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب المذى له أن يفعله لأنه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين أنه ذو الطول فإذا فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول في الامر الذي سبق ذكره ، وهو فعل العقاب الحسن دفعاً للإجمال ، وهذا يدل على أنه تعالى قد يترك العقاب الذي

يمحسن منه تعالي فعمله ، وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب .  
 (الصفة الخامسة) التوحيد المطلق وهر قوله (لا إله إلا هو) والمعنى أنه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل ، ولو كان معه إله آخر يشاركه ويسااويه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة ، أما إذا كان واحداً وليس له شريك ولا شيء كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة ، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بـ بـ بـ هذا التوحيد .

(الصفة السادسة) قوله (إليه المصير) وهذه الصفة أيضاً ما يقوى الرغبة في الإقرار ببعوبيته، لأنه بقدر أن يكون موصوفاً بصفات الفضل والكرم وكان واحداً لاشريك له، إلا أن القول بالخسر والنشر إن كان باطلًا لم يكن الخوف الشديد حاصلاً من عصيائه، أما لما كان القول بالخسر والقيمة حاصلاً كان الخوف أشد والخذر أكمل، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات، واحتاج أهل التشبيه بلفظة إلى، وقالوا إنها تفيد انتهاء الغاية، والجواب عنه مذكور في وواضم كثيرة من هذا الكتاب.

وأعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به في الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض إبطاله وإخفاء أمره فقال (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أن الجدال نوعان جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل ، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرقه الأنبياء عليهم السلام قال تعالى لـ ﴿مُحَمَّدٌ أَكْرَمُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ( وجادلهم بالتي هي أحسن ) وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لـ ﴿نُوحٌ أَنْتَ مُرْسَلٌ إِلَيْنَا﴾ عليه السلام ( يأنوحاً قد جادلتنا فـ ﴿أَكْثَرُهُمْ كُفَّارٌ﴾ ) وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال ( ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ) وقال ( ما ضرب به لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ) وقال ( وجادلوا بالباطل ليذبحوا به الحق ) وقال صلى الله عليه وسلم « إن جدالاً في القرآن كفر » فقوله إن جدالاً على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال ، واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه ، قال صلى الله عليه وسلم « إن جدالاً في القرآن كفر » وقال « لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر ». .

﴿المسألة الثانية﴾ الجدال في آيات الله هو أن يسأل مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلم بشر ، وأشباه هذا ما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿فَلَا يُغْرِكُ تِقْبَلَهُمْ فِي الْبَلَادِ﴾ أى لا ينبغي أن تغتر بآئٍ أهلهم وأتر كهم سالحين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد أى يتصرفون للتجارات وطلب العاش ، ثانٍ وإن أهلتهم فإني سأخدم وأتقى منهم كما فعلت بأشخاصهم من الأمم الماضية ، وكانت قريش كذلك

**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ  
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ أَمْنَوْرَبَنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا**

يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهما الأموال الكثيرة يتجررون فيها ويرجحون ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال ( كذبت قبليهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ) فذكر من أو نك المكذبين قوم نوح ( والأحزاب من بعدهم ) أي الأمم المستمرة على الكفر كقوم عاد ونمود وغيرهم ، كما قال في سورة ص ( كذبت قلوب قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، ونمود وقوم لوط وأصحاب الآيةك الأولى الأحزاب ) و قوله ( وهما كل أمة برسولهم ليأخذوه ) أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه ( وجادلوا بالباطل ) أي هؤلاء جادلوا رسولهم بالباطل أي يأبراد الشبهات ( ليحضروا به الحق ) أي أن يزيلوا بـ بـ بـ إبراد تلك الشبهات الحق والصدق ( فأخذتهم فكيف كان عقاب ) أي فأذلت بهم من الملائكة ما همزا ياز الله بالرسل ، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا ، فكيف كان عقابي أيام ، أليس كان مهلكاً مستأصلًا وهيأ في الذكر والسباع ، فانا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصرروا على الكفر والمجادل في آيات الله ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال : ( وكذلك حقت كلامة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ) أي ومثل الذي حق على أولئك الأمم السابقة من العقاب حقت كلامة أيضًا على هؤلاء الذين كفروا من قومك لهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب الكشاف : ( إنهم أصحاب النار ) في محل الرفع بدل من قوله ( كلامة ربك ) أي مثل ذلك الوجوب وجوب على الكفارة كونهم من أصحاب النار ، و معناه كما وجب إهلاً كفهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاً كفهم بعذاب النار في الآخرة ، أو في محل النصب بمحذف لام التعليل وإيصال الفعل ، واحتاج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاة الله بالسعادة والشقاوة لازم لا يمكن تغييره ، فقالوا إنه تعالى أخبر أنه حقت كلامة العذاب عليهم وذلك يدل على أنهم لا قدرة لهم على الإيمان ، لأنهم لو تمكنا منه لتمكنا من إبطال هذه الكلمة الحقة ، ولتمكنا من إبطال علم الله وحكمته ، ضرورة أن المتمكن من الشيء يجب كرمه متمكنًا من كل ما هو من لوازمه ، ولا نهم لو آمنوا لو جب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية فخينتذ كانوا قد آمنوا بأنهم لا يؤمنون أبدًا ، وذلك تكليف مالا يطاق ، وقرآنًا فاعن وابن عامر ( حقت كلمات ربك ) على الجم وباقيون على الواحد .

قوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعـت كل شيء رحمة وعلمـا فاغـفر للذين تابـوا واتـبعـوا سـيـلـكـ وقـيمـ عـذـابـ المـجـيمـ

وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَنَا وَادْخِلْهُمْ جَنَّتَ عَدِّنِ  
الَّتِي وَعَدْتُهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْهُمْ ۝ أَبْا آبَاهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَذُرَيْتُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِيمُ السَّيَّئَاتِ وَمَنْ تَقَى السَّيَّئَاتِ يُوَمَّدٌ فَقَدْ رَحِمْتَهُ  
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝

ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقيم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم .  
اعلم أنه تعالى لما بين أن السكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين ، بين أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حلة العرش والمحافون حول العرش يبالغون في إظهار الحسنة والنصرة للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تقم لهم وزناً ، فان حلة العرش معلم والمحافون من حول العرش معلم ينصرونك وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية :

(القسم الأول) الذين يحملون العرش ، وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيمة ثمانية ، فيمكن أن يقال الذين يحملون في هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيمة ، ولا شك أن حلة العرش أشراف الملائكة وأكارم ، روى صاحب الكشاف أن حلة العرش أرجلهم في الأرض السفلية ورموسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرافقون طرفهم ، وعن النبي ﷺ « لاتنفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيها خلق الله تعالى من الملائكة فإن خلفاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، وقد ماده في الأرض السفلية ، وقد مرق رأسه من سبع سماءات وإنه ليتضائل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضم » قيل إنه طائر صغير ، وروى أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدو ويروجوا بالسلام على حلة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة ، وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين الفائمتين من قوانبه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ، وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهملين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عرائضهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الإيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا ويسبح بما لا يسبح به الآخر ، هذه الآثار نقلتها من الكشاف .

وأما (القسم الثاني) من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية ف قوله تعالى (ومن حواله) والظاهر أن المراد منهم ما ذكره في قوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) وأقول العقل يدل على أن حلة العرش ، والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة ، وذلك لأن نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد ، فلما كان العرش أشرف المرجوات الجسمانية كانت الأرواح المتعلقة بتديير العرش يجب أن تكون أفضل من الأرواح المدبرة للأجساد ، وأيضاً يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الأرواح القاهرة المستعملة لجسم العرش أرواح آخر من جنسها ، وهي متعلقة بأطراف العرش وإليهم الإشارة بقوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) وبابحثة فقد ظهر بالبراهين اليقينية ، وبالاكتشافات الصادقة أنه لا نسبة لعالم الأجساد ، إلى عالم الأرواح فكل ما شاهدته بين البصر في اختلاف مراتب عالم الأجساد ، فيجب أن تشاهد بعين بصيرتك في اختلاف مراتب عالم الأرواح .

**﴿المسألة الثانية﴾** دلت هذه الآية على أنه سبحانه منه عن أن يكون في العرش ، وذلك لأنه تعالى قال في هذه الآية (الذين يحملون العرش) وقال في آية أخرى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ولا شك أن حامل العرش يكون حاملاً لكل من في العرش ، فلو كان إله العالم في العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لإله العالم خيئذ يكونون حافظين لإله العالم والحافظ قادر أولى بالإلهية والمحمول المحفوظ أولى بالعبودية ، خيئذ ينقلب الإله عبداً والعبد إلهاً ، وذلك فاسد ، فدل هذا على أن إله العرش والأجسام متعال عن العرش والأجسام .

واعلم أنه تعالى حكى عن حلة العرش ، وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء :

**﴿النوع الأول﴾** قوله (يسبحون بحمد ربهم) ونظيره قوله حكاية عن الملائكة (ونحن نسبح بحمدك) و قوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) فالتسبيح عبارة عن تزييه الله تعالى بما لا ينبع ، والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، فالتسبيح إشارة إلى الجلال والتحميد إشارة إلى الإكرام ، قوله (يسبحون بحمد ربهم) قريب من قوله (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) .

**﴿النوع الثاني﴾** مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى (ويؤمنون به) فإن قيل فأى فائدة في قوله (ويؤمنون به) فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله ؟ فلنا الفائدة فيه ما ذكره صاحب الكشاف ، وقد أحسن فيه جداً فقال إن المصود منه التنبية على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حلة العرش والحافين حول العرش يشاهدونه وبعainونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للدبح والثاء لأن الإفقار بوجود شيء حاضر مشاهد معين لا يوجب الدبح والثاء ، إلا ترى أن الإفقار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب

ال مدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم ، علم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هناك ، ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكتفاه خيراً وشرقاً .

( النوع الثالث ) ما حكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى ( ويستغفرون للذين آمنوا ) أعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرتين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، وبجوب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله . قوله ( يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ) مشعر بالتعظيم لأمر الله قوله ( ويستغفرون للذين آمنوا ) مشعر بالشفقة على خلق الله . ثم في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتاج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن الملك أفضل من البشر ، قالوا لأن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتبهوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون ، وهذا يدل على أنهم مستغفرون عن الاستغفار لأنفسهم لذلوك كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله ﴿ إِنَّمَا يَعْمَلُ أَبْدَأً بِنَفْسِكَ ﴾ ، وأيضاً قال تعالى لمحمد ﴿ قَاتَلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ ﴾ فأمر محمد أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه ، ثم بمده يذكر الاستغفار لغيره ، وحكي عن نوح عليه السلام أنه قال ( رب اغفر لي ولوالدى ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ) وهذا يدل على أن كل من كان محتاجاً إلى الاستغفار فإنه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره ، فالملايكه لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لكان اشتغلهم بالاستغفار لأنفسهم مقدماً على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ، ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لأنفسهم علينا أن ذلك إنما كان لأنهم ما كانوا محتاجين إلى الاستغفار ، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين إلى استغفار بدليل قوله تعالى لـ محمد عليه السلام ( واستغفر لذنبك ) وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتاج الكعبى بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة النواب للمؤمنين لافي إسقاط العقاب عن المذنبين ، قال وذلك لأن الملائكة قالوا ( فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ) قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفرسوأ كان مصراً على الفسق أو لم يكن كذلك ، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعاً سبيلاً ربه ولا يطلق ذلك فيه ، وأيضاً إن الملائكة يقولون ( وأدخلهم جنات عدن التي وعدتم ) وهذا لا يليق بالفاسقين ، لأن خصومنا لا يقطمون على أن الله تعالى وعدم الجنة وإنما يجذبون ذلك ، ثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة ، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق ( و الجواب ) أن نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين ، فبين هذا ثم تحيب عما ذكره الكعبى ، أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجراه ( الأول ) قوله ( ويستغفرون للذين

آمنوا) والاستغفار طلب المغفرة ، والمغفرة لانذكر إلا في إسقاط العقاب . أما طلب الفع الزائد فإنه لا يسمى استغفاراً (الثاني) قوله تعالى ( ويستغفرون للذين آمنوا ) وهذا يدل على أنهم يستغفرون لكل أهل الإيمان ، فإذا دلنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (الثالث) قوله تعالى ( فاغفر للذين تابوا ) طلب المغفرة للذين تابوا ، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة ، لأن ذلك واجب على الله عند الخصم ، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاة فيصح ، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغار ، لأن ذلك أيضاً واجب فلا يحسن طلبه بالدعاة ، ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على التواب ، لأن ذلك لا يسمى مغفرة ، ثبتت أنه لا يمكن حل قوله ( فاغفر للذين تابوا ) إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة ، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الانبياء لأنعقاد الإجماع على أنه لافق ، أما الذي يتمسك به الكببي وهو أنهم طلبو المغفرة للذين تابوا ، فنقول يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان ، و قوله إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائباً ولا متبعاً سبيلاً لله ، فلتا لا نسلم قوله ، بل يقال إنه تائب عن الكفر وتابع سبيلاً لله في الدين والشريعة ، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب ، إلا ترى أنه يمكن في صدق وصفه بكونه صارباً وضاحكاً صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه فكذا هنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أهل التحقيق : إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري بجرى اعتذار عن ذلة سبقت ، وذلك لأنهم قالوا في أول تحليق البشر ( أتحمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ) فلما سبق منهم هذا الكلام تداركته في آخر الأمر بأن قالوا ( فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ) وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره ، فالأولى أن يجر ذلك الإيذاء بإصال نفع عليه .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين تابوا ، بين كيفية ذلك الاستغفار ، فك عنهم ﴿ قالوا ربنا وسعتم كل شيء رحمة وعلماً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الدعا في أكثر الأمور مذكور بلغة (ربنا) ويدل عليه أن الملائكة هند الدعا قالوا (ربنا) بدليل هذه الآية ، وقال آدم عليه السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا) وقال نوح عليه السلام (رب إن أعود بك أن أسلك ما ليس لي به علم) وقال أيضاً (رب إن دعوت قومي ليلاً ونهاراً) وقال أيضاً (رب اغفر لي ولوالدى) وقال عن إبراهيم عليه السلام (رب أرنى كيف تخفي الموقف) وقال (رب اغفر لي ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقال (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقال عن يوسف (رب قد آتني من الملك) وقال عن موسى عليه السلام (رب أرنى أنظر إليك) وقال في قصة الوكز (رب إن ظللت نفسي فاغفر لي).

غفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين ) وحكي تعالى عن داود أنه ( استغفر ربه وخر راكعاً وأناب ) وعن سليمان أنه قال ( رب هب لي ملكاً ) وعن ذكريا أنه ( نادى ربه نداء خفياً ) وعن عيسى عليه السلام أنه قال ( ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ) وعن محمد ﷺ أن الله تعالى قال له ( وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ) وحكي عن المؤمنين أنهم قالوا ( ربنا ما خلقت هذا باطلأ ) وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات ، وحكي أيضاً عنهم أنهم قالوا ( غفرانك ربنا وإليك المصير ) إلى آخر السورة .

ثبت بما ذكرنا أن من أرضي الدعاء أن ينادي العبد ربّه بقوله (ربّ) و تمام الأشكال فيه أن يقال لفظ الله أعظم من لفظ الرب ، فلم صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء ؟ ، (والجواب) كان العبد يقول : كنت في كتم العدم المغض والنفي الصرف ، فأخر جئني إلى الوجود ، وريتني فاجعل ترينك لي شفيعاً إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن ترعيتك وإحسانك وفضلك .

﴿المسألة الثانية﴾ السنة في الدعاء ، يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ، ثم يذكر الدعاء عقيبه ، والدليل عليه هذه الآية ، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للؤمنين بدأوا بالثناء فقالوا (ربنا وسمت كل شيء رحمة وعلماً) وأيضاً أن الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولاً فقال (الذى خلقنى فهو يهدى ، والذى هو يطعمنى ويستعين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يمتنى ثم يحيى ، والذى أطمع أن يغفر لى خططيى يوم الدين) فكل الثناء على الله تعالى ، ثم بعده ذكر الدعاء فقال (رب هب لى حكماً وأحقني بالصالحين ) .

واعلم أن العقل يدل أيضاً على رعاية هذا الترتيب ، وذلك ذكر الله بالشأن والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس ، فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهباً إبريزاً فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية ، انقلب من نحو سنتنحاسة إلى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة ، فثبت أن عند إشراق نور معرفة الله تعالى في جواهر الروح ، يصير الروح أقوى صفاء وأكل إشرافاً ، ومني صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكل ، فكان حصول الشيء المطلوب بالدعاء أقرب وأكلن ، وهذا هو السبب في تقديم الشأن على الله على الدعاء .

﴿المسألة الثالثة﴾ أعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات : الربوبية والرحمة والعلم ، أما الربوبية فهي إشارة إلى الإيجاد والإبداع ، وفيه لطيفة أخرى وهي أن قوله

(ربنا) إشارة إلى التزية ، والتزية عبارة عن إبقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته ، وهذا يدل على أن هذه الممكنتات ، كما أنها تحتاجة حال حدوثها إلى إحداث الحق سبحانه وتعالى وإيجاده ، فكذلك إنها تحتاجة حال بقائهما إلى إبقاء الله ، وأما الرحمة فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر ، وأنه تعالى إنما خلق الحاق الرحمة والخير ، لاللإضرار والشر ، فإن قيل قوله (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) فيه سؤال ، لأن العلم وسع كل شيء . أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء ، لأن المضرة حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك ضرر رحمة ، وهذا السؤال أيضاً مذكور في قوله (ورحمي وسعت كل شيء) قلنا كل وجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيباً وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن ، أما الواجب فليس إلا الله سبحانه وتعالى ، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى ويتجاهده ، وذلك رحمة ، فثبت أنه لا يوجد غير الله إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله ، فلهذا قال (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) وفي الآية دقة أخرى ، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتتجاوز عملاً عليهم منهم من أنواع الذنوب ، فالمطلوب بالذات هو الرحمة ، والمطلوب بالعرض أن يتتجاوز عملاً عليهم منهم ، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ، إلا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوباً بالذات وإزالة المرض مطلوباً بالعرض لاجرم لما ذكروا أحد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض ، فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ، فكذا هنا المطلوب بالذات هو الرحمة ، وأما التجاوز عملاً عليهم منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض ، لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب ، فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقاً على ذكر العلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دلت هذه الآية على أن المقصود بالقصة الأولى في الخلق والتكون إنما هو الرحمة والفضل والجود والبر ، ودلت الدلائل اليقينية على أن كل مدخل في الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة بقضاء الله وقدره ، والجمع بين هذين الأصلين في غاية الصعوبة ، فعند هذا أقالت الحكام : الخير مراد مراضي ، والشر مراد مكروره «والخير مقصى به بالذات ، والشر مقصى به بالعرض ، وفيه غدر عظيم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله ﴿ وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ يدل على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات التي لانتهاية لها من الكليات والجزئيات ، وأيضاً فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع قائدة لأنه إذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء ، فعل هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يتحقق في الدعاء قائدة البتة .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثناهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم ، وهو أنهم قالوا (فاغفر للمذنبين تابوا واتبعوا سبيلك وتهتم عذاب الجحيم) واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء

من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين ، فالمطلوب الأول الغفران وقد سبق تفسيره في قوله ( فاغفر للذين تابوا وابنعوا سبيلك ) فإن قيل لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب ، وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله : فاغفر لهم ، وبين قوله ( وفهم عذاب الجحيم ) فلنا دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة ، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصریح لأجل النأکید والمبالغة ، واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الشواب إلىهم فقالوا ( ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ) فإن قيل أنت زعمت أن هذه الشفاعة إنما حصلت للمذنبين وهذه الآية بطل ذلك لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنات عدن ، فلنا لأنسأله ما وعد بهم بذلك ، لأننا بياناً أن الدلائل الكثيرة في القرآن دلت على أنه تعالى لا يخلي أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله في النار ، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة فكان هذا وعداً من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنات عدن ، إما من غير دخول النار وإما بعد أن يدخلهم النار . قال تعالى ( ومن صلح من آباءهم وأزواجاهم وذرياتهم ) يعني وأدخل معهم في الجنة هؤلا الطرائف الثلاث ، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات ، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكل ، قال القراء والزجاج ( من صلح ) نصب من مكаниن فإن شئت ردته على الضمير في قوله ( وأدخلهم ) وإن شئت في ( وعدتهم ) والمراد من قوله ( ومن صلح ) أهل الإيمان ، ثم قالوا ( إنك أنت العزيز الحكيم ) وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لوم يكن عزيزاً بل كان بمحبته يغلب وينبع لما صرخ وقرع المطلوب منه ، ولو لم يكن حكيماً لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ، ثم قالوا بعد ذلك ( وفهم السيدات ) قال بعضهم المراد وفهم عذاب السيدات ، فإن قيل فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله ( وفهم السيدات ) وبين ما تقدم من قوله ( وفهم عذاب الجحيم ) وحيثنة يلزم الشكر الحالى عن الفائدتين وإنه لا يجوز ، فلنا بل التفاوت حاصل من وجهين ( الأول ) أن يكون قوله ( وفهم عذاب الجحيم ) دعاء مذكور للأصول قوله ( وفهم السيدات ) دعاء مذكوراً للقروع ( الثاني ) أن يكون قوله ( وفهم عذاب الجحيم ) مقصورة على إزالة الجحيم قوله ( وفهم السيدات ) يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال .

( والقول الثاني ) في تفسير قوله ( وقهم السيئات ) هو أن الملائكة طلبو إزالة عذاب النار بقولهم ( وقهم عذاب الجحيم ) وطلبو إبصال ثواب الجنة إليهم بقولهم ( وأدخلهم جنات عدن ) ثم طلبوه بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الفاسدة ، وهو المراد بقولهم ( وقهم السيئات ) ثم قالوا ( ومن تقي السيئات يومئذ فقد رحمته ) يعني ومن تقي السيئات في الدنيا فقد رحمته في يوم القيمة ، ثم قالوا ( وذلك هو الفوز العظيم ) حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعمها لا ينقطع ، وبأعمال حقيقة ملائكة لا تصل العقول إلى كنه جلالته .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَّا قُتِلَ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمْتَنَا أَنْتَنِي وَأَحِيتَنَا أَنْتَنِي فَاعْتَرَفَنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٨﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرُوكُمْ وَإِنْ يُشْرِكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَّا قُتِلَ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، قَالُوا رَبَّنَا أَمْتَنَا أَنْتَنِي وَأَحِيتَنَا أَنْتَنِي فَاعْتَرَفَنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرُوكُمْ وَإِنْ يُشْرِكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله ومم الذين ذكرهم الله في قوله (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) بين أنهم في القيمة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال (إن الذين كفروا ينادون لقت الله أكبر من مقتكم) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في الآية حذف وفيها أيضاً تقديم وتأخير ، أما الحذف فقد ذكره لقت الله ليأكلكم ، وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لقت الله لكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه (الأول) أنهم إذا شاهدوا القيمة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا (الثاني) أن الأتباع يستند مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا ، والرؤساء أيضاً يستند مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضاً بأنهم مقتوا أنفسهم ، كما أنه تعالى قال (فاقتلو أنفسكم) والمراد قتل بعضهم بعضاً (الثالث) قال محمد بن كعب إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله (وما كان لعليكم من سلطان - إلى قوله - ولو مَا أَنفُسَكُمْ) ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم ، واعلم أنه لا نزاع أن مقتهم أنفسهم إنما يحصل في يوم القيمة ، أما مقت الله لهم فقيه وجهان (الأول) أنه حاصل في الآخرة ، والمعنى لقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت (والثاني) عليه إلا كثرون أن التقدير لقت الله لكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن ففي تفسير الألفاظ المذكورة في الآية أوجه (الأول) أن الذين ينادونهم ويدركون لهم هذا الكلام هم خرنة جهنم (الثاني) المقت أشد البعض وذلك في حق الله تعالى حال ، فالمراد منه أبلغ الإنكار والزجر (الثالث) قال الفرام (ينادون لقت الله) معناه لهم ينادون إن مقت الله

قوله تعالى : ربنا أمتنا اثنتين . سورة غافر .

أكبر يقال ناديت إن زيداً قائم وإن زيداً لقائم (الرابع) قوله (إذ تدعون إلى الإيمان) فيه حذف والتقدير لفظ الله لكم إذ تدعون إلى الإيمان فتأتون بالكفر أكبر من مقتكم الآن أنفسكم .

ثم أنه تعالى بين أن الكفار إذا خاطبوا بهذا الخطاب (قالوا ربنا أمتنا اثنتين) إلى آخر الآية ، والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسداً باطلأ ثمنوا الرجوع إلى الدنيا لكنكي يستغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتاج أكثر العلماء بهذه الآية في إثبات عذاب القبر ، وتقدير الدليل أنهم أثبتو لأنفسهم موتهن حيث قالوا (ربنا أمتنا اثنتين) فأحد الموتى مشاهد في الدنيا فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي يحصل عقيبها موتاً ثانياً ، وذلك يدل على حصول حياة في القبر ، فان قيل قال كثير من المفسرين الموتة الأولى إشارة إلى الحالة الحاصلة عند كون الإنسان نطفة وعلاقة والمرتبة الثانية إشارة إلى ما حصل في الدنيا ، فلم لا يجوز أن يكون الأمر كذلك ، والذى يدل على أن الأمر ماذكرناه قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكتنم أمواتاً فأحيا كم ثم يحييكم) والمراد من قوله (وكتنم أمواتاً) الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلاقة وتحقيق الكلام أن الإمامة تستعمل بمعنىين (أحد هما) إيجاد الشيء ميتاً (والثانى) تصيير الشيء ميتاً بعد أن كان حياً كقولك وسع المخاطط ثوابي ، يتحمل أنه عاطه واسعاً وبتحمل أنه صيره واسعاً بعد أن كان ضيقاً ، فلم لا يجوز في هذه الآية أن يكون المراد بالإمامة خلقها ميتة ، ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد أن كانت حية .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة في القبر ، وبيانه أنه لو كان الأمر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاثة مرات أو لها في الدنيا ، وثانية في القبر ، وثالثة في القيمة ، والمذكور في الآية ليس إلا حياثتين فقط ، فتكون إحداهما الحياة في الدنيا والحياة الثانية في القيمة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد في الدنيا .

﴿ السؤال الرابع ﴾ أنه إن دلت هذه الآية على حصول الحياة في القبر فهو ما يدل على عدمه وذلك بالنقل والمقال ، أما المقال فن ووجه (الأول) قوله تعالى (أمن هو قانت آنام الليل ساجداً وفانياً يحذف الآخرة ويرجو رحمة ربها) فلم يذكر في هذه الآية إلا الحذف عن الآخرة ، ولو حصلت الحياة في القبر لكان الحذف عنها حاصلاً ، ولو كان الأمر كذلك لذكره ، ولما لم يذكره علينا أنه غير حاصل (الثانى) أنه تعالى حكى في سورة الصافات عن المؤمنين المحقين أنهم يقولون بعد دخولهم في الجنة (أفأنا نحن بعيتين إلا موتتنا الأولى) ولا شك أن كلام أهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة في القبر لكانوا قد ماتوا موتين ، وذلك على خلاف قوله (أفأنا نحن بعيتين

إلا موتنا الأولى) قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التي ذكرتموها ، لأن الآية التي تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التي تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار .

وأما المعقول فمن وجوه (الأول) وهو أن الذى افترسته السباع وأكلته لوعيد حيًّا لكان إما أن يعاد حيًّا بجموعة أو بأحد أجزاءه ، والأول باطل لأن الحس يدل على أنه لم يحصل له بمجموع ، والثانى باطل لأنه لما أكلته السباع ، فلو جعلت تلك الأجزاء أحياء لحصلت أحياء في معدة السباع وفي أمتعتها ، وذلك في غاية الاستبعاد (الثانى) أن الذى مات لو تركناه ظاهراً بحيث يراه كل واحد فإنهم يرونـه باقـياً عـلـى موـتـه ، فـلـو جـوزـنـا مـعـ هـذـه الـحـالـة أـنـ يـقـالـ إـنـ صـارـ حـيـاً لـكـانـ هـذـه تـشـكـيـكـاـ فـالـحـسـوـسـاتـ ، وـإـنـه دـخـولـ فـي السـفـسـطـةـ (ـوـالـجـوابـ) قـوـلـهـ لـمـ لـاـ يـجـوزـ أـنـ تـكـونـ الـمـوـتـةـ الـأـوـلـىـ هـيـ المـوـتـةـ الـنـىـ كـانـ حـاـصـلـةـ حـالـ مـاـ كـانـ نـاطـقـةـ وـعـلـقـةـ ؟ـ فـنـقـولـ هـذـا لـاـ يـجـوزـ ، وـبـيـانـهـ أـنـ الـمـذـكـورـ فـي الـآـيـةـ أـنـ اللـهـ أـمـاتـهـ وـلـفـظـ الـإـمـاتـةـ مـشـرـوطـ بـسـبـقـ حـصـولـ الـحـيـاـةـ إـذـلـوـ كـانـ الـمـوـتـ حـاـصـلـ قـبـلـ هـذـه الـحـالـةـ اـمـتـنـعـ كـوـنـ هـذـا إـمـاـتـةـ ، وـإـلـا لـزـمـ تـحـصـيلـ الـحـاـصـلـ وـهـوـ مـحـالـ وـهـذـا بـخـلـافـ قـوـلـهـ (ـكـيـفـ تـكـفـرـونـ بـالـلـهـ وـكـشـمـ أـمـاتـاـ) لـأـنـ الـمـذـكـورـ فـي هـذـه الـآـيـةـ أـنـهـمـ كـانـوـاـ أـمـاتـاـ وـلـيـسـ فـيـهاـ أـنـ اللـهـ أـمـاتـهـ بـخـلـافـ الـآـيـةـ الـتـىـ خـنـ فـيـ تـفـسـيرـهـاـ ، لـأـنـهـاـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـ اللـهـ تـعـالـىـ أـمـاتـهـ مـرـتـيـنـ ، وـقـدـ بـيـانـاـ أـنـ لـفـظـ الـإـمـاتـةـ لـاـ يـصـدـقـ إـلـاـ عـنـ سـبـقـ الـحـيـاـةـ فـظـهـرـ الـفـرـقـ .

أما قوله إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة ، فلنا لما ذكروا ذلك لم يكن بهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأن ظهر الله تكذيبهم ، إلا ترى أنهم لما كذبوا في قوله (واقه ربنا ما مسكننا مشركين) كذبهم الله في ذلك فقال (انظر كيف كذبوا) وأما قوله ظاهر الآية يمنع من إثبات حياة في القبر إذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لامرين ، فنقول (الجواب) عنه من وجوه : (الأول) هو أن مقصودهم تعديل أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ، والحياة في القبر ، والموته الثانية ، والحياة في القيمة ، وهذه الأربع أوقات البلاء والمحنة ، فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها (الثانى) لعلمهم ذكروا الحياتين ، وهي الحياة في الدنيا ، والحياة في القيمة ، أما الحياة في القبر فأهلوا ذكرها لنفسها وجودها وقصر مدتها (الثالث) لعلمهم لما صاروا أحياء في القبور لم يتوتوا بل بقوا أحياء ، إما في السعادة ، وإما في الشقاوة ، واتصل بها حياة القيمة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء في قوله (فُصِّقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) (الرابع) لو ثبّتت الحياة في القبر لزم أن لا يحصل الموت إلا مرة واحدة فكان إثبات الموت مرتين كذباً وهو على خلاف لفظ القرآن ، أما لو ثبّتنا الحياة في القبر لزمنا إثبات الحياة ثلاث مرات والذكور في القرآن مرتين ، أما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها ، ثبتت أنني حياة القبر يقتضي ترك مادل اللفظ عليه ، فأما إثبات حياة القبر فإنه يقتضي إثبات شيء زائد

**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**

على مادل عليه اللفظ مع أن اللفظ لا إشعار فيه بثبوته ولا بعده، فكان هذا أولى ، وأماماً ذكره في المعارضة الأولى فنقول قوله يحذر الآخرة تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر أو في القيمة ، وأما المعارضة الثانية بغيرها أنها نزج قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر .

وأما الوجهان العقليان فدفوعان ، لأننا إذا قلنا إن الإنسان ليس عبارة عن هذا المهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن كانت الإشكالات التي ذكرناها غير واردة في هذا الباب والله أعلم .

**﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ﴾** اعلم أنا لما أتيتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت ، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة ( ألم تر إلى الذين خرجموا من ديارهم وهم ألوه حذر الموت فقال لهم الله موتاً ثم أحياهم ) فهؤلاء أربعة مرانب في الحياة ، حياتهان في الدنيا ، وحياة في القبر ، وحياة رابعة في القيمة .

**﴿الْمَسْأَلَةُ الْأَرْبَعَةُ﴾** قوله (الثنتين) نعم لمصدر مخدوف والتقدير (ماتتين اثنين) ، ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا ( فاعترفنا بذنبينا ) فأن قبل الفاء في قوله ( فاعترفنا ) تقتضي أن تكون الإمامة مرتين والإحياء مرتين سبيلاً لهذا الاعتراف فيئدوا هذه السمية ، قلنا لأنهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الإحياء بعد الإمامة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث ، فلا حرج وفع هذا الإقرار كالمطلب عن ذلك الإحياء وتلك الإمامة ، ثم قال ( فهو إلى الخروج من سبيل ) أي هل إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل ، أم الأيس وقع فلا خروج ، ولا سبيل إليه ؟ وهذا كلام من غلب عليه الأيس والفتور ، واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال لا أو نعم ، وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاماً يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج فقال ( ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تومنوا ) أي ذلكم الذي أنت فيه ، وهو أن لا سبيل لكم إلى خروج قط ، إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى ، وإيمانكم بالإشراك به ( فالحكم لله ) حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي ، وقوله ( العلي الكبير ) دلالة على الكبriاء والعظمة ، وعلى أن عقابه لا يكون إلا كذلك ، والمشهورة استدلوا بقوله تعالى ( العلي ) على العلو الأعلى في الجهة ، وبقوله ( الكبير ) على كبر الجنة والذات ، وكل ذلك باطل ، لأننا دلنا على أن الجسمية والمكان حالان في حق الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد من ( العلي الكبير ) العلو والكبriاء بحسب القدرة والإلهية .

قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لِهِ الَّذِينَ وَلَوْكَرَهُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٩﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ  
 دُوَوْالْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ النَّلَاقِ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ  
 هُمْ بَرِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٣١﴾  
 الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾

الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴿٣٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوة والخشب المchorة شركاً له تعالى في العبودية ، فقال : ( هو الذي برِيك آياته ) واعلم أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ، ومصالح الأبدان ، فهو سبحانه وتعالى راعي مصالح أديان العباد بإظهار البيانات والأيات ، وراعي مصالح أبدانهم بإزالة الرزق من السوء ، فوقع الآيات من الأديان كمرفق الأرزاق من الأبدان ، فالآيات لحياة الأديان ، والأرزاق لحياة الأبدان ، وعند حصر لها يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات .

ثم قال ( وما يتذكرة إلا من ينيب ) والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالأسار المرکوز في العقل ، إلا أن القول بالشرك والاشغال بعبادة غير الله يصير كال Manson من تجلى تلك الأنوار ، فإذا أعرض العبد عنها وأناب إلى الله تعالى زال النطاء والوطاء فظهر الفوز التام ، ولما قرر هذا المعنى صرخ بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال ( فادعوا الله مخلصين له الدين ) من الشرك ، ومن الإنفات إلى غير الله ( ولو كرها الكافرون ) قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقيون بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿٢﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ دُوَوْالْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ  
 يَوْمَ النَّلَاقِ ، يَوْمَ هُمْ بَرِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الْيَوْمَ  
 تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبرياته وإكراماته كونه مظهراً للآيات منزلة للأرزاق ، ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله ( رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ دُوَوْالْعَرْشِ

يلق الروح) قال صاحب الكشاف ثلاثة أخبار لفوله هو مرتبة على قوله (الذى يربكم) أو أخبار مبتدأ مخدوف ، وهى مختلفة تعريفاً وتسكيراً ، قرىه (رفيع الدرجات) بالنصب على المدح ، وأقول لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاثة :

( فالصفة الأولى ) قوله (رفيع الدرجات) واعلم أن الرفيع يتحمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع ، أما إذا حملناه على الأول ففيه وجوه (الوجه الأول) أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة (والثاني) رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة ، فهو سبحانه عين لكل أحد من الملائكة درجة معينة ، كما قال (وما من إله مقام معلوم) وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وعين لكل جسم درجة معينة ، بفضل بعضها سفلية عنصرية ، وببعضها فلكية كوكبية ، وببعضها من جرائم العرش والكرم ، بفضل بعضها درجة أعلى من درجة الثاني ، وأيضاً جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخلق والرذق والأجل ، فقال ( وهو الذي جعلكم خلائق الأرض ورفع بعضاً منكم فوق بعض درجات) وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة ومبررات الشقاوة ، وفي الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاوة ، فإذا حملنا الرفيع على الرفع كان معناه ما ذكرناه ، وأما إذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال ، أما في الأصل الوجود فهو أرفع الموجودات ، لأنه واجب الوجود لذاته وما سواه يمكن وحتاج إليه ، وأما في درام الوجود فهو أرفع الموجودات ، لأنه واجب الوجود لذاته وهو الأزلي والابدي والسريري ، الذي هو أول لكل مساواه ، وليس له أول وآخر لكل مساواه ، وليس له آخر ، أما في العلم : فلأنه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات ، كما قال (وعنه مفاسع الغيب لا يعلوها إلا هو) وأما في القدرة : فهو أعلى القادرین وأرفعهم ، لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل مساواه ، وكل مساواه فإنه يحتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه ، وأما في الوحدانية : فهو الواحد الذي يتمتع أن يحصل له خند وند وشريك ونظير ، وأقول : الحق سبحانه له صفتان (أحدهما) استثناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل مساواه (والثاني) افتقار كل ما سواه إليه في وجوده وفي صفات وجوده ، فالرفع إن فسرناه بالمرتفع ، كان معناه أنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام ، وإن فسرناه بالرافع ، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشئ سواه ، فإنما حصلت يايجاده وتكوينه وفضله ورحمته .

( الصفة الثانية ) قوله (ذو العرش) ومعناه أنه مالك العرش ومدرجه وخلقه ، راحتبعض الأغمار من المشابهة بقوله (رفيع الدرجات ذو العرش) وحملوه على أن المراد بالدرجات ، السموات ، وبقوله (ذو العرش) أنه موجود في العرش فوق سبع سموات ، وقد أعظموا الفريدة

على الله تعالى ، فإننا بینا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسمًا وفي جهة محال ، وأيضاً ظاهر الفظ لا يدل على ما قالوه ، لأن قوله (ذو العرش) لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ويكتفى فيه بإضافته إليه بكونه مالكًا ومحرّجاً له من المد إلى الوجود ، فأى ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباعث والمذهب الفاسد ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأجسام ، والمقصود بيان كمال إيمانه ونفاذ قدراته ، فكل ما كان محل التصرف والتدبیر أعظم ، كانت دلاته على كمال القدرة أقوى .

(الصفة الثالثة) قوله (يلاق الروح من أمره على من يشاء من عباده) وفيه مباحث :

(البحث الأول) اختلقو في المراد بهذا الروح ، وال الصحيح أن المراد هو الوحي ، وقد أطربنا في بيان أنه لم يسم الوحي بالروح في أول سورة النحل في تفسير قوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وقال أيضاً (أو من كان ميتاً فأحييناه) وحاصل الكلام فيه : أن حياة الأرواح بالمعرفة الإلهية والجلال يا القدسية ، فإذا كان الوحي سبباً لحصول هذه الأرواح سمي بالروح ، فإن الروح سبب لحصول الحياة ، والوحي سبب لحصول هذه الحياة الروحانية .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكافئات ، وذلك لأن كمال كبريات الله تعالى لا نصل إليه العقول والأفهام ، فالطريق الكامل في تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يذكر ذلك الكلام على وجہ الكلي العقل ، ثم يذكر عقيبه شيء من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلي ليصير الحصر بهذا الطريق معاضداً للعقل ، فهو مما يُضاف كذلك ، فقوله (رفع الدرجات) إما أن يكون بمعنى كونه رافعاً الدرجات ، وهو إشارة إلى تأثير قدرة الله تعالى في إيجاد الممكبات على اختلاف درجاتها وتبسيطها وصفتها ، أو إلى كونه تعالى منتفعاً في صفات الجلال ونوموت العزة عن كل الموجودات ، فهذا الكلام عقلي برهاني ، ثم إنه سبحانه بين هذا الكلام الكلي بزید تقرير ، وذلك لأن مأسوي الله تعالى إما جسماًيات وإما روحانيات ، وبين في هذه الآية أن كلام القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى ، أما الجسمانيات فأعظمها العرش ، فقوله (ذو العرش) يدل على استيلانه على كلية عالم الأجسام ، ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكداً لذلك المعقول ، أعني قوله (رفع الدرجات) وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه ، وإليه الإشارة بقوله (يلاق الروح من أمره) .

واعلم أن أشرف الأحوال الظاهرة في روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحي ، والوحي إنما يتم بأركان أربعة (فأولها) المرسل وهو الله سبحانه وتعالى ، فلهذا أضاف إلقاء الوحي إلى نفسه فقال (يلاق الروح) (والركن الثاني) الإرسال والوحي وهو الذي شعاه بالروح (والركن الثالث) أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الملائكة ، وهو المشار إليه في هذه الآية بقوله (من أمره) فالركن الروحاني يسمى أمراً ، قال تعالى

( وأوحى في كل سماه أمرها ) وقال ( إلا له الخلق والأمر ) ( والركن الرابع ) الأنبياء الذين يلقى الله الوحي إليهم وهو المشار إليه بقوله ( على من يشاء من عباده ) ( والركن الخامس ) تعيين الغرض والمقصود الأصلي من إلقاء هذا الوحي إليهم ، وذلك هو أن الأنبياء عليهم السلام يصررون الخلق من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، ويحملونهم على الإعراض عن هذه الجسمانيات والإقبال على الروحانيات ، وإليه الإشارة بقوله ( لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون ) فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الإشارات العالية من علوم المكتشفات الإلهية .

وهي هنا أن نبين أنه ما السبب في تسمية يوم القيمة يوم التلاق ؟ وكم الصفات التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ل يوم التلاق ؟

أما السبب في تسمية يوم القيمة يوم التلاق ففيه وجوه :

( الأول ) أن الأرواح كانت متباعدة عن الأجساد فإذا جاء يوم القيمة صارت الأرواح ملائكة للأجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق ( الثاني ) أن الخلق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض ( الثالث ) أن أهل السماء ينزلون على أهل الأرض فيلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض قال تعالى ( ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تزيلا ) ( الرابع ) أن كل أحد يصل إلى جزاء عمله في ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قوله فلان لقي عمله ( الخامس ) يمكن أن يكون ذلك مأخوذاً من قوله ( فن كان يرجو نقاه ربه ) ومن قوله ( تخينهم يوم يلقونه سلام ) ( السادس ) يوم يلتقي فيه العابدون والمعبدون ( السابع ) يوم يلتقي فيه آدم عليه السلام وآخر ولده ( الثامن ) قال ميمون بن مهران يوم يلتقي فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلاً وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرقه في يوم القيمة يحضران ويلاق بعضهم بعضاً ،قرأ ابن كثير التلاق والتلادى يائبات الياء في الوصل والوقف ، وهادى وواق بالياء في الوقف وبالشون في الوصل .

وأما بيان أن الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيمة في هذه الآية ، فنقول :

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله ( يوم هم بارزون ) وفي تفسير هذا العروض وجوه ( الأول ) أنهم بزواعن بوطن القبور ( الثاني ) بارزون أي ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصصف ، وليس عليهم أيضاً ثواب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث « يخشرون عراة حفاة غرلا » ( الثالث ) أن يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشف أسرارهم كما قال تعالى ( يوم تبلى السرائر ) ( الرابع ) أن هذه النقوص الناطقة البشرية كأنها في الدنيا انفتحت في ظلادات أعمال الأبدان فإذا جاء يوم القيمة أعرضت عن الاشتغال بتديير الجسمانيات وتوجهت بالكلية إلى عالم القيمة وبجمع الروحانيات ، فكأنها بترت بعد أن كانت كامنة في الجسمانيات مستترة بها .

**(الصفة الثالثة)** قوله (لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُ شَيْءٌ) والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شيء ، والمقصود منه الوعيد فإنه تعالى بين أنهم إذا بزروا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوه فإن الله تعالى يعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازى كلام بمحبسه إن خيراً فخير وإن شرًا فشر ، فهم وإن لم يعلموا تفصيل ما فعلوه ، فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله (يَوْمَئِذٍ تُعَرَّضُونَ لَا يَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةً) وقال (يَوْمَ تَبْلِي السَّرَّاَتِ) وقال (إِذَا بَعْثَرْتُمْ مَا فِي الْقُبُورِ وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ) وقال (يَوْمَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارُهَا) فإن قيل الله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيام ، فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم ؟ قلنا إنهم كانوا يتوهمن في الدنيا إذا استترو بالجحظان والحجب أن الله لا يراهم وتخفي عليه أعمالهم ، فهم في ذلك اليوم صررون من البروز والإنسكاف إلى حال لا يتوهمن فيها مثل ما يتوهمنون في الدنيا ، قال تعالى (ولكن ظنتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) وقال (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ) وهو معنى قوله (وَبَرَزُوا لِهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

**(الصفة الرابعة)** قوله تعالى **مَنِ الْمَلْكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** والتقدير يوم ينادي فيه **مَنِ الْمَلْكُ الْيَوْمَ ؟** وهذا النداء في أي الأوقات يحصل فيه قوله **قُولَان :**

**(الأول)** قال المفسرون إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض فيقول رب تعالى (من الملك اليوم) ؟ يعني يوم القيمة فلا يحييه أحد فهو تعالى يحيي نفسه فيقول (الله الواحد القهار) قال أهل الأصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت ، والناس في ذلك الوقت أحياه ، فبطل قولهم إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض (والثاني) أن الكلام لا بد فيه من فائدة لأن الكلام إنما أن يذكر حال حضور الغير ، أو حال مالا يحيي من الغير ، والأول باطل ه هنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثاني أيضاً باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إنما لأنه يحفظ به شيئاً كالذى يكرر على الدرس وذلك على الله حال ، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضاً على الله حال ، أو لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضاً على الله حال ، ثبت أن قول من يقول إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

**(والقول الثاني)** أن في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا الله نادى مناد (من الملك اليوم) فيقول كل الحاضرين في محفل القيمة (الله الواحد القهار) فما زمانون يقولونه تلذاً بهذا الكلام ، حيث نالوا بهذا الذكر المزاولة الرفيعة ، والكافر يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتتهم هذا الذكر في الدنيا ، وقال القائلون بهذا القول إن صح القول الأول عن ابن عباس وغيره لم يتمتنع أن يكون المراد أن هذا النداء يذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون بذلك النداء ، وأقول أيضاً على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل

ومحيب هو الله تعالى ، ولا يبعد أيضاً أن يكون السائل جماعاً من الملائكة والمحيب جماعاً آخرين ،  
الشكل عما على التعين دليل ، فان قيل وما الفائد في تحصيص هذا اليوم بهذا النداء ؟

فقول الناس كانوا مغرورين في الدنيا بالأسباب الظاهرة ، وكان الشيخ الإمام الوالد عمر رضي  
الله عنه يقول : لو لا الأسباب لما ارتات مرتباً ، وفي يوم القيمة زالت الأسباب ، وانعزلت  
الأرباب ، ولم يبق البتة غير حكم مسبب الأسباب ، فلهذا اختص النداء يوم القيمة ، واعلم وإنه  
وإن كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم إلا أن قوله ( الله الواحد القهار )  
يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبداً ، وذلك لأن قولنا : الله اسم لواجب الوجود لذاته ،  
وواجب الوجود لذاته واحد وكل ماسواه عما لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا باتحاد الواجب  
لذاته ، ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب عدم ، وذلك الترجيح هو تهور للجانب  
المرجوح ثبت أن الإله القهار واحد أبداً ، ونداء من الملك اليوم إنما ظهر من كونه واحداً قهاراً ،  
فيما كان كونه قهاراً باقياً من الأزل إلى الأبد لا جرم كان نداء ( من الملك اليوم ) باقياً في جانب  
المعنى من الأزل إلى الأبد .

( الصفة الخامسة ) من صفات ذلك اليوم قوله ( اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ) .  
واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهار في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل  
في ذلك اليوم فقال ( اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ) وفيه مسألتان :

( المسألة الأولى ) هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة ( أو لها ) إثبات الكسب للإنسان  
( والثانى ) أن كسبه يوجب الجزاء ( والثالث ) أن ذلك الجزاء إنما يستوفى في ذلك اليوم فهذه  
الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة في هذا الكتاب ، وهي أصول عظيمة  
الموقع في الدين ، وقد سبق تقرير هذه الأصول مراراً ، ولا بأس بذلك بعض التكثف في تقرير هذه  
الأصول ( أما الأول ) فهور إثبات الكسب للإنسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل  
والترك فإذا دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه ، فإذا اتصف إليه الداعي إلى  
الفعل أو الداعي إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه . ( وأما الثاني ) وهو بيان ترتيب  
الجزاء عليه ، فاعلم أن الأفعال على قسمين منها ما يكون الداعي إليه طلب الحirيات الجسمانية الحاصلة  
في عالم الدنيا ، ومنها ما يكون الداعي إليه طلب الحirيات الروحانية التي لا يظهر كلامها إلا في عالم  
الآخرة وقد ثبت بالتجزية أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات الراستة ، فمن غالب عليه القسم  
الأول استحكم رحنته ورغبته في الدنيا وفي الجسمانيات ، فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين  
مطلوبه على أعظم الوجوه وبعظم عليه البلاء ، ومن غالب عليه القسم الثان فعند الموت يفارق المفوض  
ويحصل بالحبوب فتعظم الآلام والنعيم ، فهذا هو معنى الـ كسب ، ومعنى كون ذلك الـ كسب موجباً  
لالجزاء ، فظهور بهذا أن كمال الجزاء لا يحصل إلا في يوم القيمة ، فهذا قانون كل عقل ، والشريعة

**وَأَنْدِرُهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْخَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ خَاتَمَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَحْفَنِ الْصُّدُورُ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ**

الحقيقة أنت بما يقوى هذا القانون الكلى في تفاصيل الأعمال والأقوال والله أعلم .  
**﴿ المسألة الثانية ﴾** هذه الآية أصل عظيم في أصول الفقه ، وذلك لأننا نقول لو كان شيء من أنواع الضرر مشروعًا لكان إما أن يكون مشروعًا لكونه جزاء على شيء من الجنسيات أو لا لكونه جزاء والقسمان باطلان ، فبطل القول بكونه مشروعًا ، أما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا ليكون جزاء على شيء من الأفعال فلأن هذا النص يقتضي تأخير الأجزية إلى يوم القيمة ، فإذا باته في الدنيا يكون على خلاف هذا النص ، وأما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا للجزاء لقوله تعالى ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) ولقوله تعالى ( وما جعل عليكم في الدين من حرج ) ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية ، وفيها ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات ، فوجب أن يبق على أصل الحرمة فيها عداه ، ثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحرير ، فإن وجدنا نصًا خاصًا يدل على الشرعية قضينا به تقديمًا للخاص على العام ، وإلا فهو باق على أصل التحرير ، وهذا أصل كل مفتتح به في الشريعة والله أعلم .

**﴿ الصفة السادسة ﴾** من صفات ذلك اليوم قوله ( لا ظلم اليوم ) والمقصود أنه لما قال (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ) أردده بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم ، قال المحققون وقوع الظلم في الجزا يقع على أربعة أقسام ( أحدها ) أن يستحق الرجل ثواباً فيمنع منه ( وثانيها ) أن يعملي بعض بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالغ تمام ( وثالثها ) أن يعذب من لا يستحق العذاب ( ورابعها ) أن يكون الرجل مستحقاً للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى ( لا ظلم اليوم ) يفيد تقى هذه الأقسام الأربع ، قال القاضى هذه الآية قوية في إبطال قول المجرة لأنّ على قوله لا ظلم لا ظلم غالباً وشاهداً إلا من الله ، ولأنّه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معروف .

ثم قال تعالى ( إن الله سريع الحساب ) وذكر هذا الكلام في هذا الموضوع لائق جداً ، لأنّه تعالى لما بين أنه لا ظلم وبين أنه سريع الحساب . وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال والله أعلم .

قوله تعالى : **﴿ وَأَنْدِرُهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْخَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴾** يعلم خاتمة الأعيين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه الفخر الرازي - ج ٢٧ م ٤

يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ  
 ۚ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ  
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثْارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانُوا  
 مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخْذَهُمُ  
 اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝

لا يقضون بشيء، إن الله هو السميع البصير، ألم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وأثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسليم بالبيانات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد المقامب .  
 أعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيمة بأنواع أخرى من الصفات الحالية المهمة ، وفي الآية مسائل :

في المسألة الأولى ذكروا في تفسير يوم الأزمة وجروها (الأول) أن يوم الأزمة هو يوم القيمة ، والأزمة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيمة (أزفت الأزمة ليس لها من دون الله كاشفة) وقال شاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لمسات زل بر حالتنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيمة قريب ونظيره قوله تعالى (اقتربت الساعة) قال الزجاج إنما قيل لها آزمة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها ، وما هو فهو قريب .

وأعلم أن الأزمة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيمة الأزمة أو يوم المجازاة الأزمة قال القفال : وأسماء القيمة تجري على التأنيث كالطامة والخاتمة ونحوها لأنها يرجع معناها إلى الداعية (والقول الثاني) أن المراد يوم الأزمة وقت الأزمة وهي مسارعهم إلى دخول النار ، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف (والقول الثالث) قال أبو مسلم يوم الأزمة يوم النية وحضور الأجل ، والمذى يدل عليه أنه تعالى وصف يوم القيمة بأنه يوم التلاق ، و (يوم مبارزون) ثم قال بهذه (وأنذرهم يوم الأزمة) فوجب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم ، وأيضاً هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات يوم الموت قال تعالى (فلو لا إذا

بلغت الحلقوم وأنت حينئذ تنظرن ) وقال ( كلا إذا بلغت التراق ) وأيضاً فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيمة بالقرب ، وأيضاً الصفات المذكورة بعد قوله الآية لامقة يوم حضور الموت لأن الرجل عند معاينة ملائكة النذاب يعظم خوفه ، فكان قلوبهم تبلغ خناجر م من شدة الخوف ، ويبيّنوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخرف ولا يكون لهم حيم ولا شفيع يدفع ما بهم من أنواع الخوف والقلق .

**﴿المسألة الثانية﴾** اختلفوا في أن المراد من قوله ( إِذَ الْقُلُوبُ لَدِيَ الْخَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ) كنایة عن شدة الخوف أو هو محمل على ظاهره ، قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى ( وبلغت القلوب الخناجر ، وتظنون بالله الظنو نا ) وقال ( فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنت حينئذ تنظرن ) وقيل بل هو محمل على ظاهره ، قال الحسن : القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف ( وبلغت القلوب الخناجر ) فلا تخراج فيما متوا ولا ترجع إلى مواضعها فتنفسوا ويتوحووا ولسكنها ، مقبوضة كالسجال كما قال ( فلما رأوه زلفة سبست وجوه الذين كفروا ) وقوله ( كاظمين ) أى مكروبين والكاظم الساكت حال امتلاءه غمأً وغيظاً فان قيل بم اتصب ( كاظمين ) فلنا هو حال أصحاب القلوب على المعنى لأن المراد إذ قلوبهم لدى الخناجر حال ( كاظمين ) كونهم ويجوز أيضاً أن يكون حال عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الخناجر ، وإنما جمع الكاظمة جمع السلامة لأن وصفها بالكمم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال (رأيتم لى ساجدين ) وقال ( فظلت أعنفهم لها خاضعين ) ويهضنه فرامة من قرأ كاظمون وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرتين : ( أحدهما ) الخوف الشديد وهو المراد من قوله ( إِذَ الْقُلُوبُ لَدِيَ الْخَنَاجِرِ ) ، ( والثانية ) العجز عن الكلام وهو المراد من قوله ( كاظمين ) فان الملموس إذا قدر على الكلام حصلت له خفة وسكون ، أما إذ لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم فلقه وقرى خوفه .

**﴿المسألة الثالثة﴾** احتاج أكثر المعتزلة في نفي الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى ( ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ) قالوا نفي حصول شفيع لهم يطاع فوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع أجاب أصحابنا عنه من وجوه : ( الأول ) أنه تعالى نفي أن يحصل لهم ( شفيع يطاع ) وهذا لا يدل على نفي الشفيع ، إلا ترى أنك إذا ثبتت ما عندى كتاب يباع فهو هذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب وقالت العرب :

وَلَا تَرَى الصَّبَبَ هَمَ يَنْجُحُ

ولفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيمة شفيع يطيعه الله ، لأنه ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله تعالى حتى يقال إن الله يطيعه ( الوجه الثاني ) في الجواب أن المراد من الظالمين ، هؤلئك الكفار والدليل عليه أن هذه الآية وردت في زجر الكفار

(الذين يجادلون في آيات الله) فوجب أن يكون مختصاً بهم ، وعندنا أنه لا شفاعة في حق الكفار (والثالث) أن لفظ الظالمين ، إما أن يفيد الاستغراق ، وإما أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين بمحرر عهم وجلهم ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيع لأن بعض هذا المجموع هم الكفار ، وليس لهم شفيع خيئته لا يكون لهذا المجموع شفيع ، وإن لم ينفع الاستغرق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصفاً بهذه الصفة ، وعندنا أن بعض الموصفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهو الكفار ، أجاب المستدلون عن السؤال الأول ، فقالوا يجب حل كلام الله تعالى على محمل مفید وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطیعه الله لأن المطیع أدون حالاً من المطاع ، وليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال إن الله يطیعه وإذا كان هذا المعنى معلوماً بالضرورة كان حل الآية عليه إخراجاً لها عن القاعدة فوجب حل الطاعة على الإجابة والذى يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر :

رب من أضجت غيظاً صدره قد تمنى لي موتاً لم يطع

(أما السؤال الثاني) فقد أجابوا عنه بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيده العموم ، أفضى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(أما السؤال الثالث) بقوله أن قوله (ما للظالمين من حيم) يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حيم ولا شفيع يطاع ، فهذا تمام كلام القوم في تبرير ذلك الاستدلال . أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا إن القوم كانوا يقولون في الأصنام إنها شفاعتنا عند الله وكانتوا يقولون إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله ، وهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا ياذنه) فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة ، وهذا نوع طاعة ، فالله تعالى نفي تلك الطاعة بقوله (ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع) وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعمود السابق ، فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع ، وكان هناك معمود سابق انصرف إليه ، وقد حصل في هذه الآية معمود سابق وهو الكفار الذين يجادلون في آيات الله ، فوجب أن ينصرف إليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله (ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع) يحتمل عموم السلب ، ويحتمل سلب العموم ، أما الأول فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكم عليه بأنه ليس له حيم ولا شفيع ، أما الثاني فعلى تقدير أن يكرون المعنى أن مجموع الظالمين ليس لهم حيم ولا شفيع ، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذى يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى (الذين كفروا سواء عليهم النذر لهم أم لم تنتدرون لا يؤمرون) فقوله : إن الذين كفروا لا يؤمرون ، إن حملناه على أن كل

واحد منهم حکوم عليه بأنه لا يؤمن لزوم وقوع الخلف في كلام الله ، لأن كثيراً من كفر فقد آن بعد ذلك ، أما لو حلناه على أن بجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواه آمن بعضهم أ ولم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف ، فلا جرم حلنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله (ما للظالمين من حيم ولا شفيع) يجب حلها على سلب العموم لا على عموم السلب ، وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غایة الكلام في هذا الباب .

﴿المسألة الرابعة﴾ في بيان نظم الآية ، فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف ( فأولها ) أنه سمي ذلك اليوم يوم الازفة ، أي يوم القرب من عذابه من ابتدأ بالذنب العظيم ، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى قبل إن تلك الغموم والمصوم أعظم في الإياعش من عين تلك العقوبة ( والثانى ) قوله ( إذ القلوب لدى الحنجر ) والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر ورتفع إلى الحنجرة والتصلق بها وصار مانعاً من دخول النفس ( والثالث ) قوله ( كاظمين ) والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطلقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد الفلق والاضطراب ( والرابع ) قوله ( ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ) فيبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته ( والخامس ) قوله ( يعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور ) والمعنى أنه سبحانه طالم لا يعرّب عن عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديداً جداً ، قال صاحب الكشاف : الخاتمة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخاتمة ، كالعافية المعافاة ، والمراد استراق النظر إلى مالا يحل كا يفعل أهل الريب ، والمراد بقوله ( وما تخفي الصدور ) مضمرات القلوب ، والحاصل أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح ، فأخفاها خاتمة الأعين والله أعلم بها ، فكيف الحال في سائر الأعمال . وأما أفعال القلوب ، فهي معلومة لله تعالى لقوله ( وما تخفي الصدور ) فدل هذا على كونه تعالى عالماً بجميع أفعالهم ( السادس ) قوله تعالى ( والله يقضى بالحق ) وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال ، وثبت منه أنه لا يقضى إلا بالحق في كل مادق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى ( السابع ) أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، وقد بين الله تعالى أنه لا قائمة فيها البنة ، فقال ( والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ) ( الثامن ) قوله ( إن الله هو السميع البصير ) أي يسمع من الكفار نداءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم نداءهم على الله ويصرخ خصوهم وبجردهم لهم ، ولا يبصر خصوهم وتواضعهم لله ، وهذه الأحوال الثانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغاً في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه ، ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردقة بياني تخويفهم بأحوال الدنيا فقال ( ألم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِعَيْتِنَا وَسُلْطَنِنَّ مِنْ بَيْنِ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَقَرْوَنَ فَقَالُوا  
سَاحِرٌ كَذَابٌ (٢٧) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا  
مَعَهُ وَأَسْتَحْيِوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرْوِنِي  
أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ  
الْفَسَادَ (٢٩) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ

٢٧

يسروا في الأرض فینظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ) والمعنى أن العاقل من اعتذر بغیره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من السκفار ، وأقوى آثاراً في الأرض منهم ، والمراد حضورهم وقصورهم وعساكرهم ، فلما كذبوا رسليهم أهلكمهم الله بضروب الملائكة معجلاً حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار ، خذلهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله ( وما كان لهم من الله من واق ) أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذته تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم وبخلصهم ، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل ، خذل قوم الرسول من مثله ، وختم الكلام ( بأنه قوى شديد العقاب ) مبالغة في التحذير والتخييف ، والله أعلم .

وقرأ ابن عباس وحده ( كانوا م أشد منكم ) بالكاف ، والباقيون بالفاء ( أما وجه ) قراءة ابن عاصي فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله ( إياك نعبد وإياك نستعين ) بعد قوله ( الحمد لله ) والوجه في حسن هذا الخطاب أنه في شأن أهل مكة ، يجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم ، وهذه الآية في المعنى كقوله ( مکنام في الأرض مالم نمکن لكم ) وأما قراءة الباقيين على لفظ النية فالأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآياتنا وَسُلْطَنِنَّ مِنْ بَيْنِ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيِوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرْوِنِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ  
الْفَسَادَ ، وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

واعلم أنه تعالى لما سلي رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر موسى عليه السلام ، وأنه مع قوة معجزاته بعشه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه ، وقالوا هو ساحر كذاب .

واعلم أن موسى عليه السلام ، لما جاءهم بذلك المعجزات الباهرة وبالنبوة وهي المراد بقوله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مَا عَنَّا ) حكى الله تعالى عنهم ما صدر عنهم من الجمادات (الأول) أئم وصفوه بكونه ساحراً كذاياً ، وهذا في غاية البعد ، لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظہور إلى حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر البتة (الثاني) أئم فالوا (افتلووا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نسائهم) وال الصحيح أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى عليه السلام ، لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت ، وأما في هذا الوقت فرسى عليه السلام قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة ، فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ثلاثة ينشروا على دين موسى فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات ، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء .

قوله تعالى : **وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** ومعنى أنه جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل ، لأن **(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يمسك لها)** (النوع الثالث) من قباغ أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ما حكاه الله تعالى ، (وقال فرعون ذروني أقتل موسى) وهذا الكلام كالدلالة على أئم كانوا يمنعونه من قتله ، وفيه احتفالان .

**(والاحتمال الأول)** أئم منعوه من قتله لوجهه (الأول) أمله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً ، فيأتي بوجهه الحيل في منع فرعون من قتله (الثاني) قال الحسن : إن أصحابه قالوا له لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرك ، وإن قتله أدخلت الشبهة على الناس وقالوا إنه كان محفاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه (الثالث) لعلهم كانوا يحتالون في منه من قتله ، لأجل أن يبيق فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأفراط ، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملوكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك .

**(والاحتمال الثاني)** أن أحداً مامنع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله إلا أنه كان خائفاً من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح إلا أنه لو قاتله قال (ذروني أقتل موسى) وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه وغرضه منه إخفاء خوفه .

أما قوله (وليدع ربها) فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء يعني أن قتله فليقل لربه حتى يخلصه مني .

واما قوله (إن أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ففيه مسائل :

**المسألة الأولى** فتح ابن كثير الباء من قوله (ذروني) وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو

قوله تعالى : إني عذت بربِّي وربِّكم . سورة غافر .

الياء من (إني أخاف) وأيضاً قرأ نافع وابن عمرو (وأن يظهر) بالواو وبمحذف أو ، يعني أنه يجمع بين تبديل الدين وبين ظهار المفاسد ، والذين قرأوا بصيغة أو فعنده أنه لابد من وقوع أحد الأمرين وقرىء يظهر بضم الياء وكسر الهاء ولفظ الفساد بالنصب على التعذية ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بلفظ أو يظهر بفتح الياء والهاء ولفظ الفساد بالرفع ، أما وجه القراءة الأولى فهو أنه أستد الفعل إلى موسى في قوله (يبدل) فكذلك في يظهر ليكون الكلام على نسق واحد ، وأما وجه القراءة الثانية فهو أنه إذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كاوا عليه ، فلما كان موسى ساعياً في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتنة ، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بتأثر فرعون بذكر الدين فقال : (إني أخاف أن يبدل دينكم) ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : (أو أن يظهر في الأرض الفساد) .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام فحكي عنه أنه قال (إني عذت بربِّي وربِّكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي عذت بإذن الله تعالى في الدجال والباقيون بالإظهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعنى أنه لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذه بالله ، واعتمد على فضل الله لاجرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية ، وعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

(الفائدة الأولى) أن لفظة (إني) تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكدة المعترف

في دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكيل على عصمة الله تعالى .

(الفائدة الثانية) أنه قال (إني عذت بربِّي وربِّكم) فكما أن عند القراءة يقول المسلم : أعود بالله من الشيطان الرجيم ، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شاطئين الجن ، فكذلك عند توجيه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعود بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

(الفائدة الثالثة) قوله (ربِّي وربِّكم) والمعنى كأن العبد يقول إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني ، ومن الآفات ورقاني ، وأعطياني نعمًا لا حد لها ولا حصر ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي  
اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُنْ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا  
يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسِرِّفٌ كَذَابٌ ﴿٦٨﴾

( الفائدة الرابعة ) أن قوله ( وربكم ) فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذه بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطافت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصل في أداء الصلوات في الجماعات .

( الفائدة الخامسة ) أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء ، لأنـه كان قد سبق له حق تزية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

( الفائدة السادسة ) أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه ، بل الأولى الاستعاذه بالله في دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها .

( الفائدة السابعة ) أن الموجب للآقدام على إيداه الناس أمران ( أحدهما ) كون الإنسان متكبراً قاسى القلب ( والثانى ) كونه منكرأً للبعث والقيمة ، وذلك لأن التكبر القاسى قد يجعله طبعه على إيداه الناس إلا أنه إذا كان مقرأً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبره ، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيمة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيداه والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائفلا ، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائفلا فلا جرم تحصل القسوة والإيداه .

( الفائدة الثامنة ) أن فرعون لما قال ( ذرونني أقتل موسى ) قال على سبيل الاستهزاء ( وليدع ربـه ) فقال موسى إنـالـذـى ذـكـرـهـ يا فـرـعـونـ بـطـرـيـقـ الـاستـهـزـاءـ هـوـ الـدـيـنـ الـمـيـنـ وـالـحـقـ الـمـتـيرـ ، وـأـنـاـ دـعـوـرـبـيـ وـأـطـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـدـفـعـ شـرـكـ عـنـيـ ، وـسـتـرـىـ أـنـ رـبـيـ كـيـفـ يـقـهـرـكـ ، وـكـيـفـ يـسـلـطـنـيـ عـلـيـكـ وـأـعـلـمـ أـنـ مـنـ أـحـاطـ عـقـلـهـ بـهـذـهـ الـفـوـانـدـ عـلـمـ أـنـ لـاـطـرـيـقـ أـصـلـحـ وـلـاـ أـصـوبـ فـدـعـ كـيـدـ الـأـعـدـاءـ وـإـبـطـالـ مـكـرـمـ إـلـاـ الـاسـتـعاـذـةـ بـالـلـهـ وـالـرجـوعـ إـلـىـ حـفـظـ اللهـ وـالـهـ أـعـلـمـ .

قوله تعالى : ﴿٦٩﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُنْ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسِرِّفٌ كَذَابٌ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذه بالله ، بين أنه تعالى قيس إنساناً أجنبياً غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة واجتهد في إزالة ذلك الشر .

يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله ، ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه سبحانه يقيض أقواماً لا أعرفهم البينة ، يبالغون في دفع ذلك الشر ، وفيه مسائل :

**﴿ المسألة الأولى ﴾** اختلعوا في ذلك الرجل الذي كان من آل فرعون ، فقيل إنه كان ابن عم له ، وكان جارياً مجرى ولـى العهد ومجرى صاحب الشرطة ، وقيل كان قبطياً من آل فرعون وما كان من أقاربه ، وقيل إنه كان من بنى إسرائيل ، والقول الأول أقرب لأن لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) وعن رسول الله ﷺ أنه قال «الصديقون ثلاثة : حبيب التجار مؤمن آل ياسين ، وهو من آل فرعون الذي قال (أنتلون رجلاً أن يقول رب الله) والثالث على بن أبي طالب وهو أفضليهم » وعن جعفر بن محمد أنه قال : كان أبو بكر خيراً من مؤمن آل فرعون لأنَّه كان يكتم إيمانه وقال أبو بكر جهاراً (أنتلون رجلاً أن يقول رب الله) فكان ذلك سراً وهذا كان جهاراً .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** لفظ من في قوله (من آل فرعون) يجوز أن يكون متعلقاً بقوله (مؤمن) أي كان ذلك المؤمن شخصاً من آل فرعون ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله (يكتم إيمانه) والتقدير رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، وقيل إن هذا الاحتمال غير جائز لأنَّه يقال كتمت من فلان كذا ، إنما يقال كتمته كذا قال تعالى (ولا يكتمون الله حدثياً) .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** وجل مؤمن الأكثرون قراراً بضم الجيم وقرئي "رجل بكسر الجيم كما يقال عضد في عضد" .

**﴿ المسألة الرابعة ﴾** قوله تعالى (أنتلو رجلاً أن يقول ربى الله) استفهام على سبيل الإنكار ، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار ، وذلك لأنَّه ما زاد على أنَّ قال (ربى الله) وجاء بالبيانات وذلك لا يوجب القتل البينة وقوله (وقد جاكم بالبيانات من ربكم) ي Hutchinson وجهين (الأول) أن قوله (ربى الله) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وقد جاءكم بالبيانات) إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد ، وهو قوله في سورة طه (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقوله في سورة الشعراء (رب السموات والأرض وما بينهما إن كتمت موقيتين) إلى آخر الآيات ، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية في أن الإقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم ، فقال إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبالـى كذبه عائدًا عليه فائز كوه وإن كان صادقاً يصيـكم بعض الذي يعدكم ، فثبتت أن على كلا التقديرتين كان الأولى إيقاؤه حيَا .

فإن قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين (الأول) أن قوله (إن يك كاذباً فعليه كذبه) معناه أن ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه ، وهذا الكلام فاسد لوجه (أحدها) أنا لا نسلم أن بتقدير كونه كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل ، فيقترب به جماعة منهم ، ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة ثبت أن بتقدير كونه كاذباً لم يمكن ضرر كذبه مقصوراً عليه ، بل كان متعدياً إلى الكل ، ولهذا السبب العلماء اجمعوا على أن الرنديق الذي يدعو الناس إلى زندقتة يجب قتلة (وثانيها) أنه إن كان الكلام حجة له ، فلا كذاب إلا ويمكنته أن يتمسك بهذه الطريقة ، فوجب تمكّن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة (وثالثها) أن الكفار الذين أنكروا نبوة مرسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم ، لأنه يقال : إن كان ذلك المنكر كاذباً في ذلك الإنكار فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً انتفعتم بصدقه ، ثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب صنه ، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً .

(السؤال الثاني) أنه كان من الواجب أن يقال وإن يك صادقاً يصيّبكم كل الذي يعذّكم لأن الذي يصيب في بعض ما يبعد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم ، أما الرسول الصادق الذي لا يشکم إلا بالوحى فإنه يجب أن يكون صادقاً في كل ما يقول فكان قوله (يصيّبكم بعض الذي يعذّكم) غير لائق بهذا المقام (والجواب) عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد وهو أن تقدير الكلام أن يقال إنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فإن كان كاذباً خفته لا يعود ضرره إلا إليه ، وإن يك صادقاً انتفعتم به ، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضاً عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه فبها الطريق [ تكون ] الأسئلة الثلاثة مدفوعة .

(وأما السؤال الثالث) وهو قوله كان الأولى أن يقال يصيّبكم كل الذي يعذّكم ، فالجواب عنه من وجوه (الأول) أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنفاق وترك اللجاج لأن المقصود منه إن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، وإن كان صادقاً فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعذّكم ، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صحيحاً ، ونظيره قوله تعالى ( وإنما أنت لعلى هدى أو في ضلال مبين ) ، (والوجه الثاني) أنه عليه السلام كان يتوعّدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة ، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعذّم به ، (الوجه الثالث) حسكي عن أبي عبيدة أنه قال ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز ، واحتج بقول لييد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها      أو يرتبط بعض النقوس حماها  
والمشهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا وأراد لييد بعض النقوس نفسه والله أعلم .

يَنْقُومُ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَنَّ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ  
 جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِي كُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٣﴾  
 وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٤﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمٍ  
 نُوحٌ وَتَعَادُ وَمَوْدٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُظْلِمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٥﴾ وَيَلْقَوْمُ إِنِّي  
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْتَّنَادِ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ  
 وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَقَاتَهُ وَمِنْ هَادِ ﴿٢٧﴾

ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثلاثة في أنه لا يجوز لبذاته موسى عليه السلام فقال (إن الله لا يهدى من هو مسرف مرتاب) وتقرير هذا الدليل أن يقال : إن الله تعالى هدى موسى إلى الإيمان بهذه المعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى الإيمان بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذاباً فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين ، فكان قوله (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ) إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعریض ، ويتحمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى ، كذاب في إقدامه على ادعاه الإلهية ، والله لا يهدى من هذا شأنه وصفته ، بل يبطله ويهدم أمره .

قوله تعالى : يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فلننصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريك إلا ما أرى وما أهديك إلا سبيلاً للرشاد ، وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وموعد الذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويأقوم إني أخاف عليكم يوم التnad ، يوم تولون مدربين مالكم من الله من عاصم ومن يضلله الله فالله من هاد .

أعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ، خوفهم في ذلك بعذاب الله فقال (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ) يعني قد علّوت الناس وقهروا بهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا للباس الله وعدايه ، فإنه لا قبل لكم به ، وإنما قال (ينصرنا) و(جاءنا) لأنّه كان يظهر من نفسه أنه منهم وأنّ الذي ينصرهم به هو مشارك لهم فيه ، وإنما قال ذلك المؤمن هذا الكلام (قال فرعون ما أريك إلا ما أرى ) أي لا أشير إليكم

برأى سوى ماذكرته أنه يجب قتله حسماً لمادة الفتنة (وما أهديكم) بهذا الرأي (الإ سيل الرشاد) والصلاح ، ثم حكى تعالى أن ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال (إن أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) .

واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه ، والذى يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون ، ولهذا السبب حصل هنا قوله (الأول) أن فرعون لما قال (ذروني أقتل موسى) لم يصرح بذلك المؤمن بأنه على دين موسى ، بل أوهم أنه مع فرعون وعلى دينه ، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضى ترك قتل موسى ، لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإيتان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل ، والإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات ، بل الأولى أن يؤخر قتله وأن يمنع من إظهار دينه ، لأن على هذا التقدير إن كان كاذباً كان وبال كذبه عانداً إليه ، وإن كان صادقاً حصل الارتفاع به من بعض الوجه ، ثم أكد ذلك بقوله (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذب) يعني أنه إن صدق فيما يدعوه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدى المسرف الكذاب ، فأوهم فرعون أنه أراد بقوله (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون ، لأن المسرف الكذاب هو فرعون (والقول الثاني) أن مؤمن آلل فرعون كان يكتم إيمانه أولاً ، فلما قال فرعون (ذروني أقتل موسى) أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى ، وشأنه فرعون بالحق .

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعاً من الكلمات ذكرها لفرعون (فال الأول) قوله (يأقوم إن أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) والتقدير مثل أيام الأحزاب ، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد ونود ، خيّنت ظهر أن كل حزب كان له يوم مغيب في البلاء ، فانتصر من اجتمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ، ثم فسر قوله (إن أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) بقوله (مثل دأب قوم نوح وعاد ونود) ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفار والتكذيب وسائر المعاشرى ، فيكون ذلك دائياً ودائماً لا يفترون عنه ، ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم ، والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجل في الدنيا ، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة ، وهو قوله (ومن يضل الله فما له من هاد) والمقصود منه التنبية على عذاب الآخرة .

(والنوع الثاني) من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى (وما الله يريد ظليماً للعباد) يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً ، لأنهم استوجبوا بسبب تكذيبهم للأنبياء ، تلك الجلة قائمة هنا ، فوجب حصول الحكم هنا ، قالت المعتزلة : (وما الله يريد ظليماً للعباد) يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد ، فلو خلق الكفر منهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظليماً ، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم البتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد ، لأنه لو خلقها لآرادها ، وثبت أيضاً أنه قادر على الظلم ، إذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَزَلْتُمْ فِي شَكٍّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ  
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مِنْ هُوَ سَرِيفٌ

الظلم ، وهذا الاستدلال قد ذكرناه مراراً في هذا الكتاب مع اجواب ، فلا فائدة في الإعادة .  
(النوع الثالث) من كلمات هذا المأثر من قوله (ويأقوم إن أخاف عليكم يوم التnad) وفيه مسائل :  
• المسألة الأولى • التnad تفاعل من النداء ، يقال تnad القوم ، أى نادى بعضهم بعضاً ،  
والاصل اليه وحذف اليه حسن في الفواصل ، وذكرنا ذلك في (يوم التلاق) وأجمع المفسرون  
على أن (يوم التnad) يوم القيمة ، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه (الأول) أن  
أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار ، كما ذكر الله عنهم في سورة  
الأعراف (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) (الثانى) قال  
الزجاج : لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى (يوم ندعون كل أنس يمامهم) ، (الثالث) أنه ينادي  
بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور فيقولون (يا ويلنا) ، (الرابع) ينادون إلى الحشر ، أى يدعون  
(الخامس) ينادي المؤمن (هاوم اقرأوا كتايته) والكافر (ياليتني لم أوت كتايته) ، (ال السادس)  
ينادي باللعنة على الظالمين (السابع) يتجاه بالموت على صورة كبش أملح ، ثم يذبح وينادي يا أهل  
القيمة لامرت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرحم ، وأهل النار جزناً على حزنهم (الثامن) قال  
أبو علي الفارسي : التnad مشتق من التnad ، من قولهم ند فلان إذا هرب ، وهو قرامة ابن عباس  
وفترها ، فقال يندون كما تند الإبل ، ويبدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى (يوم يفر المرء من  
أخيه) الآية . وقوله تعالى بعد هذه الآية (يوم تولون مدربين) لأنهم إذا سمعوا زفير النار  
يندون هاربين ، فلا يأتون قطرأً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان  
الذى كانوا فيه .

• المسألة الثانية • انتصب قوله (يوم التnad) لوجهين (أحد هما) الظرف للحرف ، كأنه خاف  
عليهم في ذلك اليوم ، لما يلحقهم من العذاب إن لم يؤمنوا (والآخر) أن يكون التقدير (إن أخاف  
عليكم - عذاب - يوم التnad) وإذا كان كذلك كان انتصب يوم انتصب المفعول به ، لا انتصب  
الظرف ، لأن إعراب المضاف المخدوف ، ثم قال (يوم تولون مدربين) وهو بدل من قوله  
(يوم التnad) عن قنادة : منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار ، وعن مجاهد : فارين عن النار  
غير معجزين ، ثم أكد التهديد فقال (ما لكم من الله من عاصم) ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة  
جهالتهم فقال (ومن يضل الله فالله من هاد) .

قوله تعالى : • ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيانات فازلت في شك مما جاءكم به حتى إذا

**مَرْتَابٌ ۝ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيْ إِيمَانِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَنٍ أَتَهُمْ كَبُرُّ مَقْتَأً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىْ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ ۝**

هلك قلم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثام كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ۝ .

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال ( ومن يضل الله فا له من هاد ) ذكر لهذا مثلاً ، وهو أن يوسف لما حاول بالبيانات الباهرة فأصرروا على الشك والشك ، ولم ينتفعوا بذلك الدلائل ، وهذا يدل على أن من أضل الله ( فا له من هاد ) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ۝ قيل إن يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ونقل صاحب الكشاف أنه يوسف بن أفراسيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نيفاً وعشرين سنة ، وقيل إن فرعون موسى هو فرعون يوسف بن حبياً إلى زمانه وقيل فرعون آخر ، والمقصود من الكل شيء واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبيانات ، وفي المراد بها قوله ( الأول ) أن المراد بالبيانات قوله ( الأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ) ، ( والثان ) المراد بها المعجزات ، وهذا أولى ، ثم لهم بقوا في بيته شاكين مرتباين ، ولم ينتفعوا بهذه تلك البيانات ، فلما مات قالوا إنه (لن يبعث الله من بعده رسولاً) وإنما حكموا بهذا الحكم على سهل التشويق والتفتي من غير حجة ولا برهان ، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساساً لهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس في قوله (لن يبعث الله من بعده رسولاً) لأجل تصدق رسالة يوسف وكيف وقدشكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضموماً إلى تكذيب رسالته ، ثم قال ( كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ) أي مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه ، قال الكعبى هذه الآية حجة لا هل القدر لـأنه تعالى بين كفرهم ، ثم بين أنه تعالى إنما أضلهم لكونهم مسرفين مرتباين ، ثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين ، فإن الله تعالى لا يضله .

ثم بين تعالى مالاً جله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال ( الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ) أي بغير حجة ، بل إنما بناء على التقليد المجرد ، وإنما بناء على شبهات خسيسة ( كبر مقتاً عند الله ) والمقت هو أن يبلغ المرء في القوم مبلعاً عظيماً فيمتهن الله ويفرضه ويظهره خزيه وتعنته . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ۝ في ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحججة حسن وحق وفيه إبطال للتقليد .

**وَقَالَ فِرْعَوْنٌ يَهْمَنُ أَبْنَ لِ صَرْحًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ**

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى مقت الله أيام يدل على أن فعلمهم ليس بخلق الله لأن كونه فاعلا لل فعل وما قاتا له الحال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياة والتعجب والله أعلم . ثم بين أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا .

ثم قال ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عاصي وأبو عمرو وقديمة عن الكساني (قلب) منوناً (متكبر) صفة للقلب والباقيون بغير تنوين على إضافة القلب إلى المتكبر قال أبو عبيد الاختيار الإضافة لوجوه (الأول) أن عبد الله قرأ (على كل قلب متكبر) وهو شاهد لهذه القراءة (الثانية) أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما ، وأما الذين قرأوا بالتنوين فقالوا إن الكبر قد أضيف إلى القلب في قوله (إن في صدوركم لا كبر) وقال تعالى (فإنه آثم قلبه) وإيضاً فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر ، وأيضاً قال قوم الإنسان الحقيق هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه في تفسير قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) قالوا ومن أضاف ، فلا بد له من تقدير حذف ، والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكلام في الطبع والرين والقصوة والغشاوة قد سبق في هذا الكتاب بالاستقصاء ، وأصحابنا يقولون قوله (كذلك يطبع الله) يدل على أن الكل من الله والمعزولة يقولون إن قوله (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان في نفسه متكبراً جباراً وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الغريقين من وجه ، وعليه من وجه آخر ، والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب ، فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله ، فيكون القول بالقضاء والقدر حياً ويكون تعليل الصدعن الدين بكونه متجرباً متكبراً بافياً ، فثبت أن هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لنظر القرآن من أوله إلى آخره عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار ، قال مقاتل (متكبر) عن قبول التوحيد (جبار) في غير حق ، وأقول كمال السعادة في أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله وآله أعلم . قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنٌ يَا هَامَانَ ابْنَ لِ صَرْحًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعْ

**فَأَظْلَعَ إِلَيْنَا إِلَهٌ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ**

**عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** ﴿٤٧﴾

إلى الله موسى وإن لاظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ۷۰ .

اعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبراً جباراً بين أنه أبلغ في البلادة والخاتمة إلى أن قصد الصعود إلى السموات ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ۷۱﴾ احتاج الجميع الكثير من المشبهة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات وقرروا ذلك من نوجوههم : (الأول) أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله ، وكل ما يذكره في صفات الله تعالى بذلك إنما يذكره لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك ، فهو أيضاً يذكره كما سمعه ، فلو لا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء وإلا لما طلبه في السماء . (الوجه الثاني) أنه قال وإن لاظنه كاذباً ، ولم يبين أنه كاذب فيما إذا ، والمذكور السابق متبع لصرف الكلام إليه فكان التقدير فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء ، ثم قال ( وإن لاظنه كاذباً ) أي وإن لاظن موسى كاذباً في ادعائه أن الإله موجود في السماء ، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود في السماء . (الوجه الثالث) العلم بأنه لو وجد الإله لكان موجوداً في السماء . علم بديهي متقرر في كل العقول ولذلك فأن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجودهم وأيديهم إلى السماء ، وإن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه في السماء ، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء علم متقرر في عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل .

فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية ، (والمحواب) أن هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، وأما موسى عليه السلام فأنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلافية فقال في سورة طه (ربنا الذي أ赋予 كل شئ خلقه ثم هدى) وقال في سورة الشعراه (ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب وما يينهما) ظهر أن تعريف ذات الله يكونه في السماء دين فرعون وتعريفه بالخلافية وال موجودية دين موسى ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى ، ثم نقول لأنفسنا أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى بذلك قد سمعه من موسى عليه السلام ، بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الإله لو كان موجوداً لكان حاصلاً في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام .

وأما قوله ( وإن لاظنه كاذباً ) فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال ( رب السموات الفخر الرازي - ج ٢٧ م ٥

والارض) ظن أنه عنى به أنه رب السموات ، كما يقال للواحد منا إنه رب الدار يعني كونه ساكناً فيه ، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه ، وهذا ليس بمستبعد ، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والخفاقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه ، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لاتفاقاً بهم ، لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه . وأما قوله إن نظره فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجوداً لكان في السماء ، فلنا نحن لا نشك أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ في الخفاقة إلى درجة فرعون فثبت أن هذا الكلام ساقط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلاف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم لا ؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك ، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح ، والذى عندي أنه بعيد والدليل عليه أن يقال فرعون لا يخلو إما أن يقال إنه كان من المجانين أو كان من العقلاة ، فإن قلنا إنه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه ، لأن العقل شرط في التكليف ، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام بسون في القرآن ، وأما إن قلنا إنه كان من العقلاة فنقول إن كل عاقل يعلم بيدهيه عقله أنه لا يتغافل في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالى ، ويعلم أيضاً بيدهيه عقله أنه لا يتغافل في البصر حال السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال ، وإذا كان هذان العدوان بيدهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء ، وإذا كان فساد هذا معلوماً بالضرورة امتنع لبساده إلى فرعون ، والذى عندي في تفسير هذه الآية أن فرعون كان من المدحرين وغرضه من ذكر هذا الكلام إبراد شبهة في نفي الصانع وتقريره أنه قال : إنما لازم شيئاً يحكم عليه بأنه إله العالم فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما إنه لازم فالإله لو كان موجوداً لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات فكيف يسكننا أن زاه ، ثم إنه لأجل المبالغة في بيان أنه لا يسكنه صعود السموات ( قال يا هامان ابن لي صرحاً على أبلغ الأسباب ) والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق يمتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعاً ، ونظيره قوله تعالى ( فإن استطعت أن تبتغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بأية ) وليس المراد منه أن محمدأ صلى الله عليه وسلم طلب نفقاً في الأرض أو وضع سلماً إلى السماء ، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى يمتنع فقد عرف أنه لا سبيل لك إلى تحصيل ذلك المقصود ، فكذا هنا غرض فرعون من قوله ( يا هامان ابن لي صرحاً ) يعني أن الإطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق يمتنعاً ، خيئت يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى فنقول هذا ما حصلته في هذا الباب .

واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لأن طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب ، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بين لفرعون

أن الطريق في معرفة الله تعالى إنما هو الحجة والدليل كما قال (ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب ) إلا أن فرعون لخبطه ومكره تناول عن ذلك الدليل ، وأتقى إلى الجهال أنه لما كان لا طريق إلى الإحساس بهذا الإله وجب نفيه ، فهذا ماعندى في هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق جواهر الأفلاك وحركاتها بحيث تكون هي الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم الأسفل ، واحتجوا بقوله تعالى (لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات) وعلوم أنها ليست أسباباً إلا لحوادث هذا العالم قالوا ويؤكده هذا بقوله تعالى في سورة ص (فليرتفعوا في الأسباب) أما المفسرون فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى (لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات) أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها ، وكل ما أدراك إلى شيء فهو سبب كالرشاد ونحوه .

**﴿ المسألة الرابعة ﴾** قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخت بنى إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مدید ودهر داهر ، فالقول بأن هامان كان موجوداً في زمان فرعون خطأ في التاريخ ، وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الإسم في زمانه ، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجوداً في زمان فرعون ما كان شخصاً خبيساً في حضرة فرعون بل كان كالوزير له ، ومثل هذا الشخص لا يكون مجھول الوصف والحقيقة فلو كان موجوداً لعرف حاله ، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجوداً في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أنه غلط وقع في التواريخت ، قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو أن قاتلاً ادعى أن أبا حنيفة كان موجوداً في زمان محمد عليه السلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضاً يسمى بأبا حنيفة ، فإن أصحاب التواريخت يقطعون بخطئه فكذا هنا (والجرأة) أن تواريخت موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخت اعتقاد في هذا الباب ، فكان الأئمّة يقولون الله أولى بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخت قرية غير مضطربة بل هي مضبوطة ظاهر الفرق بين البالين ، فهذا جلة ما يتعلق بالباحث المعنوية في هذه الآية ، وبقى ما يتعلق بالباحث اللفظية .

قيل (الصرح) البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر و (أسباب السموات) طرقها ، فإن قيل ما فائدة هذا التكثير . ولو قيل : لعل أبلغ أسباب السموات ، كان كافياً ؟ أجاب صاحب الكشاف عنه فقال : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تخفيها لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ، وقوله (فأطلع إلى الله موسى) فرأه حضر

**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُولُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحِجَةُ<sup>١</sup>  
الَّذِي مَنَعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ**

عن عاصم (أطلع) بفتح العين والباقيون بالرفع ، قال المبرد : من رفع فقد عطفه على قوله (أبلغ) والتقدير (لعل أبلغ الأسباب) ثم أطلع إلا أن حرف ثم أشد تراخيًا من الفاء ، ومن نصب جمله جواباً ، والمعنى لعل أبلغ الأسباب ففي بلغتها أطلع والمعنى مختلف ، لأن الأول لعل أطلع والثاني لعل أبلغ وأنا ضامر أي متى بلغت فلا بد وأن أطلع .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها (وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفْرَعَوْنَ سُوْهُ عَلَهُ  
وَصَدُّ عَنِ السَّبِيلِ) وفيه مسائل

• المسألة الأولى • قرأ عاصم وحزة والكسائي (وصد) بضم الصاد . قال أبو عبيدة : وبه  
يقرأ ، لأن ما قبله فعل مبني للمفعول به يجعل ما عطف عليه مثله ، والباقيون (وصد) بفتح الصاد  
على أنه منع الناس عن الإيمان ، قالوا ومن صده قوله (لا قطعن أيديكم وأرجلكم) ويؤيد هذه  
القراءة قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) وقوله (هم الذين كفروا وصدوا عن  
المسجد الحرام) .

• المسألة الثانية • قوله تعالى (زين) لابد له من المزين ، فقالت المعتزلة : إنه الشيطان ، قيل  
لهم إن كان المزين لفرعون هو الشيطان ، فالمزين للشيطان إن كان شيطاناً آخر لرم إثبات التسلسل  
في الشياطين أو الدور وهو حال ، ولما بطل ذلك وجب انتهاء الأسباب والمسيرات في درجات  
ال حاجات إلى واجب الوجود ، وأيضاً قوله (زين) يدل على أن الشيء إن لم يكن في اعتقاد الفاعل  
موسوفاً بأنه خير وزينة وحسن فإنه لا يقدم عليه ، إلا أن ذلك الاعتقاد إن كان صواباً فهو العلم ،  
وإن كان خطأ فهو الجهل ، ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، لأن العاقل لا يقصد تحصيل  
الجهل لنفسه ، ولأنه إنما يقصد تحصيل الجهل لنفسه إذا عرف كونه جهلاً ، ومتى عرف كونه جهلاً  
امتنع بقاوه جاهلاً ، ثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، ولا يجوز أن يكون فاعله  
هو الشيطان ، لأن البحث الأول يعنيه طائف فيه ، فلم يبق إلا أن يكون فاعله هو الله تعالى والله أعلم .  
ويقوى ما فلناته أن صاحب الكشاف نقل أنه قرئ (وزين له سوء عمله) على البناء للفاعل والفعل  
للله عز وجل ، ويدل عليه قوله (إلى الله موسى) .

ثم قال تعالى (وما كيد فرعون إلا في تباب) والنيل الملاك والحسران ، وتظيره قوله تعالى  
(وما زادوههم غير تتبّب) وقوله تعالى (تبّت يدا أبي هب) والله أعلم ،  
قوله تعالى : **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمَ اتَّبَعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ ، يَا قَوْمَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحِجَةُ<sup>٢</sup>**

عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِرَزْقُونَ فِيهَا بَغْيَرِ حِسَابٍ ﴿١﴾ وَيَنْقُومُ مَا لَيْتَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٢﴾ تَدْعُونَنِي لَا كُفَّرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٣﴾ لَأَبْرَجَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرْدَنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسَرِّفِينَ هُمُ الْأَحْبَبُ الْنَّارِ ﴿٤﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِصِيرُ الْعِبَادِ ﴿٥﴾

الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة برزقون فيها بغير حساب ، ويقوم ما لايستكم إلى النجاة وتدعوني إلى النار ، تدعوني لا كفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنها تدعوني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

لعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون ، وقد كان يدعونهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته . واعلم أنه نادى في قومه ثلاثة مرات : في المرة الأولى دعاعم إلى قبل ذلك الدين على سبيل الإجمال ، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله (يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد) وليس المراد بقوله (اتبعون) طريقة التقليد ، لأنه قال بعده (أهدكم سبيل الرشاد) والمهدى هو الدلالة ، ومن بين الأدلة للغير يوصف بأنه هداء ، وسيط الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي إليه ، لأن الرشاد نقىض الغنى ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغنى .

وأما التفصيل فهو أنه بين حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة ، أما حقارة الدنيا فهي قوله (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) والمعنى أنه يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة ، ثم تقطع وتزول ، راما الآخرة فهى دار القرار والبقاء والدوام ، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة . والدنيا منقضية منقرضة ، والدائم خير من المقضى ، وقال بعض العارفين : لو كانت الدنيا

ذهبأً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً ، لكان الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق .

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم ، وإن الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ، ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، وأشار فيه إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال ( من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ) والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق ، فإن قيل كيف يصح هذا الكلام ، مع أن كفر ساعة يجب عقاب الأبد ؟ قلت إن الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيماناً فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصراً على ذلك الاعتقاد أبداً ، فلا جرم كان عقابه مؤبداً بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبق مصراً عليه ، فلا جرم قلت أن عقاب الفاسق منقطع . أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل ، لأن مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الإتيان بها أيضاً ليس دائماً بل منقطعاً فما يقابل عقاب دائم يكون على خلاف قوله ( من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ) ، واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فيها يتعلق بأحكام الجنایات فإنها تقتضي أن يكون المثل مشروعاً ، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع ، ثم نقول ليس في الآية بيان أن تلك المائة معتبرة في أي الأمور ولو حلتاه على رعاية المائة في شيء معين ، مع أن ذلك المعين غير مذكور في الآية صارت الآية بجملة ، ولو حلتها على رعاية المائة في جميع الأمور صارت الآية عاماً مخصوصاً ، وقد ثبت في أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال وبين التخصيص كان دفع الإجمال أولى فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المائة من كل الوجوه إلا في مواضع التخصيص ، وإذا ثبت هذا فالأحكام السليمة في باب الجنایات على النفوس ، وعلى الأعضاء ، وعلى الأموال يمكن تفريغها على هذه الآية .

ثم نقول إنه تعالى لما بين أن جزاء السيئة مقصور على المثل بين أن جزاء الجنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال ( ومن عمل صالحاً من ذكر أو أثني وهو وؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ) واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله ( ومن عمل صالحاً ) نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات بغير مجرى أن يقال من ذكر كلمة أو من خطأ خطوة فله كذا فإنه يدخل فيه كل من أدى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة ، فكذلك هنا وجوب أن يقال كل من عمل صالحاً واحداً من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب ، والأقوى بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقدس مدة مئتين سنة قد أدق بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات ، فوجب أن يدخل الجنة والخصم يقول أنه يبقى مخلداً في النار أبداً فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح . قال المعتزلة إنه تعالى شرط فيه كونه وؤمناً وصاحب الكبيرة عندنا

ليس بهؤمن فلا يدخل في هذا الوعد (والجواب) أنا بينما في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى (الذين يؤمرون بالغيب) أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام ، وانختلفوا في تفسير قوله (يرزقون فيها بغير حساب) فهم من قال لما كان لانهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب ، وقال الآخرون لأن الله تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم إلى ذلك الثواب من أقسام التفضل مايخرج عن الحساب قوله (بغير حساب) واقع في مقابلة (إلا مثلها) يعني أن جراءه السيئة له حساب وتقدير ، لثلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جراء العمل الصالح فغير تقدير وحساب بل ماشت من الزيادة على الحق والكثرة والسرعة ، وأقول هذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجع على جانب القهوة العقاب ، فإذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعيد ، وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعيد وذلك يهدى قواعد المعتزلة ، ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى في المرة الثالثة وقال (يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعوني إلى النار) يعني أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة وتدعوني إلى الكفر الذي يوجب النار ، فإن قيل لم كرر نداء قوله ، ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ فلنا أما تكرير النداء فيه زيادة تنبئه لهم وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام ، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة ، وأما الجني بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الأول ، لأن الثاني بيان للأول والبيان عين المبين ، وأما الثالث فلأنه كلام مبین للأول والثاني خسراً لإبراد الواو العاطفة فيه ، ولما ذكر هذا المؤمن إنه يدعونهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار ، فسر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به ، أما الكفر بالله فلأن إلا كثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله ، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام وقوله تعالى (وأشرك به ما ليس لي به علم) المراد بنفي العلم نقى المعلوم ، كأنه قال وإشرك به ما ليس بيده وما ليس بيده كيف يعقل جعله شريكا للله ؟ ولما بين أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بين أنه يدعونه إلى الإيمان بالعزيز الفغار فقوله (العزيز) إشارة إلى كونه كامل القدرة ، وفيه تنبئه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة ، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون لها ، وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلة وقوله (الفغار) إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة ، فإن الله العالم وإن كان عزيزاً لا يغلب قادرًا لا يغالب ، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة يopian ساعه واحدة ، ثم قال ذلك المؤمن (لأجرم) والكلام في تفسير لاجرم من في سورة هود في قوله (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) وقد أعاده صاحب الكشف هنا فقال (لأجرم) مساقه على مذهب البصريين أن يجعل (لا) ردًا لما دعاهم إليه قوله و (جرم) فعل بمعنى حق و (أنتا) مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى (ولا يجر منكم شئان) قوم أن صدوك عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يقال إن (لأجرم) نظيره لا بد فعل

من الجرم وهو القطع كأن بد فعل من التبديد وهو التفريق ، وكأن معنى لابد أنك تفعل كذا أنه لابد لك من فعله ، فكذلك (لاجرم أن لهم النار) أى لاقطع لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً ، وروى عن بعض العرب لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء زنة بد و فعل اخوان كرشد ورشد وكم عدم هذا كله ألفاظ صاحب الكشاف .

ثم قال (إنما تدعوني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) والمراد أن الأولان التي تدعوتني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وفي تفسير هذه الدعوة احتفالان .

(الأول) أن المعنى ما تدعوتني إلى عبادته ليس له دعوة إلى نفسه لأنها جمادات والجمادات لا تدعوا أحداً إلى عبادة نفسها وقوله (في الآخرة) يعني أنه تعالى إذا قلبها غيراناً في الآخرة فإنها تتبرأ من هؤلاء العبادين .

(والاحتفال الثاني) أن يكون قوله (ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقاً لاسم أحد المتن coppiaين على الآخر ، كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم قال (وأن مردنا إلى الله) وبين أن هذه الأصنام لا فائدة فيها البتة ، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغي عن كل الحاجات الذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلم للعيid ، فإلى عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة وأن يعرض عن عبادة هذا الإله الذي لابد وأن يكون مرده إليه ؟ وقوله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) قال قنادة يعني المشركون وقال مجاهد السفرا كين الدماء والصحيح أنهم أسرفوا في معصية الله بالكثرة والكيفية ، أما الكمية فالدوام وأما الكيفية فالغود والإصرار ، ولما بالغ وؤمن آئل فرعون في هذه البيانات ختم كلامه بختامة لطيفة فقال (فستاندون ما أقول لكم) وهذا كلام مهم يجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا وهو وقت الموت ، وأن يكون في القيمة وقت مشاهدة الأهوال وبالمثل فهو تحذير شديد ، ثم قال (وأفرض أمرى إلى الله) وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكان لهم خوفه بالقتل وهو أيضاً خوفهم بقوله (فستاندون ما أقول لكم) ثم عرل في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال (وأفرض أمرى إلى الله) وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام ، فإن فرعون لما خوفه بالقتل رجم موسى في دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال (إني عذت برب وربكم من كل متکبر لا يؤمن باليوم الحساب) فتح نافع وأبو عمرو الياء من (أمرى) والباقيون بالإسكان .

ثم قال (إن الله بصير بالعباد) أى عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم ، وتمسك أصحابنا بقوله تعالى (وأفوه عن أمرى إلى الله) على أن الكل من الله ، و قالوا إن المعتزلة الذين قالوا إن الخير

فَوَقَهُ اللَّهُ سَيِّعَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِهِمْ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٢٩) الَّنَّارُ  
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا إِلَى فِرْعَوْنَ أَشَدَّ  
الْعَذَابِ (٣٠) وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي الْنَّارِ فَيَقُولُ الْمُضَعَّفُونَ لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُلُّكُمْ  
تَبَعًا فَهَلْ أَتُمْ مُغْنِونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ الْنَّارِ (٣١) قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِنَّ  
اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ فِي الْنَّارِ لِخَزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ  
يُخْفِفَ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٣٣) قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا  
بَلَّا فَقَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَنَا أَكَفَرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٣٤)

والشر يحصل بقدرتهم قد فوضوا أمر أنفسهم إليهم وما فوضوها إلى الله ، والمعزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا إن قوله (أفروض ) اعتراف بكونه فاعلا مستقلًا بالفعل ، والباحث المذكورة في قوله (أعوذ بالله ) عائنة بتمامها في هذا الموضوع . وه هنا آخر كلام مؤمن آل فرعون والله المادي .  
قوله تعالى : **فَوَقَهُ اللَّهُ سَيِّعَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِهِمْ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا إِلَى فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي الْنَّارِ فَيَقُولُ الْمُضَعَّفُونَ لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَقَالَ الَّذِينَ فِي الْنَّارِ لِخَزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخْفِفَ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَّا . قَالُوا : فَادْعُوا وَمَا دَعَنَا أَكَفَرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** .

اعلم أنه تعالى لما بين أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق ، وفي الذب عنه قاله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقدد الفاسدين ، و قوله تعالى (فوقاه الله سينات ما مكروا) يدل على أنه لما صرخ بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء ، قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتلها فهرب منهم إلى الجبل فطلبواه فلم يقدروا عليه ، وقيل المراد بقوله (فوقاه الله سينات ما مكروا) أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصرفه عن الإسلام (فوقاه الله) عن ذلك إلا أن الأول أولى لأن قوله بعد ذلك (وحاقد آل فرعون سوء العذاب) لا يليق إلا بالوجه الأول ، و قوله تعالى (وحاقد

بآل فرعون ) أى أحاط بهم ( سورة العذاب ) أى غرقوا في البحر ، وقيل بل طمراد منه النار المذكورة في قوله ( النار يعرضون عليها ) قال الزجاج ( النار ) بدل من قوله ( سورة العذاب ) قال وجائز أيضاً أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير ( سورة العذاب ) كأن قائلًا قال : ماسورة العذاب ؟ فقيل ( النار يعرضون عليها ) .

قرأ حمزة ( حاق ) بكسر الحاء وكذلك في كل القرآن والباقيون بالفتح أما قوله ( النار يعرضون عليها غدوأ وعشياً ) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتاج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوأ وعشياً ، وليس المراد منه يوم القيمة لانه قال ( ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ) ، وليس المراد منه أيمنا الدنيا لأن عرض النار عليهم غدوأ وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا ، ثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيمة ، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء ، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لانه لا قائل بالفرق ، فإن قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدوأ وعشياً عرض النصائح عليهم في الدنيا ؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ، ثم نقول في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين : ( الأول ) أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائمًا غير منقطع ، و قوله ( يعرضون عليها غدوأ وعشياً ) يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين ، ثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر ( الثاني ) أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدنيا ، أما في القبر فلا وجود لها ، ثبت بهذه الوجهين أنه لا يمكن حل هذه الآية على عذاب القبر ( والجواب ) عن السؤال الأول أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكره أمر النار ، لا أنه يعرض عليهم نفس النار ، فعلى قوله يصير معنى الآية الكلمات المذكورة لأمر النار كانت تعرض عليهم ، وذلك يفiti إلى ترك ظاهر اللفظ والدخول إلى الجاز ، أما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز ، فلنا لم لا يجرز أن يكتفى في القبر بايصال العذاب إليه في هذين الوقتين ، ثم عند قيام القيمة يلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك ، وأيضاً لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كنهاية عن الدوام ك قوله ( ولم رزقهم فيها بكرة وعشياً ) أما قوله إنه ليس في القبر والقيمة غدوة وعشية ، فلنا لم لا يجوز أن يقال إن عند حصول هذين الوقتين لا هل الدنيا يعرض عليهم العذاب ؟ والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسان وحفص عن عاصم ( أدخلوا آل فرعون ) أى يقال لخزنة جهنم : أدخلوهم في أشد العذاب ، والباقيون ادخلوا على معنى أنه يقال هؤلاء الكفار : أدخلوا أشد العذاب ، والفراءة الأولى اختيار أبي هبيدة ، واحتاج عليها به قوله تعالى ( يعرضون ) وهذا يفعل بهم كذلك ( أدخلوا ) وأما وجه القراءة الثانية ف قوله ( أدخلوا أبواب جهنم ) ، وه هنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون .

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار ، لاجرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والاتباع من أهل النار فقال (ولاذ يتحاجون في النار) والمعنى اذكر يا محمد لقومك (لاذ يتحاجون) أي يجاج بعضهم بعضاً ، ثم شرح خصوصياته وذلك أن الضغفاء يقولون للرؤساء (إنما كنتم بعما) في الدنيا ، قال صاحب الكشاف تبعاً لكتاب في جمع خادم أو ذوى تبع أي اتباع أو وصفاً بالمصدر (فهل أنت مغفون عنا نصيباً من النار) أي فهل تقدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيباً من العذاب ، واعلم أن أولئك الاتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تمجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم ، لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الاتباع في أنواع الضلالات فمنذ هذا يقول الرؤساء (إنما كل فيها) يعني أن كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي ، ثم يقولون (إن الله قد حكم بين العباد) يعني يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعم أو من العذاب ، ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبعين فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) فإن قبل لم يقل : وقال الذين في النار لخزنتها بل قال (وقال الذين في النار لخزنة جهنم) ؟ فلنا فيه وجهان (الأول) أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتقطيع (والثاني) أن يكون جهنم أساساً لوضع هو أبعد النار فعلاً ، من قوله بث جهناً أي بعيدة الفعر ، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة ، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم ، فأولئك الملائكة يقولون لهم (أو لم تكن تأتكم رسليكم بالبيتات) والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه (ما جاءنا من بشير ولا نذير) أما بعد بجيء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد بجيء الشرع ، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكافر ادعوا أنت فإننا لا ننجي ، على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين (أبدهما) كون المشفوع له مؤمناً (والثاني) حصول الإذن في الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فإذا دامنا على هذه الشفاعة يمتنع لكن ادعوا أنت ، وليس قوله قادر على الرجاء المنفعة ، ولكن الدلالة على الخيبة ، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكفار ، ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) فإن قبل إن الحاجة على الله حال ، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال : إنه تأذى من هؤلاء الجرمين بسبب جرمهم ، وإذا كان التأذى حالاً عليه كانت شهوة الانتقام متنعة في حقه ، إذا ثبت هذا فنقول إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد ، فهو إضرار خال عن جميع الجهات المنفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يقع على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الدهارين ،

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝ وَلَقَدْ هَانَتْ نُوسَى الْمُهُدَّدِي وَأَوْرَثَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۝ هُدَىٰ وَذِكْرٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ۝ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيرِ وَالْأَبْكَارِ ۝

من غير أن يرحم حاجتهم ومن غير أن يسمع دعاءهم ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم ، ولو أن أقصى الناس قليلاً فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد في محل النفع والضرر وال الحاجة ، فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار ؟ فلنا أفعال الله لا تعلم و ( لا يسأل عما يفعل و مم يسألون ) فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ، وَلَقَدْ هَانَتْ نُوسَى الْمُهُدَّدِي وَأَوْرَثَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ، هُدَىٰ وَذِكْرٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ، فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيرِ وَالْأَبْكَارِ ».

اعلم أن في كيفية النظم وجوماً (الأول) أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين في هذه الآية أنه ينصر رسالته والذين آمنوا معه (الثانى) ما بين من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون (الم تك تأتكم رسليكم باليتات) أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم في الدنيا والآخرة (والثالث) وهو الأقرب عندي أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفررك تقلبهم في البلاد) وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحتقين أبداً كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين ، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول ﷺ وتصبيحاً له على تحمل أذى قومه ، ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى النهاية القصوى وعد تعالى رسوله ﷺ بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) الآية ، أما في الدنيا فهو المراد بقوله (في الحياة الدنيا) ، وأما في الآخرة فهو المراد بقوله (وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ )

**خاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل ، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظفر بها في الدنيا وفي الآخرة .**

واعلم أن نصرة الله للحقين تحصل بوجوه (أحدها) النصرة بالحججة ، وقد سمي الله الحجة سلطاناً في غير موضع ، وهذه النصرة عامة للحقين أجمع ، ونعم ما سمي الله بهذه النصرة سلطاناً لأن السلطة في الدنيا قد تبطل ، وقد تتبدل بالفقر والذلة وال الحاجة والفتور ، أما السلطنة الحاصلة بالحججة فإنها تبقى أبداً ومتى تطرق الحال والفتور إليها (وثانية) أنهم منصورون بالمدح والتعظيم ، فإن الظلمة وإن قهروا شخصاً من الحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن أنسنة الناس (وثالثة) أنهم منصورون بسبب أن بواسطتهم معلومة من أنوار الحجة وقوة اليقين ، فإنهم إنما ينظرون إلى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أحسن الأشياء (ورابعها) أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على الحقين ، ففي الفالب أن ذلك لا يدوم بل يكشف الناس أن ذلك كان أمراً وقع على خلاف الواجب ونقض الحق (وخامسها) أن الحق إن افق له أن وقع في نوع من أنواع العنور فذلك يكون سبباً لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته (وسادسها) أن الظلمة والمبطلين كما يمدون ثبوت آثارهم ولا يبق لهم في الدنيا أثر ولا خبر . وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير ومحنهم يتركون فهذا كله أنواع نصرة الله للحقين في الدنيا (سابعها) أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم ، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قتل قتل به سبعون ألفاً ، وأما نصرته تعالى أيام في الآخرة فذلك يacula درجاتهم في مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لأنبياء الله ، كما قال (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

واعلم أن في قوله (إننا لننصر رسالنا) إلى قوله (ويوم يقوم الأشهاد) دقة معتبرة وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجميع العظيم من أهل المشرق والمغارب كان ذلك أذن وأبهج قوله (إننا لننصر رسالنا - إلى - يوم يقوم الأشهاد) المقصود منه هذه الدقة ، واختلفوا في المراد بالأشهاد ، والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيمة من ملوك ونبي ومؤمن ، أما الملائكة فهم الكرام الكائنون يشهدون بما شاهدوا ، وأما الأنبياء فقال تعالى (فكيف إذا جتنا من كل أمة بشهيد وجئنا بذلك على هؤلاء شهيداً) وقال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهادة على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) قال المبرد مجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهداً كأطياف وطائر وأصحاب وصاحب ، ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيداً كأنشراف وشريف وأيتام ويتيم .

ثم قال تعالى (يوم لا ينفع الظالمين معدتهم ولم اللعنة ولهم سوء الدار) فرأى ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لا ينفع بالتأءة لأننيت المعدنة والباقيون بالباء كأنه أريد الاعتذار

واعلم أن المقصود أيضاً من هذا شرح تعظيم ثواب أهل التواب ، وذلك لأنه تعالى بين أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون ، خالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه وأما حال أعدائهم فهو أنه حصل لهم أمور ثلاثة (أحددها) أنه لا ينفعهم شيء من العذابات البة (وثانية) أن (لهم اللعنة) وهذا يفيد الحصر يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال (والثالثة) سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقفين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعية في الجمع الأعظم فهنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون ، وأن غروم الكافرين إلى أين تبلغ . فإن قيل قوله (يوم لا ينفع الظالمين معدرتهم) يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لاتنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) قلنا قوله (لا تتف适用 الظالمين معدرتهم) لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار ، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع ، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا . وأيضاً فيقال يوم القيمة يوم طوبى فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر ، ولما بين الله تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعاً من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال (ولقد آتينا موسى المهدى) ويحوز أن يكون المراد من المهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، وبجرز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التي أوردها على فرعون وابناءه وكادمها ، ويحوز أن يكون المراد هو النبوة التي هي أعظم المناصب الإنسانية ، ويحوز أن يكون المراد إزالة التوراة عليه .

قوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا بْنِ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُوَ يَحْمِلُ أَلْأَلَابَ﴾ يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بق ذلك العلم فيهم وتوارثه خلفاً عن صاحف ، ويحوز أن يكون المراد سائر الكتاب التي أنزلها الله عليهم وهي كتب الأنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل ، والفرق بين المهدى والذكرى أن المهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً ، وأما الذكرى فهي الذي يكون كذلك فكتاب الأنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة . ولما بين أن الله تعالى ينصر رسالته وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى ومخاطب بعد ذلك محدداً ﷺ فقال (فاصبر إن وعد الله حق) فله ناصر كذا نصرهم ومنجز وعده في حمله كذا كان كذلك في حقهم ، ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة فإن من كان الله كان له .

واعلم أن جامع الطاعات مخصوصة في قسمين التوبة عما لا ينبغي ، والاشغال بما ينبغي ، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فرجب أن يكون مقدماً عليه في الذكر ، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله ( واستغفر لذنبك ) والطاعون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به

إِنَّ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِيْ إِيَّاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَنٍ أَتَهُمْ إِنْ فِيْ صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَا هُمْ بِالْغَيْرِ<sup>٦٨</sup> فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ<sup>٦٩</sup> خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>٧٠</sup> وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ<sup>٧١</sup> إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ لَّاَرِبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>٧٢</sup>

ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة ، وقيل أيضاً المقصود منه محض التبعيد كما في قوله (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسولك ) فإن إيتاه ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه ، وكقوله (رب احكم بالحق) من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق ، وقيل إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله ( واستغفر لذنبك ) من باب إضافة المصدر إلى المفعول أي واستغفر لذنب أنتك في حقيقتك ، وأما الاشتغال بما ينبعي فهو قوله ( وسيبح محمداً ربكم بالعشى والإبكار ) والتسييح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ، والعشى والإبكار ، قبيل صلاة العصر وصلاة الفجر ، وقيل الإبكار ، عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وقيل المراد طرفا النهار ، كما قال (وأقم الصلاة طرفي النهار) وبالمثلة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنه ، وأن لا ينفل القلب عنه ، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلاً في زمرة الملائكة ، كما قال في وصفهم (يسبحون الليل والنهر لا يفترون) والله أعلم .

قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِيْ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَنٍ أَتَهُمْ إِنْ فِيْ صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَا يَالْغَيْرِ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ، إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ لَّاَرِبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» .

اعلم أنا بينما أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدىء . ردًا على الذين يجادلون في آيات الله ، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه ، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا

الموضع ، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة ، فقال (إنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ) إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدرهم . فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل ، وذلك الكبر هو أنهم لو سلوا نبؤتك لزعمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهايك ، لأن النبوة تتحتها كل ملك ورياسته وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك ، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصرات الفاسدة .

ثم قال تعالى (مَا هُمْ بِالْغَافِرِ) يعني أنهم يريدون أن لا يكونوا تحت يدك ولا يصلون إلى هذا المراد ، بل لابد وأن يصيروا تحت أمرك ونهايك ، ثم قال (فَاسْتَعْذُ بِاللَّهِ) أى فالتجيء إليه من كيد من يجادلك (إنه هو السميع) بما يقولون ، أو تقول (ال بصير) بما تعمل ويملون ، فهو يحملك نازن الحكم عليهم ويصونك عن مكره وكيدهم .

واعلم أنه تعالى لما وصف جدالهم في آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثلا ، فقال لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة ، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يقال لما قدر على الأضعف وجوب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد (وثانيها) أن يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله ، وهذا استدلال حق لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله (وثالثها) أن يقال لما قدر على الأقوى الأقدر الأقل الأرذل كان أولى ، وهذا الاستدلال في غاية الصعوبة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ، ثم إن هؤلاء القوم يسلكون أن خلق السموات والأرض هو الله سبحانه وتعالى ، ويملكون بالضرورة أن (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وكان من حقهم أن يقرروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادرًا على إعادة الإنسان الذي خلقه أولا ، فهذا برهان جلي في إفادته هذا المطلوب ، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس ، والمراد منهم الذين ينكرون الخسر والنشر ، فظاهر بهذا المثال أن هؤلاء السκفاف يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة ، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ، ولما بين الله تعالى أن الجدال المفروض بالكبر والحسد والجهل كيف يكون ، وأن الجدال المفروض بالحججة والبرهان كيف يكون ، نبه تعالى على الفرق بين البابتين بذكر المثال فقال (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ) يعني وما يستوي المستدل والجاهل المقلد ، ثم قال (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا مُسْكِنٌ) فالمراد بالأول التفاوت بين العالم والجاهل ، والمراد بالثاني التفاوت بين الآفاق بالأعمال الصالحة وبين الآفاق بالأعمال الفاسدة الباطلة ، ثم قال (قَبْلًا مَا تَنَاهُ كُرُون) يعني أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل ، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسدة ، إلا أنه قبلًا ماتنذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، والتوعي المعين من العمل أنه عمل

وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدُّخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الظَّلَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبِصِّرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنْ تُؤْفَكُونَ ﴿٥﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَعَادِتُ اللَّهَ يَحْمَدُونَ ﴿٦﴾

صالح أو فاسد ، فإن الحسد يعم قلوبهم ، فيعتقدون في الجهل والتقليل أنه محض المعرفة ، وفي الحسد والحق والكبر أنه محض الطاعة ، فهذا هو المراد من قوله ( قليلاً ما تذكرون ) فرأى عاصم وجزة والكساني ( تذكرون ) بالثاء على الخطاب ، أي قل لهم قليلاً ما تذكرون ، والباقيون بالباء على الغيبة . ولما قرر الدليل الدال على إمكان وجود يوم القيمة ، أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها في الوجود فقال ( إن الساعة لآية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ) والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيمة .

قوله تعالى : ﴿٦﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدُّخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ، اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الظَّلَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبِصِّرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنْ تُؤْفَكُونَ ، كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَعَادِتُ اللَّهَ يَحْمَدُونَ ﴿٦﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيمة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيمة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهام ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لا جرم أمر الله تعالى به في هذه الآية فقال ( وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ) وانتهت الناس في المراد بقوله ( ادعوني ) فقيل إنه الأمر بالدعاء ، وقيل إنه الأمر بالعبادة ، بدليل أنه قال بهذه ( إن الذين يستكثرون عن عبادي ) ولو لا أن الأمر بالدعاء أمر بطلقة العبادة لما بقى لقوله ( إن الذين يستكثرون عن عبادي ) معنى ، وأيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله ( إن يدعون من دونه إلا إلائنا ) وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكينة ، فكانه قيل إن تارك الدعاء إنما ترك لأجل أن يستكثر عن أطمأن العبودية ( وأجيب ) عن قوله إن الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، بأن ترك الظاهر لا يصار الفخر الرازي - ج ٢٧ ٦

إليه إلا بدليل منفصل ، فإن قيل كيف قال (أعورن أستجب لكم) وقد يدعى كثيراً فلا يستجاب  
 (أجاب) الكمعي عنه بأن قال : الدعا ، إنما يصح على شرط ، ومن دعا كذلك استجيب له ، وذلك  
 الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعا مصالحة وحكمة ، ثم سأله نفسه فقال : فما هو أصلح يفعله بلا  
 دعا ، فما الفائدة في الدعا . (وأجاب) عنه من وجهين (الأول) أن فيه الفزع والانقطاع إلى الله  
 (والثانى) لئن هذا أيضاً وارد على الكل ، لأنه إن علم أنه يفعله فلا بد وأن يفعله ، فلا فائدة في  
 الدعا ، وإن علم أنه لا يفعله فإنه البة لا يفعله ، فلا فائدة في الدعا ، وكل ما يقولونه هنا فهو  
 جوابنا ، هذا تمام ما ذكره ، وعندى فيه وجه آخر وهو أنه قال (ادعوني أستجب لكم) فكل  
 من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربها وأصدقائه وجده واجتهاده ، فهو في  
 الحقيقة مادعا الله إلا بالاسنان ، أما بالقلب فإنه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله ، فهذا  
 الإنسان ما دعا ربه في وقت ، أما إذا دعا في وقت لا ييقن في القلب التفاتا إلى غير الله ، فالظاهر  
 أنه تحصل الاستجابة ، إذا عرفت هذا فقيه بشارة كاملة ، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما  
 سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت ، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء  
 سوى فضل الله تعالى ، فعلى القانون الذى ذكرناه وجب أن يكون الدعا في ذلك الوقت مقبولاً  
 عند الله ، ونرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا الدعا المقربون بالإخلاص والتضرع في ذلك  
 الوقت ، وأعلم أن الكلام المستচصى في الدعا قد سبق ذكره في سورة البقرة .

ثم قال تعالى (إن الذين يستكرون عن عبادي سيدخلون جهنم داخرين) أي صاغرين وهذا  
 إحسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعا ، فإن قيل روى عن رسول  
 ﷺ أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال «من شغله ذكرى عن مسألنى أعطيته أفضل ما أعطى  
 السائلين » فهذا الخبر يقتضى أن ترك الدعا أفضل ، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعا يرهب  
 الوعيد الشديد ، فكيف الجمع بينهما ؟ فلنا لاشك أن العقل إذا كان مستغرقاً في الثناء كان ذلك أفضلاً  
 من الدعا ، لأن الدعا طلب للحظ والاستغرق في معرفة جلال الله أفضلاً من طلب الحظ ، أما إذا  
 لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعا أولى ، لأن الدعا يشتمل على معرفة عزة الربوبية  
 وذلة العبودية ، ثم قال تعالى (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) وأعلم أن تعاقبه بما قبله  
 من وجهين (الأول) كأنه تعالى قال : إن أنممت عليك قبل طلبك هذه النعم الجليلة العظيمة ،  
 ومن أنم قبل السؤال بهذه النعم العالية تكيف لا ينم بالأشياء القليلة بعد السؤال (والثانى) أنه  
 تعالى لما أمر بالدعا ، فكانه قبل الاشتغال بالدعا لابد وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة ، فما  
 الدليل على وجود الإله القادر ، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وتأثره  
 وحكمته ، وأعلم أنا بينما أن دلائل وجود الله وتأثره ، إما نسكتية ، وما عنصرية ، أما الفلكيات  
 فأقسام كثيرة (أحدتها) تعاقب الليل والنهر ، و[لما] كان أكثر مصالح العالم مبوطاً بما ذكره مما ألم

تعالى في هذا المقام ، وبين أن الحكمة في عزل الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون ، والحكمة في خلق النهار ، لإبصار الأشياء ليحصل مكنته التصرف فيها على الوجه الأتفع ، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فيه من وجهين : (الأول) أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف ، وذلك يوجب التأمل (والثاني) أن الإحسان بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس ، ثم إن تلك الأرواح تحصل بسبب كثرة الحركات فتضيق الأرواح والإحساسات ، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركبت وقوتها وتخلصت عن الإعياء ، وأيضاً الليل بارد طب فهو دتهور طوبه يتدارك أن ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ماحدث من كثرة الحركات ، فهذه هي المنافع المعلومة من قوله تعالى (أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) وأما قوله (والنهار مبصراً) فاعلم أن الإنسان مدفأ بالطبع ، ومنه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في ما كله ومشروب وملبسه ومنظمه ، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة ، وتلك الأعمال تصرفات في أمور ، وهذه التصرفات لا تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين مالا يوافقه ، وهذا هو الحكم في قوله (والنهار مبصراً) فإن قبل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتصروا فيه ، أو بجعل لكم الليل ساكناً ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا فيه ، وقال في النهار مبصراً فما الفائدة فيه ؟ وأيضاً فما الحكم في تقديم ذكر الليل على ذكر النهار أشرف من الليل ؟ قلنا : أما الجواب عن (الأول) فهو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعية عدمية فهو غير مقصود بالذات ، أما البقية فأمور وجودية وهي مقصودة بالذات ، وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما ، فهذا هو السبب في هذا الفرق والله أعلم ، وأما الجواب عن (الثاني) فهو أن الظلة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود ، وهذا السبب قال في أول سورة الأنعام (وجعل الظلامات والنور).

واعلم أنه تعالى لما ذكر مافي الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشکرون) والمراد أن فضل الله على الخلق كثيراً جداً ولكنهم لا يشکرونها ، واعلم أن ترك الشكر لوجهه : (أحدما) أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى مثل أن يعتقد أن هذه الأخلاق واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها ، فحيثنى هذا الرجل لا يعتقد أن هذه النعم من الله (وثانية) أن الرجل وإن اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخلص الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة ، أعني نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيباً الإنسان ، فإذا ابتدى الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلة في آبار عبقة مظلمة مديدة ، فحيثنى يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ  
وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الْحَمْدُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُحْلِّصِينَ لِهِ الَّذِينَ أَحْمَدُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي  
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمْرَتُ  
أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ  
عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفَالًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّ كُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ

الهوا الصافى وقدر نعمة الضوء، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أسر أقواماً حتى يمنعونه عن الإستناد إلى الجدار وعن النوم ففطم وقع هذا التعذيب (وَثَالِثًا) لأن الرجل وإن كان عارفاً بموافق هذه النعم إلا أنه يكون حريصاً على الدنيا عجباً للمال والجاه، فإذا قاتله المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة، ولما كان أكثر الخلق مالكين في أحد هذه الأودية الثلاثة التي ذكرناها، لاجرم قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ونظيره قوله تعالى (وفيل من عبادي الشكور) وقول إبليس (ولا تحمد أكثرهم شاكرين) ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال (ذلك الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) قال صاحب الكشاف ذلك المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد (هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) أخبار متراوحة أى هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوية وخلق كل شيء وأنه لا ثالث له (فإن توفكـونـ والمرادـ فـأنـ تـصرفـونـ ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتسكذبون بها ، ثم قال تعالى ( كذلك يوفـكـ الذينـ كانواـ باـياتـ اللهـ يـجـحدـونـ) يعني أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفكـ كـاـ أـفـكـواـ .

**يَتَوَفَّ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسْمَى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾**

علة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم تكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلًا مسمى ولعلمكم تعقلون .

اعلم أنا بينما أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق أو من باب دلائل الأنفس ، أما دلائل الآفاق فالمراد كل ما هو غير الإنسان من كل هذا العالم وهي أنواع كثيرة ، والمذكور منها في هذه الآية أنواع منها أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره ( وثانية ) الأرض والسماء وهو المراد من قوله ( الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء ) قال ابن عباس في قوله ( قراراً ) أي منزل في حال الحياة وبعد الموت ( والسماء بناء ) كالقبة المضروبة على الأرض ، وقيل مسلك الأرض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها ( والسماء بناء ) أي قائمًا ثابتًا وإلا لوقعت علينا ، وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم ، والمذكور منها في هذه الآية قسمان ( أحدهما ) ما هو حاصل مشاهد حال كمال حاله ( و الثاني ) ما كان حاصلًا في ابتداء خلقه وتكوينه .

(أما القسم الأول) فأنواع كثيرة والمذكور منها في هذه الآية أنواع ثلاثة ( أو لها ) حدوث صورته وهو المراد من قوله ( وصوركم ) ( وثانية ) حسن صورته وهو المراد من قوله ( فأحسن صوركم ) ، ( وثالثها ) أنه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله ( ورزقكم من الطيبات ) وقد أطينا في تفسير هذه الأشياء في هذا الكتاب مراراً لاسيما في تفسير قوله تعالى ( ولقد كرمنا بني آدم ) ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الأنفس قال : ( ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين ) وتفسيره تبارك إما الدوام والثبات وإما كثرة الخيرات ، ثم قال ( هو الحق لا إله إلا هو ) وهذا يفيد الحصر وأن لا حق إلا هو ، فوجب أن يحمل ذلك على الحق الذي يمتنع أن يموت امتناعاً ذاتياً وحيث أنه لا حق إلا هو فكان أنه أجرى الشيء الذي يجوز ذواله بغير المعدوم .

واعلم أن الحق عبارة عن الدراك الفعال والدراك إشارة إلى العلم التام ، والفعال إشارة إلى القدرة الكاملة ، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال به على الصفة الثالثة وهي : الوحدانية بقوله لا إله إلا هو ، ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشئين ( أحدهما ) بالدعاء ( و الثاني ) بالإخلاص فيه ، قال ( فادعوه مخلصين له الدين ) ثم قال ( الحمد لله رب العالمين ) فيجوز أن يكون المراد قول ( الحمد لله رب العالمين ) ويجوز أن يكون المراد أنه لما كان موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له ( الحمد لله رب العالمين ) ولما بين صفات الجلال والعظمة قال ( قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ) فأورد ذلك على المشركين بأبين

قول ليصر فهم عن عبادة الأوثان ، وبين أن وجه النهى في ذلك ماجاهه من البيانات ، وتلك البيانات أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره ، وصربيع العقل يشهد بأن العبادة لاتليق إلا به ، وأن جعل الأحجار المنحوة والخشب المchorة شركاً له في العبودية مستنكر في بدئية العقل .

ولما بين أنه أمر بعبادة الله تعالى فقال ( وأمرت أن أسلم لرب العالمين ) وإنما ذكر هذه الأحكام في حق نفسه لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه في غاية العقل وكمال الجواهر ، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل ، فإذا ذكر أن صلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ماسواه ، ثم قال ( هو الذي خلقكم من تراب ) .

واعلم أنا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والأنسن ، أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها في هذه الآية أربعة : الليل والنهار والأرض والسماء ، وأما دلائل الأنسن فقد ذكرنا أنها على قسمين ( أحدهما ) الأحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهي أنواع كثيرة ، والمذكور هنا منها ثلاثة أنواع : الصورة وحسن الصورة ورذق الطيارات .

( وأما القسم الثاني ) وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنيناً إلى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكور في هذه الآية فقال ( هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ) فقيل المراد آدم ، وعندي لاحاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطempt ، والمني مخلوق من الدم فالإنسان مخلوق من الدم والدم إنما يتولد من الأغذية والأغذية إنما حيوانية وإنما نباتية ، والحال في تكون ذلك الحيوان ك الحال في تكون الإنسان ، فالاغذية يأسراها متنية إلى النباتية والنبات إنما يكون من التراب والماء ، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب ، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة بعد كونه علقة مرأة كبيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم ، فالمقدمة ترک ذكرها هنا لأجل أنه تعالى ذكرها في سائر الآيات .

واعلم تعالى رتب عمر الإنسان على ثلاث مراتب ( أو لها ) كونه طفلاً ، وثانية أن يبلغ أشدده ، وثالثها الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل ، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون في القزاز والنشوء والثاء وهو المسني بالطفولية ( والمرتبة الثانية ) أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف ، وهذه المرتبة هي المراد من قوله ( لتبلغوا أشدكم ) ( والمرتبة الثالثة ) أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والتقص ، وهذه المرتبة هي المراد من قوله ( ثم لتكونوا شيوخاً ) وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لازيد على هذه الثلاثة ، قال صاحب الكشاف : قوله ( لتبلغوا أشدكم ) متعلق بفعل مخدوف تقديره ثم يقيمه لتبلغوا .

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَمُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٩﴾  
 اللَّهُ تَرَأَى إِلَى الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي إِيمَانِهِ أَنَّهُ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
 بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رَسُولَنَا فَسَوْقَ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ إِذَا أَلْأَغْلَلُ فِي

ثم قال (ومنكم من يتوفى من قبل) أي من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً .  
 ثم قال (ولتلغروا أجيلاً مسمى) و معناه يفعل ذلك لتبلغوا أجيلاً مسمى وهو وقت الموت وقبل يوم القيمة .

ثم قال (ولعلكم تقللون) ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع المبر وأقسام الدلائل .  
 قوله تعالى ( هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ) .  
 أعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه تراباً إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علة ثم إلى كونه طفلاً ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال  
 بعده ( وهو الذي يحيي ويميت ) يعني كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر وقوله ( فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ) فيه وجوه ( الأول ) معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم تتعجب في ذلك التصرف ولم ينجح إلى آلة وأداة ، فعبر عن فنادق قدرته في الكائنات والمحنات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال ( كن فيكون ) ( الوجه الثاني ) أنه عبر عن الإعجاذه والإماتة بقول ( كن فيكون ) فكانه قبل الانتقال من كونه تراباً إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه علة انتقالات تحصل على التدرج قليلاً قليلاً ، وأما صيرور الحياة ففي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطفية به ، وذلك يحدث دفعة واحدة ، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله ( كن فيكون ) ( الوجه الثالث ) أن من الناس من يقول إن تكون الإنسان إنما يعتقد من المني والمدم في الرحم في مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات ، فكانه قبل ل أنه يتمتع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ، لأن الله أسل محال ، ووقوع الحادث في الأزل محال ، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس ، خلقتذ يكرون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والمدم ، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء ، فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله ( كن فيكون ) .

قوله تعالى : ﴿٢٢﴾ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أني يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسالنا فسوق يعلمون ، إذ الأغلال في أنفاسهم والسلال يسبعون ، في الخيم ثم في

أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَسِلُ يُسْجِبُونَ ٦٧١ فِي الْحَمِيمِ هُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ٦٧٢ ثُمَّ قِيلَ  
 لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ شَرِكُونَ ٦٧٣ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلَّاً عَنَّا بَلْ لَرَنَّ كُنْ نَدْعُوكُمْ مِنْ  
 قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضْلَلُ اللَّهُ أَلَّا كَفِيرِينَ ٦٧٤ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ  
 فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الْحَقَّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ٦٧٥ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا  
 فَتَنَسَّ مَثَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٦٧٦

النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله قالوا ضلوا عننا بل لم نكن ندعوا  
 من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم  
 تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها غليس مثوى المتكبرين .

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال : ( ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات  
 الله ألم يصررون ) وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودفعها والتکذیب بها ، فعجب  
 تعالى منهم بقوله ( ألم يصررون ) كما يقول الرجل ملن لا يبين : ألم يذهب بك تعجبأ من غفلته ،  
 ثم بين أنهم هم ( الذين كذبوا بالكتاب ) ألم بالقرآن ( وبما أرسلنا به رسالتنا ) من سائر الكتب ،  
 فإن قيل سوف للاستقبال ، وإذ للهاضمي قوله ( فسوف يعلوون ، إذ الأغلال في أعناقهم ) مثل  
 قوله : سوف أصوم أمس ، فلنا المراد من قوله ( إذ ) هو إذا ، لأن الأمور المستقبلة لما كانت  
 في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجود ، والمعنى على الاستقبال ، هذا  
 لفظ صاحب الكشاف :

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم قالـ ( إذ الأغلال في أعناقهم والسلالس يسجبون ، بني  
 الحميم ) والمعنى : أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلالس ، ثم يسجبون بذلك السلاسل في الحميم ،  
 ألم في الماء الساخن بنار جهنم ( ثم في النار يسجرون ) والسجر في اللغة الإيقاد في التور ، ومعناه  
 أنهم في النار فهي محطة لهم ، ويقرب منه قوله تعالى ( نار الله الموقدة التي تطلع على الأقنانة ) ( ثم  
 قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ) فيقولون ( ضلوا عننا ) ألم غابوا عن حيوننا فلا زمام  
 ولا تستشعـ بهم ، ثم قالوا ( بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ) ألم بين لهم أنهم لم يكونوا شيئاً ،  
 وما كانوا نعبد بعبادتهم شيئاً ، كاتقول حسبت أن فلاناً شيء ، فإذا هو ليس بشيء ، إذا جربته فلم  
 تجده عنده خيراً ، ويجوز أيضاً أن يقال إنهم كذبوا وأنكرروا أنهم عبدوا غير الله ، كما أخبر الله

فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَإِمَّا نُرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوَفِّيْنَكَ فَإِلَيْنَا<sup>١٧٦</sup>  
يُرْجَعُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ  
نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيْ بِغَايَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ  
فُضِّلَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطَلُونَ <sup>١٧٧</sup>

تعالى عنهم في سورة الأنعام أئمهم قالوا ( والله ربنا ما كنا مشركين ) ثم قال تعالى ( كذلك يضل الله الكافرين ) قال القاضي : معناه أنه يضلهم عن طريق الجنة ، إذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الجنة إذ قد هدام في الدنيا إليها ، وقال صاحب الكشاف ( كذلك يضل الله الكافرين ) مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى أنهم لو طلبوا الآلة أو طلبتهم الآلة لم يجد أحد مما الآخر ، ثم قال ( ذلك بما كنتم تفرحون في الأرض ) أي ذلك الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق ، وهو الشرك وعبادة الأصنام ( ادخلوا أبواب جهنم ) السبعة المقسمة لكم ، قال الله تعالى ( لما سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقصوم ) ، ( خالدين فيها فتنس مثوى المتكبرين ) والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ( إن في صدور إلا كبر ) . قوله تعالى : **فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَإِمَّا نُرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوَفِّيْنَكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ، ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان رسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنا لك المطلوب .

اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله ، أمر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على لزيائهم وإياهم بتلك المجادلات ، ثم قال ( إن وعد الله حق ) وعني به ما وعد به الرسول من نصرته ، ومن إزالة العذاب على أعدائه ، ثم قال ( إِمَّا نُرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوَفِّيْنَكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ) قبل إزالة العذاب عليهم ( فإذا يرجعون ) يوم القيمة فنتقم منهم أشد الانتقام ، ونظيره قوله تعالى ( إِمَّا نَذَهَبْنَا بِكَ إِنَّا مِنْهُمْ مُّتَّقِمُونَ ، أَوْ نُرِينَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ) .

ثم قال تعالى ( ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ) والمعنى أنه قال لحمد صل الله عليه وسلم : أنت كالرسل من قبلك ، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الآتين ، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها وكتبوه فيها وجرى عليهم من لهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا ، وكانوا أبدا يقتربون على الآتنيا ، إظهار المعجزات الرائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنّت ، ثم إن الله تعالى لما علم أن الصلاح

أَلَّهُ أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَمَ لِتَرْكُبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُمْ  
فِيهَا مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ ﴿٧﴾  
وَرِيمُكُمْ ءَايَتِهِ فَإِنَّمَا يَأْتِي أَيَّتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨﴾

في إظهار ما أظهره ، والإلم بظاهره ولم يكن ذلك قادحاً في نبوتهم ، فكذلك الحال في اقتراح قومك  
عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلحاً ، لاجرم ما أظهرناها ، وهذا هو المراد من قوله  
(وما كان رسول أن يأن بيأة إلا بإذن الله) ثم قال (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق) وهذا وعيده  
ورد عجيب اقتراح الآيات (وأمر الله) القيامة (والبطلون) هـ المعاندون الذين يجادلون في آيات  
الله . ويقررون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سهل التغتـ .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَمَ لِتَرْكُبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ ، وَرِيمُكُمْ ءَايَاتِهِ فَإِنَّمَا يَأْتِي أَيَّاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ .  
اعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم الرحيم ،  
وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعاماً على العباد ، قال الزجاج الأنعام الإبل خاصة ، وقال القاضي هي  
الأزواج الثمانية ، وفي الآية سؤالات :

(السؤال الأول) أنه لم يدخل لام الفرض على قوله (تركبوا) وعلى قوله (تبلغوا)  
وم يدخل على الباقي فما السبب فيه ؟ (المواب) قال صاحب الكشاف الركوب في المحب والذرو  
إماماً يكون واجباً أو مندوباً ، فهذا القسمان أغراض دينية فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل ،  
وأما الأكل وإصابة المنافع فـ من جنس المباحات ، فلا جرم ما دخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله  
تعالى (والخيل والبغال والخير لتركبوا وزينة) فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة .  
(السؤال الثاني) قوله تعالى (وعليها وعلى الفلك تحملون) معناه تحملون في البر والبحر ؟

إذا عرفت هذا فتقول : لم يقل وفي الفلك كما قال قلنا أصل فيها من كل زوجين اثنين (والمواب)  
أن كلمة على للاستعلا . فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وضع به يصح أن يقال  
وضع عليه ، ولما صبح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد في قوله (وعليها وعلى الفلك  
تحملون) ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال (وبيكم آياته فأى آيات الله تنكرون) يعني  
أن هذه الآيات التي عدناها كلها ظاهرة باهرة ، قوله (فأى آيات الله تنكرون) تبيه على أنه ليس  
في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها يمكن إنكاره ، قال صاحب الكشاف قوله (فأى آيات الله)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا  
أَكْثَرُهُمْ وَأَشَدُهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ قَاتِلُونَ مَا كَانُوا يَعْسِبُونَ ﴿٨٧﴾  
فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا قَالُوا إِنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا نَحْنُ بِهِ  
مُشْرِكُينَ ﴿٨٩﴾ فَلَمْ يُكَيِّنْفُعُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سُنْتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي  
عَبَادَهِ وَخَسَرَ هُنَالِكَ الْكُفَّارُونَ ﴿٩٠﴾

جاء على الله المستفيضة ، وقولك : فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤذن في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحارة غريب ، وهي في أي أغرب لإيهامه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُهُمْ وَأَشَدُ قُوَّةً وَآتَاهُمْ فَإِنْ أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عَنْهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَلَمَّا رأُوا بِأَيْمَانِهِمْ مَا رأُوا بِأَيْمَانِنَا قَالُوا آتَنَا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرُنَا بِمَا كَنَا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رأُوا بِأَيْمَانِنَا سَنَةً أَنَّهُ الَّتِي قَدْ دَخَلَتْ فِي عِبَادَهُ وَخَسِرَ هَنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۚ .﴾

اعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً في آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أرده بفصل في التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبير العظيم في صدورهم بهذا ، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدّم على النير في المال والجاه ، فمن ترك الإنقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فيين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ، لأن الدنيا فانية ذاتية ، واحتاج عليه بقوله تعالى (أفلم يسيراً وافى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتعددين ، ليست إلا الملاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً وأمراً وجاماً من هؤلاء المتأخرین ، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة المظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار ، والمحسرة والبوار ، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين ، أما بيان أنهم كانوا أكثر كفر من

هؤلاً عدداً فإنما يعرف في الأخبار ، وأما أنهم كانوا أشد قوة وأثراً في الأرض ، فلأنه قد بقيت آثارهم بمحضهن عظيمة بعدم ، مثل الأهرام الموجودة بمصر ، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناما الملوك المتقدمون ، ومثل ماحكى الله عنهم من أنهم كانوا يتحتون من الجبال يوماً .

ثم قال تعالى (فَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ما في قوله (فَا أَغْنَى عَنْهُمْ) نافية أو مضمنة معنى الاستفهام وحملها النصب ، وما في قوله (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) موصولة أو مصدوية وحملها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم مكسبهم أو كسبهم .

ثم بين تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسالاتهم بالبيانات والمعجزات فرحاوا بما عدم من العلم ، واعلم أن الضمير في قوله (فرحوا) يحتمل أن يكون عائدًا إلى الكفار ، وأن يكون عائدًا إلى الرسل ، أما إذا قلنا إنه عائد إلى الكفار ، فذلك العلم الذي فرحاوا به أى علم كان ؟ وفيه وجوه (الأول) أن يكون المراد الأشياء التي كانوا يسمونها بالعلم ، وهي الشبهات التي حكاهما الله عزهم في القرآن كقولهم (وَمَا بَهْلَكَنَا إِلَّا الدهر) وقولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا) وقولهم (من يحيي العظام وهي رميم) ، (ولئن ردت إلى ربنا لاجدن خيراً منها من قبلنا) وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء ، كما قال (كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرَحُونَ) ، (الثانى) يحرز أن يكون المراد علوم الفلسفه ، فإنهما كانوا إذا سمعوا بوعي الله دفعوه وصوروه علم الأنبياء إلى علومهم ، وعن سقراط أنه سمع بعجي بعض الأنبياء فقيل له لو هاجررت إليه فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا (الثالث) يجوز أن يكون المراد عليهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدييرها ، كما قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمِنَ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ، ذَلِكَ مُلْعِنُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ) فلما جاءهم الرسل بعلوم الدينات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يتلفتوا إليها واستهزروا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أفع وأجلب للفوائدهم عليهم ، ففرحوا به . أما إذا قلنا الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان (الأول) أن يجعل الفرج للرسل ، ومنه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلاً كاملاً ، وإعراضًا عن الحق وعلوا سوء طلاقتهم وما يتحققهم من المقوبة على جهلهم وإعراضهم ، فرحاوا بما أدرتاهم من العلم وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (الثانى) أن يكون المراد فرحاً بما عند الرسل من العلم فرح ضمحل منه واستهزاء به ، كأنه قال استهزروا بالبيانات ، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحاً ، ويدل عليه قوله تعالى (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ) .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسْنَا قَالُوا آتَنَا بَاقِهِ وَهُدًى وَكَفَرُنَا بِمَا كَانَ بِهِ مُشَرِّكُنَا بِهِ الْأَبْرَارُ﴾ شدة العذاب ومنه قوله تعالى (بعذاب بيسيس) فإن قبل أي فرق بين قوله (فلم ينكهم ليهانهم) وبين ما لو قيل فلم ينكهم ليهانهم ؟ قلنا هو مثل كان في نحو قوله (ما كان الله أن يستخذ من ولد) والمعنى فلم يصح ولم يستقيم أن ينكهم ليهانهم ، فإن قيل اذكرو اصحابها في الوقت الذي لا ينفع الإيتان

بالإيمان فيه ، فلنا إنـه الوقت الذي يمـاين فيه نزول مـلائكة الرحمة والـعذاب ، لأنـ في ذلك الوقت يـصـير المرء مـلـجاً إـلـى الإـيمـان فـذـلك الإـيمـان لا يـنـفع إـلـيـما يـنـفع معـ الـقـدرـة عـلـى خـلـافـه ، حتىـ يكونـ المرء مـخـتـارـاً ، أـمـا إـذـا عـاـيـنـوا عـلـامـاتـ الـآخـرـة فـلـاـ .

ثمـ قالـ تعالـى (سـنة اللهـ الـتـى قـدـ خـلـتـ فـعـبـادـهـ) وـالـعـنـىـ أنـ دـعـمـ قـبـولـ الإـيمـانـ حـالـ الـيـأسـ سـنةـ اللهـ مـطـرـدـةـ فـكـلـ الـأـمـ .

ثمـ قالـ (وـخـسـرـ هـنـالـكـ الـكـافـرـونـ) فـقولـهـ (هـنـالـكـ) مـسـتعـارـ لـزـمـانـ أـىـ وـخـبـوـرـاـ وـقـتـ رـؤـبةـ الـيـأسـ ، وـاقـهـ الـهـادـىـ لـالـصـوابـ .

تمـ تـفـسـيرـ هـذـهـ السـوـرـةـ يـوـمـ السـبـتـ الثـانـىـ مـنـ ذـىـ الـحـجـةـ مـنـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـسـتـمـائـةـ مـنـ الـهـجـرـةـ فـبـلـدـةـ هـرـاـ .

يـاـ مـنـ لـاـ يـلـغـ أـدـنـىـ مـاـ سـأـثـرـتـ بـهـ مـنـ جـلـالـكـ وـعـزـتـكـ أـقـصـىـ نـعـوتـ النـاعـتـينـ ، يـاـ مـنـ تـقـاـصـرـتـ عـنـ الإـحـاطـةـ بـمـبـادـىـ أـسـرـارـ كـبـرـيـاـنـهـ أـفـهـامـ الـتـفـكـرـيـنـ ، وـأـنـظـارـ الـمـتأـمـلـيـنـ . لـاـ تـجـعـلـنـا بـفـضـلـكـ وـرـحـنـكـ فـزـرـةـ الـخـاسـرـيـنـ الـمـبـطـلـيـنـ . وـلـاـ تـجـعـلـنـا يـوـمـ الـقـيـامـةـ مـنـ الـخـرـومـيـنـ ، فـإـنـكـ أـكـرمـ الـأـكـرـمـيـنـ ، وـأـرـحـمـ الـرـاحـمـيـنـ .

وـالـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ ، صـلـوـاتـ اـلـهـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ النـبـيـ وـآلـهـ وـحـبـهـ أـجـمـيـنـ .

(٤) سُكُّرٌ لِّفُصْلَاتٍ مَّكِيَّةٍ  
وَآيَاتٍ هَا نَجَعَ وَخَسِنَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الْرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَتَبَ فُصْلَاتٍ أَيَّسْتُهُ  
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا  
يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا تَدْعُنَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقَرَوْنَ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلْنَاهُ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُ يُوحَنَ إِلَيَّ  
أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ  
لَا يُؤْتُونَ الْزَّكَوةَ وَهُمْ بِالْأَنْسِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَنْتَهٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيرًا ونذيرًا فأعرضوا أكثراً منهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنةٍ ما تدعونا إليها وفي آذاننا وقر ون بنينا وبينك حجاب فاعمل إنا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الحكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للشراكين ، الذين لا يؤمنون بالزكاة وهم بالأخرمة كافرون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير منون .

اعلم أن في أول هذه السورة اختيارات (أحدها) وهو الأقوى أن يقال حم اسم للسورة وهو في وضع المبدأ وتنزيل خبره ، (وثانية) قال الأخشن : تنزيل رفع بالإبتداء وكتاب خبره ، (وثالثاً) قال الزجاج : تنزيل رفع بالإبتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه أن قوله (تنزيل)

تخصص بالصفة وهو قوله (من الرحمن الرحيم) بخاز وقوعه مبتدأ .

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بضم بأشياه (أولها) كونه تنزللا والمراد المنزل والتعبير عن المفهوم بالمصدر بمحاز مشهور ، يقال هذا بناه الأمير أى مبنيه ، وهذا الدرم ضرب السلطان أى مضربيه ، والمراد من كونها منزلة أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه ويلغها إليه ، فلما حصل تفهم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزللا (وثانيةها) كون ذلك التنزل من الرحمن الرحيم ، وذلك يدل على كون ذلك التنزل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المفروض بالصفة لابد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحاناً رحيم صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالنزل المعنافي إلى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة ، والأمر في نفسه كذلك ، لأن الخلق في هذا العالم كالمرضي وال زمني والحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاب من الأغذية ، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إزال القرآن عليهم (وثانيةها) كونه كتاباً وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمجم وإنما سمى كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين (وابعها) قوله (فصلت آياته) والمراد أنه فرق آياته وجعلت تفاصيل في معان مختلفة في بعضها في وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التزييه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وبمحاذيب أحوال خلقة السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وبمحاذيب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وبعضها في أحوال النكاليف المترجمة نحو القلوب ونحو الجوارح ، وبعضها في الوعد والوعيد والثواب والعقاب درجات أهل الجنة ودرجات أهل النار ، وبعضها في المراءين والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتوارييخ الماضين ، وباجملة فن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والباحث المتباينة مثل ماف القرآن (وخاتمتها) قوله (قرآننا) والوجه في تسميته قرآننا قد سبق و قوله تعالى (قرآننا) نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآننا من صفتة كيت وكيت ، وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله (عربياً) والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (سابعها) قوله تعالى (لقوم يعلمون) والمعنى أما جعلناه عربياً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب بعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد ، فإن قيل قوله (لقوم يعلمون) متعلق بماذا ؟ فلتباين يجوز أن يتعلق بقوله (تنزيل) أو بقوله (فصلت) أى تنزل من الله لا جلهم أو فصلت آياته لا جلهم ، والأرجو أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآننا عربياً كأننا لقوم عرب ، لشلة يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وناسعاها) قوله (بشيراً ونذيراً) يعني بشيراً للطيعين بالثواب ونذيراً لل مجرمين

بالعقاب ، والحق أن القرآن يشارىء وتنذرة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتبنيه على كونه كاملاً في هذه الصفة ، كما يقال شعر شاعر وكلام قائل .

{الصفة العاشرة} كونهم معرضين عنه لا يسمون ولا ينتون إليه ، وهذه هي الصفات العشرة التي وصف الله القرآن بها ، ويترفع عليها مسائل :

{المسألة الأولى} القائلون بخنق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أنه وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً والتنزيل مشعر بالتصير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقاً (الثاني) أن التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحو بين (الثالث) المراد بالسكنائية إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق أو المكتوب الذي هو المفعول (الرابع) أن قوله (فصلت) يدل على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل فالتفسير ، وذلك لا يليق بالقدم (الخامس) أنه إنما سمى قرآناً لأن قرن بعض أجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل وبجهول جاعل (السادس) وصفه بكونه عريباً ، وإنما حصلت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب وأصطلاحاتهم ، وما جعل بجهول جاعل فعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثاً ومخلوقاً (المحراب) أن كل هذه الوجوه التي ذكرت ثورها عائنة إلى اللفاظ وإلى المروف والكلمات ، وهي عندنا محدثة مخلوقة ، إنما الذى ندعى قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ والله أعلم .

{المسألة الثانية} ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعانى التي هي موضوعة لما يحسب اللغة العربية ، فأما حملها على معانٍ آخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعاً ، وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن ، مثل أنهم تارة يحملون المروف على حساب الجلل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر ، وللصوفية طرق كثيرة في الباب ويسعونها علم المكاشفة والذى يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى (قرآننا عريباً) وإنما سباه عريباً لكونه دالاً على هذه المعانى المخصوصة بوضع العرب وأصطلاحاتهم ، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعانى المخصوصة ، وأن ما سواه فهو باطل .

{المسألة الثالثة} ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من صفات اللغات كقوله (استبرق) و (سيجيل) فإنها فارسيان ، وقوله (مشكاة) فإنها من لغة الحبشة وقوله (قسطاس) فإنه من لغة الروم والذى يدل على فساد هذا المذهب قوله (قرآننا عريباً) ، وقوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) .

{المسألة الرابعة} قالت المعتزلة لفظ الإيمان والكفر والصلة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية ، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى ، وعندنا أن هذا باطل ، وليس للشرع تصرف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا

من وجه واحد ، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلاً ، الإيمان عبارة عن التصديق خصصه الشرع بنوع معين من التصديق ، والصلة عبارة عن الدعاء خصصه الشرع بنوع معين من الدعاء ، كذا القول في البراق ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى (قرآنًا عربياً ) ، وقوله ( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إنما وصف الله القرآن بكونه ( عربياً ) في معرض المدح والتقطيم وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات .

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أنواع فضائل اللغات بضوابط معلوم ، ثم بياناً أن تلك الأقسام حاصلة فيه لافي غيره ، فنقول لاشك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة ، وهي مركبة من الحروف ، فالكلمة لها مادة وهي الحروف ، ولها صورة وهي تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب . وهذه الفضيلة إنما تتحقق إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها ، أما التي بحسب مادتها فهي آحاد الحروف ، واعلم أن الحروف على قسمين بعضها ينتمي الخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية الخارج مشتبهة المقاطع ، وحروف العرب بأسرها ظاهرة الخارج ينتمي المقاطع ، ولا يشتبه شيء منها بالآخر . وأما الحروف المستعملة في سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض ، وذلك يحمل بكل الفصاحة ، وأيضاً الحركات المستعملة في سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهي النصب والرفع والجر ، وكل واحد من هذه الثلاثة فإنه يمتاز عن غيره امتيازاً ظاهراً جلياً ، وأما الإشام والروم فيقل حصولهما في لغات العرب ، وذلك أيضاً من جنس ما يوجب الفصاحة ، وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهي أنواع :

(أحدما) أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج ، وأيضاً الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة ، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلة المتقاربة ، والرخوة المتقاربة ، والصلة المتباعدة ، والرخوة المتباعدة ، فإذا توالي في الكلمة حرفاً كان صلباً متقارباً صعب اللفظ بها ، لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جارياً مجرى ما إذا كان الإنسان مقيداً ثم يمشي ، وبسبب صلابة تلك الحروف توارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج ، وتتوالى الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء ، ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل ( ونائتها ) أن جنس بعض الحروف أذن وأطيب في السمع ، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب ( ونائتها ) الوزن فنقول : الكلمة إنما تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ، وأعد لها هو الثلاثي لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة ، والحركة لا بد لها من مبدأ ووسط ونهاي ، وهذه ثلاثة مراتب ، فالكلمة لا بد أن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة ، أما الثنائية فهي ناقصة وأما الرابعة فهي زائدة ، والغائب في كلام العرب الثلاثيات ، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات ، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها ، وأما سائر اللغات فليست كذلك ، والله أعلم .

﴿المسألة السادسة﴾ قوله (لقوم يعلمون) يعني إنما جعلناه (عربياً) لأجل أن يعلموا الرجال منه ، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالصالح والحكم ، تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أنه إنما جعله (عربياً) لهذه الحكمة ، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز .

﴿المسألة السابعة﴾ قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه ما لا يعلم ، وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم ، والدليل عليه قوله تعالى (قرآننا عربياً لقوم يعلمون) يعني إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً ، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه .

﴿المسألة الثامنة﴾ قوله تعالى ( فأعرضوا كثيرون لهم لا يسمعون ) يدل على أن المادى من هداه الله وأن الضال من أضل الله وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه ، لأننا بينما أن كونه نازلاً من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتغاله على أفضل المنافع وأجل المطالب ، وكونه (قرآننا عربياً) مفصلاً يدل على أنه في غاية الكشف والبيان ، وكونه ( بشيراً ونذيراً ) يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهام ، لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهام ، وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به ، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم ، وذلك يدل على أنه لامهدى إلا من هداه الله ، ولا ضال إلا من أضل الله .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمونه ، بين أنهم صرحو بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء (أحددها) أنهم قالوا (نلوينا في أكثرة مما تدعونا إليه) وأكثرة جمع كنان كاغطية جمع غطاء ، والكنان هو الذي يجمع كل في السهام (وثانيها) قوله (وغلهم) (وفي آذانا وقر) أي حمم ونقل يمنع من استماع قوله (وثالثها) قوله ( ومن يبتنا وبينك حجاب ) والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة (من) في قوله ( ومن يبتنا ) أنه لو قيل : وبينك وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجاباً حصل وسط الجمرين ، وأما بزيادة لفظ (من) كان المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتداً منك ، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب ، وما بقي جزء منها فارغاً عن هذا الحجاب فكانت هذه الكلفة دالة على قوة هذا الحجاب ، هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو في غاية الحسن .

واعلم أنه إنما وقع الاختصار على هذه الأعضاء الثلاثة ، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر مما الآلات المعيّنات لتحصيل المعرفة ، فلما بين أن هذه الثلاثة محبوبة كان ذلك أنصى ما يمكن في هذا الباب .

واعلم أنه إذا تأكّدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب فإذا سمع منه كلاماً لم يفهم معناه كما ينبغي ، وإذا رأه لم تصر تلك الرؤية بسبباً للوقف على دقائق أحوالك ذلك

المرني ، وذلك المدرك والشاعر هو النفس ، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء ، فإذا كان الأمر كذلك كان قوله ( قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ) وفي آذانا وقر و من يبتنا وبينك حجاب ) استعارات كاملة في إفاده المعنى المراد ، فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم ، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم ؟ قال ( وقالوا قلوبنا غافل بل لعنهم الله بکفرهم ) .

ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والإثبات في سورة الأنعام فقال ( وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرآ ) فكيف أجمع بينهما ؟ فلتأن أنه لم يقل هنـا أئـمـهـ كـذـبـواـ فـيـ ذـلـكـ إـنـماـ الـذـيـ ذـمـهـ عـلـيـهـ أـئـمـهـ قـالـواـ : إـنـاـ إـذـاـ كـنـاـ كـذـلـكـ لـمـ يـحـزـ تـكـلـيفـنـاـ وـتـوـجـيهـ الـأـمـرـ وـالـنـيـ عـلـيـنـاـ ، وـهـذـاـ الثـانـ باـطـلـ ، أـمـاـ الـأـوـلـ فـلـأـنـهـ لـيـسـ فـيـ الـآـيـةـ مـاـ يـبـدـلـ عـلـيـهـ أـئـمـهـ كـذـبـواـ فـيـهـ .

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا ( فاعمل إتنا عاملون ) والمراد فاعمل على دينك إتنا عاملون على ديننا ، ويجوز أن يكون المراد فاعمل في إبطال أمرنا إتنا عاملون في إبطال أمرك ، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبوا في قوله ( قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ) ، وفي آذانا وقر و من يبتنا وبينك حجاب ) بل إنما أنوـا بالـكـفـرـ وـالـكـلـامـ الـبـاطـلـ فـيـ قـوـلـهـ ( فـاعـلـ إـنـاـ عـاـمـلـوـنـ ) .

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمدأ صلي الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله ( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ) وبيان هذا الجواب بأنه يقول إن لا أقدر أن أحلكم على الإيمان جبراً وقراً فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا مجرد أن الله عز وجل أوحى إلى وما أوحى إليكم فأنا أبلغ هذا الوحي إليكم ، ثم بعد ذلك إن شرفكم أهله بالتوحيد والتوفيق قبلتهموه وإن خذلكم بالحرمان رددتموه ، وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي ، ثم بين أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرتين : العلم والعمل ، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله ( إنما أحلكم الله واحد ) وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجوب علينا أن نعرف به ، وهو المراد من قوله ( فاستقيموا إليه ) ونظيره قوله ( اهدنا الصراط المستقيم ) وقوله ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ) وقوله تعالى ( وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ) وفي قوله تعالى ( فاستقيموا إليه ) وجهان ( الأول ) فاستقيموا متوجهين إليه ( الثاني ) أن يكون قوله ( فاستقيموا إليه ) معناه فاستقيموا له لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض .

واعلم أن التكليف له ركنان ( أحدـهـ ) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد ، فلتـأـسـ بـذـلـكـ اـتـقـلـ إـلـىـ وـظـيـفـةـ الـعـنـلـ وـالـرـأـسـ وـالـرـئـيـسـ فـيـهـ الـاسـتـغـفـارـ ، فـلـهـذـاـ السـبـبـ قـالـ ( وـاسـتـغـفـرـوـ )

فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبه إزالة مالا ينبعى وذلك مقدم على فعل ما ينبعى ، فلم عكس هذا الترتيب هنا وقدم ما ينبعى على إزالة مالا ينبعى ؟ فلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخرف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال صل الله عليه وسلم « وإن ليغان على قلبي وإن لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبعى ، فقال : ( وobil للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ) وفي هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم في هذه الآية من وجوه (الأول) أن التقول والشراط ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمر بن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وذلك لأن الموجودات ، إما الخالق وإما الخلق ، فاما الخالق فكم السعادة في المعاملة منه أن يقر بكونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة . ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية المظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله ، وأما الخلق فكم السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم ، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله ، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله ، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال ، لأنه ضد الشفقة على خلق الله ، إذا عرفت هذا فتقول إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة (أو لها) أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد . وإليه الإشارة بقوله ( وobil للمشركين ) ( وثانيها ) كونه متنعاً من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله ( الذين لا يؤتون الزكوة ) ( وثالثها ) كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذتها ، وإليه الإشارة بقوله ( وهم بالآخرة هم كافرون ) و تمام الكلام في أنه لا زرادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : الأمس واليوم والغد . أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلى الخالق لهذا العالم . وأما معرفة أنه كيف ينبعى وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة . وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيمة ، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال ، فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال ( وobil للمشركين الذين لا يؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم كافرون ) وهذا ترتيب في غاية الحسن ، والله أعلم ( الوجه الثاني ) في تحرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله ( لا يؤتون الزكوة ) أي لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم : لا إله إلا الله ، وهو مأخذ من قوله تعالى ( ونفس وما سواها ) ( الثالث ) قال الفراء : إن قريشاً كانت تطعم الحاج سفرموا ذلك على من آمن بمحمد صل الله عليه وسلم .

قُلْ أَنِّيْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِيْ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَوْنَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسَيْ مِنْ فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلَيْنَ ۝ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اتَّهَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَاعِيْنَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

**﴿ المسألة الثانية ﴾** احتاج أصحابنا في إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية ، فقالوا إنه تعالى أحق الوعيد الشديد بناء على أمرين ( أحدهما ) كونه مشركا ( والثاني ) أنه لا يؤق الزكاة ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير في حصول ذلك الوعيد ، وذلك يدل على أن عدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيراً عظيماً في زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** احتاج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ، فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ، وهو قوله ( فويل للمشركيْن ) وذكر أيضاً بعدهما ما يوجب الكفر ، وهو قوله ( وَمِنَ الْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ) فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيها بين الصفتين الموجبتين للकفر قبيحاً ، لأن الكلام إنما يكون غصيناً إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه ، ثم أكدوا ذلك بأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حكم بکفر مانع الزكاة ( والجواب ) لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان وما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة ، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين ، فقال : ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَنْتُونَ ) أي غير مقطوع ، من قوله ذلك منفعت الحبل ، أي قطعه ، ومنه قوله قد منه السفر ، أي قطعه ، وقيل لا يعن عليهم ، لأنه تعالى لما سماه أجراً ، فإذا الأجر لا يوجب الملة ، وقيل نزلت في المرض والزمني إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون .

قوله تعالى : **﴿ قل أنتم لتسكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواه للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض اتتها طوعاً أو كرها قالنا أتينا طاردين ، فقضاهن**

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا هَا وَزَيَّنَاهَا السَّمَاءَ الْأَنْعَمَ بِمَصَبِّيْعَ  
وَحَفَظَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْغَرِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾

سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بصريخ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ۝ .

اعلم أله تعالى لما أمر محمدًا ﷺ في الآية الأولى أن يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنها حكم الله واحد فاستقيموا إليه واستعفروه) أردفه بما يدل على أنه لا يجوز لآيات الشرك بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة فليلة ، فن هذا صفة كيف يجوز جعل الأصنام الحسية شركا له في الإلهية والمعبودية ؟ فهذا تقرير النظم ، وفي الآية مسائل :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ قرأ ابن كثير : أينكم لتكفرون بهمزة وياه بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وأما ثانها في رواية قالون وأبو عمرو فعن هذه الصورة ، إلا أنها يمدان ، والباقيون مزدئن بلا مد .  
 ﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ قوله تعالى (أينكم) استفهام بمعنى الإنكار ، وقد ذكر عنهم شيئاً من مشركين (أحدهما) الكفر بالله ، وهو قوله (لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين) (وثانيهما) آيات الشركاء والأدداد له ، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولاً مغايراً لآيات الأدداد له ، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر بوبب التغاير ، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه (الأول) قوله إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى ، فلما نازعوا في ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (الثاني) أنهم كانوا ينزاعون في صحة التكليف ، وفي بشارة الأنبياء ، وكل ذلك قدح في الصفات المعتبرة في الإلهية ، وهو كفر بالله (الثالث) أنهم كانوا يضيقون إليه الأولاد ، وذلك أيضاً قدح في الإلهية وهو يوجب الكفر بالله ، فالحاصل أنهم كفروا بالله لا جل قوله بهذه الأشياء ، وأنبتوا الأدداد أيضاً له لا جل قوله باللهية تلك الأصنام ، واحتاج تعالى على فساد قوله بالتأنير فقال كيف يجوز الكفر بالله ، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الحسية أدداداً لله تعالى ، مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين ، وتم بقية مصالحتها في يومين آخرين . وخلق السموات بأسرها في يومين آخرين ؟ فن قدر على خلق هذه الأشياء الغفظية ، كيف يعقل الكفر به وإنكار قدرته على الخلق والنشر ، وكيف يعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بشارة الأنبياء ، وكيف يعقل جعل هذه الأصنام الحسية أدداداً له في المعبدية والإلهية ، فإن قيل من استدل بشيء على آيات شيء ، فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به ، وكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أمر لا يمكن لإثباته بالعقل المحسن ، وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحى

الأنبياء ، والكافر كانوا منازعين في الوحي والرسالة ، فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم ، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهفهم ، فلنا إثبات كون المسميات والأرض مخلوقة بطريق العمل مسكن ، فإذا ثبت ذلك أُسكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم ، وحينئذ يقال للكافرين . فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذي هو جماد لا يضر ولا ينفع في العبودية والإلهية ؟ بقى أن يقال : حينئذ لا يليق في الاستدلال بكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أثر ، فتقول هذا أيضاً له أثر في هذا الباب ، وذلك لأن أول التوراء مشتمل على هذا المعنى ، فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب ، فكافر مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق ، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعرفة واعتقدوا في كونها حقيقة ، وإذا كان الأمر كذلك حينئذ يحسن أن يقال لهم إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة في هذه المدة البصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجر و الحجر المنحوت شريكًا له في العبودية والإلهية ؟ فظهور بما قررنا أن هذا الاستدلال قوي جحسن .

قوله تعالى : ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أي ذلك الموجود الذى علمت من صفتة وقدرته أنه خلق الأرض في يومين هو (رب العالمين) وحالهم ومبدعهم ، فكيف أتيتم له أنداداً من الخشب والحجر ؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه آتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك (فالأول) قوله (و جعل فيها رواسي من فرقها) والمراد منها الجبال ، وقد تقدم تفسير كونها (رواسي) في سورة النحل ، فإن قيل : ما الفائدة في قوله (من فوقها) ولم لم يقتصر على قوله (و جعل فيها رواسي) كقوله تعالى (وجعلنا فيها رواسي شاعخات) (وجلنا في الأرض رواسي) ؟ فلنا لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوام ذلك أن تلك الأساطير التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقلة عن النزول ، ولتكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض ، لبرى الإنسان بعيته أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى مسک وحافظ ، وما ذلك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى (والنوع الثاني) مما أخبر الله تعالى في هذه الآية قوله (وبارك فيها) والبركة كثرة الخير والخيرات المحصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان ، وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد شق الأنها وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) وفيه أقوال (الأول) أن المعنى وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلح لهم ، قال محمد بن كعب : قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان (والقول الثاني) قال مجاهد : وقدر فيها أقواتها من المطر ، وعلى هذا القول فالآقوات الأرض لا للسكان ، والمعنى أن الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر (والقول

الثالث ) أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض ، وحادته فيها لأن النحريين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى عمله أخرى ، فقوله ( وقدر فيها أقوانها ) أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس ، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال ، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة ، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض قال ( وقدر فيها أقوانها ) وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبه من الأرض متيناً ، ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده ( في أربعة أيام سواء للسائلين ) وهبنا سؤالات :

( السؤال الأول ) أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام آخر ، وذكر أنه خلق السموات في يومين ، فيكون المجموع ثمانية أيام ، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام فلزم التناقض ، واعلم أن الملمأ أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله ( وقدر فيها أقوانها في أربعة أيام ) مع اليومن الأولين ، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين ، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفاً في شهر وألوفاً في شهرين فيدخل الآلف في الألوف والشهر في الشهرين .

( السؤال الثاني ) أنه لما ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، ولو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط ، فلم ترك هذا التصریح ، وذكر ذلك الكلام الجمل ؟ ( والجواب ) أن قوله ( في أربعة أيام سواء للسائلين ) فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين ، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء في يومين لم يفدي هذا الكلام كون هذين اليومن مستغرقين بذلك الاعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومن ما كانا مستغرقين بذلك العمل ، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال بعده ( في أربعة أيام سواء للسائلين ) دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعية صارت مستغرقة في تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان .

( السؤال الثالث ) كيف القراءات في قوله ( سواء ) ؟ ( والجواب ) قال صاحب الكشاف قرىء ( سواء ) بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء .

( السؤال الرابع ) ما المراد من كون تلك الأيام الأربعية سواء ؟ فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كال أيام الموجودة في أماكن خط الاستواء . وقد تكون مختلفة كال أيام

الموجودة في سائر الأماكن ، فيبين تعالى أن تلك الأيام الأربع كانت متساوية غير مختلفة .

(السؤال الخامس) بم يتعلق قوله (للسائلين) ؟ الجواب فيه وجهان : (الأول) أن الزجاج قال قوله (في أربعة أيام) أي في تسع أربعة أيام ، إذا عرفت هذا فالتقدير (وقدر فيها أقواتها) في تسع أربعة أيام لأجل السائلين أى الطالبين للأقرارات المحتاجين إليها (والثاني) أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لأجل من سألكم خلقت الأرض وما فيها ، ولما شرح الله تعالى كيفية تخلق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخلق السموات فقال (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وفيه مباحث :

(البحث الأول) قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) من قوله استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهها لا ينفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قوله استقام إليه وامتد إليه ، ومنه قوله تعالى (فاستقيموا إلهي) والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها ، من غير صارف يصرفة ذلك .

(البحث الثاني) ذكر صاحب الأثر أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض فأحدث الله في ذلك الماء سخونة فارتفع زيد ودخان ، أما الربد فيقي على وجه الماء خلق الله منه البيروسة وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا خلق الله منه السموات .

واعلم أن هذه القصة غير موجودة في القرآن ، فان دل عليه دليل صحيح قبل والإلا فلا ، وهذه القصة مذكورة في أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة ، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة ، وهذا هو المقبول لأننا قد دلنا في المعقولات على أن الظلمة ليست ككيفية وجودية ، بدليل أنه لو جلس إنسان في ضوء السراج وإنسان آخر في الظلمة ، فإن الذي جلس في الضوء لا يرى مكان الجالس في الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلماً ، وأما الذي جلس في الظلمة فإنه يرى ذلك الذي كان جالساً في الضوء ويرى ذلك الهواء مضيناً ، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين ، ثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور ، فاته سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشماساً وقراً ، وأحدث صفة الضوء فيها فحيثند صارت مستبررة ، ثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة ، فصح تسميتها بالدخان ، لأنها لامعنى المدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور ، فهذا ما خطط بالبال في تفسير الدخان ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(البحث الثالث) قوله (تم استوى إلى السماء وهي دخان) مشعر بأن تخلق السماء حصل بعد تخلق الأرض ، وقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاماً) مشعر بأن تخلق الأرض حصل بعد تخلق السماء وذلك يوجب التناقض ، واختلف العلماء في هذه المسألة ، و(الجواب المشهور) أن يقال إنه تعالى

خلق الأرض في يومين أولاً . ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء . دعا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض ، وأعلم أن هذا الجواب مشكل عندي من وجوه (الأول) أنه تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، ثم إنه في اليوم الثالث (جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوانها) وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحورة لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحورة منبسطة ، وقوله تعالى (وبارك فيها) مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بذلك (ثم استوى إلى السماء) . فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحورة ، وحيثند يعود السؤال المذكور (الثاني) أنه قد دلت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة ، فهي في أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضاً فهي ، منذ خلقت كانت مدحورة ، وإن قلنا أنها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال إنها كانت مدحورة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة ، وذلك باطل (الثالث) أن الأرض جسم في غاية العظم ، والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول دخوله في الوجود يكون مدحوراً ، فيكون القول بأنها كانت مدحورة ، ثم صارت مدحورة قول باطل ، والذي جاء في كتب التوارىخ أن الأرض خلقت في موضع الصخرة بيت المقدس ، فهو كلام مشكل لأنه إن كانت المراد أنها على عظمها خلقت في ذلك الموضع ، فهذا قول بداخل الأجسام الكثيفة وهو محال ، وإن كان المراد منه أنه خلق أولاً أجزاء صغيرة في ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها ، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التي خلقت أولاً ، فهذا يكون اعترافاً بأن تخلق الأرض وقع متأخراً عن تخلق السماء (الرابع) أنه لما حصل تخلق ذات الأرض في يومين وتخلق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين آخرين وتخلق السموات في يومين آخرين كان بمجموع ذلك ستة أيام ، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمان آخر بعد إلا أيام السنة ، فيبتعد يقع تخلق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل (الخامس) أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية (ثم استوى إلى السماء فقال لها وللأرض انتبا طوعاً أو كرها) كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم لإيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله (انتبا طوعاً أو كرها) يقتضي إيجاد الموجود وإن حال باطل .

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ، ونقل الوحدى في البسيط عن مقاتل أنه قال خلق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله (ثم استوى إلى السماء) ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان ، وقال لها قبل أن يخلق الأرض فأحضر فيه كان كما قال تعالى (قالوا إن يمرق فقد سرق أخي له من قبل ) معناه إن يكن سرق ، وقال تعالى (وكم من قرية أهل كنناها بخاماً بأسنا ) والمعنى فسكان قد جاءها ، هذا ما نقله الوحدى وهو عندي ضعيف ، لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء ، وهذا جمع بين الصدرين لأن كلامة (ثم) تقتضي التأخير ، وكلمة (كان)

تفتضي التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض ، وذلك دليل على أنه لا يمكن لجراؤه على ظاهره وقد بینا أن قوله (أنتيا طوعاً أو كرهاً) إنما حصل قبل وجودها ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حل قوله (أنتيا) على الأمر والتکلیف ، فوجب حمله على ما ذكرناه ، فـ على لفظ الآية سؤالات .

**(السؤال الأول)** ما الفائدة في قوله تعالى (فقال لها والأرض أنتيا طوعاً أو كرهاً) ؟  
 (الجواب) المقصود منه إظهار كمال القدرة والتقدیر (أنتيا) شتمها ذلك أو أبینها ، كما يقول الجبار مُن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشتأ ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً ، وانتصا بهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين (فالتى أتبينا) على الطوع لاعلى الشر ، وقيل إنه تعالى ذكر السماه والأرض ثم ذكر الطوع والشر ، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والشر إلى الأرض بتعصیص السماء بالطوع لوجه (أحدها) أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف ، تشبه حيواناً مطبيعاً الله تعالى بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال ، تارة تكون في السکون وأخرى في المرکات المضطربة (وثانية) أن الموجود في السماء ليس لها إلا الطاعة ، قال تعالى (يختافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يشierenون) وأما أهل الأرض فليس الأمر في حقهم كذلك (وثانية)  
 السماء موصوفة بكل الحال في جميع الأمور ، قالوا إنها أفضـل الألوان وهي المستبرة ، وأشكالها أفضـل الأشكال وهي المستبرة ، ومكـالها أفضـل الأمـكـنة وهو الجو العـالـى ، وأجرـامـها أفضـل الأـجـرامـ وهي السـكـواـكـبـ المـنـلـائـةـ بـخـلـافـ الـأـرـضـ فـإـنـاـ مـكـانـ الـظـلـمـةـ وـالـسـكـنـاـةـ وـالـخـلـافـ الـأـحـوـالـ وـتـغـيـرـ الـذـوـاتـ وـالـصـفـاتـ ، فلا جـرمـ وـقـعـ التـغـيـرـ عـنـ تـكـونـ السـمـاءـ بـالـطـوـعـ وـعـنـ تـكـونـ الـأـرـضـ بـالـشـرـ ، وإذا كان مدار خلق الأرض على الشر كان أهـلـهاـ مـوـصـفـينـ أـبـداـ بـمـاـ يـوـجـبـ الشـرـ وـالـشـرـ وـالـشـرـ وـالـشـرـ .

**(السؤال الثاني)** ما المراد من قوله (أنتيا) ومن قوله (أنتيا) ؟ ، (الجواب) المراد أنتيا إلى الوجود والحصول وهو كقوله (كن فيكون) وقيل المعنى أنتيا على ما ينبغي أن تأتـيـاـ عـلـيـهـ منـ الشـكـلـ وـالـوـصـفـ ، أـىـ بـأـرـضـ مـدـحـوـةـ قـرـارـاـ وـمـهـادـاـ وـأـىـ بـسـمـاءـ مـقـبـيـةـ سـقـفـاـ لـهـ ، وـمـعـنـيـ الإـيـانـ الـحـصـولـ وـالـوـقـوعـ عـلـىـ وـقـعـ المـرـادـ ، كـماـ تـقـولـ أـىـ عـمـلـهـ مـرـضـيـاـ وـجـاءـ مـقـبـوـلاـ ، وـيـحـبـزـ أـيـضاـ أـنـ يـكـونـ المعـنىـ لـأـنـىـ كـلـ وـاحـدـةـ مـنـكـاـ صـاحـبـتـاـ الإـيـانـ الـذـيـ تـقـضـيـهـ الـحـكـمـ وـالـتـدـبـيرـ مـنـ كـوـنـ الـأـرـضـ قـرـارـاـ للـسـمـاءـ وـكـوـنـ السـمـاءـ سـقـفـاـ الـأـرـضـ .

**(السؤال الثالث)** هلـاـ قـيلـ طـائـعـينـ عـلـىـ الـلـفـظـ أـوـ طـائـعـاتـ عـلـىـ الـمـعـنـىـ ، لـأـنـهـمـ سـمـوـاتـ وـأـرـضـونـ ؟  
 (الجواب) لما جملـ مـخـاطـبـاتـ وـمـجـيـبـاتـ وـوـصـفـنـ بـالـطـوـعـ وـالـشـرـ قـيلـ طـائـعـينـ فـيـ مـوـضـعـ طـائـعـاتـ نحوـ قوله (سـاجـدـيـنـ) وـمـنـمـ استـدـلـ بـهـ عـلـىـ كـوـنـ السـمـوـاتـ أـحـيـاءـ وـقـالـ الـأـرـضـ فـيـ جـوـفـ السـمـوـاتـ أـقـلـ مـنـ النـدـرـةـ الصـغـيرـةـ فـيـ جـوـفـ الـجـبـلـ الـكـبـيرـ ، فـلـهـذـاـ السـبـبـ صـارـتـ الـلـفـظـةـ الدـالـةـ الـعـقـلـ وـالـحـيـاةـ غـالـبـةـ ، إـلـاـ أـنـ هـذـاـ القـوـلـ باـطـلـ ، لإـجـاعـ الـمـتـكـلـمـينـ عـلـىـ فـسـادـهـ .

ثم قال تعالى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمٍ) وَقَضَاهُ الشَّيْءُ إِنَّمَا هُوَ اتِّهَامُهُ وَالْفَرَاغُ مِنْهُ الْقُضَى  
فِي قَوْلِهِ (فَقَضَاهُنَّ) يَحْمُزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى السَّمَا، عَلَى الْمَعْنَى كَمَا قَالَ (طَائِفَيْنِ) وَنَحْوَهُ (أَبْعَازَ نَخْلَ  
خَاوِيَّة) وَيَحْمُزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا مِنْهُمَا مَفْسُرًا بِسَبْعِ سَمَوَاتٍ وَالْفَرَقُ بَيْنَ النَّصَيْبَيْنِ أَنْ أَحَدُهُمَا عَلَى  
الْحَالِ وَالثَّالِثُ عَلَى التَّهِيزِ.

ذَكَرَ أَهْلُ الْأَثْرِ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ وَخَلَقَ سَارِمَاتِ الْأَرْضِ فِي يَوْمِ  
الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا فِي يَوْمِ الْحَيْسِ وَالْجَمْعَةِ وَفَرَغَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ  
الْجُمُعَةِ خَلْقُ فِيهَا آدَمَ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَقْوِيمُ فِيهَا الْقِيَامَةَ ، فَإِنْ قِيلَ الْيَوْمُ عِبَارَةً عَنِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَذَلِكَ  
إِنَّمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ طَلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا ، وَقَبْلِ حَدُوثِ السَّمَوَاتِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَيْفَ يَعْقُلُ  
حَصُولُ الْيَوْمِ ؟ فَلَمَّا مَعَنَاهُ إِنَّهُ مُضِيَّ مِنَ الْمَدَةِ مَا لَوْ حَصُلَ هَنَاكَ فَلَكَ وَشَمْسُ لَكَانَ الْمَقْدَارُ مَقْدُرًا يَوْمًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) قَالَ مَقَاتِلُ أَمْرٍ فِي كُلِّ سَمَاءٍ بِمَا أَرَادَ ، وَقَالَ قَاتِدَةُ خَلْقِ  
فِيهَا شَمْسَهَا وَقَرْبَهَا وَنَجْوَهَا ، وَقَالَ السَّدِيُّ خَلْقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلَقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْبَحَارِ وَجَبَالِ  
الْبَرِّ ، قَالَ وَلَهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ يَدِيْتُ بِمَحْجَنِهِ وَيَطْوُفُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَقَابِلَ السَّكِّينَةِ وَلَوْ  
وَقَتَتْ مِنْهُ حَصَّةٌ مَا وَقَعَتْ إِلَى عَلَى السَّكِّينَةِ ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ يَقُولَ قَدْ ثَبَتَ فِي عِلْمِ النَّحْوِ أَنَّهُ يَكْفِي فِي  
حَسْنِ الْإِضَافَةِ أَدْنَى سَبَبٍ ، وَلَهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ تَكْلِيفُ خَاصٍ ، فَنَّ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُو فِي الْقِيَامِ  
مِنْ أَوَّلِ خَلْقِ الْعَالَمِ إِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْهُمْ رَكُوعٌ لَا يَتَصْبِّبُونَ وَمِنْهُمْ سَجْدَةٌ لَا يَرْفَعُونَ ، وَإِذَا كَانَ  
ذَلِكَ الْأَمْرُ مُخْتَصًا بِأَهْلِ ذَلِكِ السَّمَاءِ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مُخْتَصًا بِتَلْكَ السَّمَاءِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَأَوْحَى  
فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) أَى وَكَانَ قَدْ خَصَ كُلِّ سَمَاءٍ بِالْأَمْرِ الْمُضَافِ إِلَيْهَا كَفَوْلُهُ (وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةِ أَهْلِكَنَا هُمْ  
بِجَاهِهَا بِأَسْنَا) وَالْمَعْنَى فَسَكَانُ قَدْ جَاءَهُمْ ، هَذَا مَا نَقَلَهُ الْوَاحِدُ وَهُوَ عَنِيْدٌ ضَعِيفٌ لَاَنَّ تَقْدِيرَ  
السَّكَّامُ ثُمَّ كَانَ قَدْ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ قَدْ أَوْحَى ، وَهَذَا جَمْعُ بَيْنِ الصَّدِيقَيْنِ لَاَنَّ كَلِمَةَ ثُمَّ تَقْتَضِي  
الْتَّاخِيْرِ وَكَلِمَةَ كَانَ تَقْتَضِي التَّقْدِيمَ فَاجْلِمْ بَيْنَهُمَا تَفِيدَ التَّنَاقْضِ ، وَنَظِيرَهُ قَوْلُ الْقَاتِلِ ضَرِبَتِ الْيَوْمَ  
زِيَادَتُمْ ضَرِبَتِ عَرَأً بِالْأَمْسِ ، فَكَمَا أَنْ هَذَا باطِلٌ فَكَمَا مَا ذَكَرْتُمْهُ وَإِنَّمَا يَحْمُزُ تَأْوِيلُ كَلامِ  
اللهِ بِمَا لَا يَؤْدِي إِلَى وَقْوَعِ التَّنَاقْضِ وَالرَّكَاكَةِ فِيهِ ، وَالْمُخْتَارُ عَنِيْدٌ أَنْ يَقُولَ خَاتَمُ الْسَّمَوَاتِ «قَدْمٌ  
عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ» ، بَقِيَ أَنْ يَقُولَ كَيْفَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ ؟ فَنَقُولُ : الْخَلْقُ لِيَسْ عِبَارَةً عَنِ التَّكْوينِ  
وَالْإِيجَادِ ، وَالدَّايمِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ (إِنْ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَثِيلٌ آدَمُ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ كَمْ  
فِيْكُونُ ) فَلَوْ كَانَ الْخَلْقُ عِبَارَةً عَنِ الإِيجَادِ وَالتَّكْوينِ لَكَانَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ أُوْجَدَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ  
كَمْ فِيْكُونُ وَهَذَا عَالَلُ ، لَاَنَّهُ يَلْزَمُ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ لِلشَّيْءِ الَّذِي وَجَدَ كَمْ فِيْهِ يَكُونُ وَهَذَا عَالَلُ ، فَ ثَبَتَ  
أَنَّ الْخَلْقَ لِيَسْ عِبَارَةً عَنِ التَّكْوينِ وَالْإِيجَادِ ، بَلْ هُوَ عِبَارَةً عَنِ التَّقْدِيرِ ، وَالتَّقْدِيرُ حَقُّ أَنَّهُ تَعَالَى  
هُوَ حَكَمَ بِأَنَّهُ سَيَوْجَدُهُ وَقَضَاهُ بِذَلِكَ ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ قَوْلُهُ (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)  
مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَضَى بِجَهْوَنَّهُ فِي يَوْمَيْنِ ، وَقَضَاهُ اللَّهُ بِأَهْمَهِ سَيَحْدُثُ كَذَا فِي مَذَاهِبِهِ كَذَا ، لَا يَقْتَضِي حَدُوثُ ذَلِكَ

الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحداث السماء ، وحينئذ يزول السؤال ، فهذا ما وصلت إليه في هذا الموضع المشكل .

ثُمَّ قال تعالى (فقال لها وللأرض اتنيا طوعاً أو كرهاً قالتنا أتينا طائعين ) .

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان فأطاعا وامتلا  
وعند هذا حصل في الآية قوله :

(القول الأول) أن تخرج هذه الآية على ظاهرها فنقول : إن الله تعالى أمرها بالإتيان فأطاعاه  
قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد ، إلا ترى أنه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه  
السلام فقال (يا جبال أوبى معي والطير) والله تعالى تجلى للجبل قال (فلمَا تجلى ربه للجبل) والله تعالى  
أنطق الأيدي والأرجل فقال (بِوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَسْنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وإذا  
كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاء وفهم ، ثم يوجد  
الأمر والتکلیف عليهما ، ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الأول) أن الأصل حل اللفظ على ظاهره  
الإ إذا منع منه مانع ، وهو هنا لا مانع ، فوجب إجراؤه على ظاهره (الثانى) أنه تعالى أخبر عنهم ،  
فقال (قَاتَنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وهذا الجمجمة ما يعقل ويبعد (الثالث) قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَّةَ عَلَى  
السموات والأرض والجبال فأباين أَنْ حَمَلُنَا) وهذا يدل على كونها عارفة بالله ، مخصوصة بتوجيهه  
تکاليف الله عليها ، والإشكال عليه أن يقال : المراد من قوله (اتنيا طوعاً أو كرهاً) الإتيان إلى  
الوجود والحدوث والحصول . وعل هذا التقدير خال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض  
معدومة ، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال : ياموجود دك موجوداً ، وذلك  
لا يجوز ، فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاعلة  
ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجيه الأمر عليها ، فان قال قائل : روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال  
قال الله سبحانه للسموات أطلع شمسك وقرنك ونجومك ، وقال للأرض شفق آثارك وأخرجي  
ثمارك . وكان الله تعالى أودع فيها هذه الأشياء ثم أمرها بيازها وإظهارها ، فنقول فعل هذا  
القدر لا يكون المراد من قوله (أتينا طائعين) حدوثها في ذاتها ، بل يصير المراد من هذا الأمر  
أن يظهرها ما كان مودعاً فيها ، إلا أن هذا الكلام باطل ، لأنَّه تعالى قال (فَقَضَاهُنَّ سِعَ سَوْمَاتٍ  
فِي يَوْمَيْنِ) والفاء للتعقيب ، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله (اتنيا طرعاً  
أو كرهاً) فهذا جلة ما يمكن ذكره في هذا البحث .

(القول الثاني) أن قوله تعالى (قال لها وللأرض اتنيا طوعاً أو كرهاً) ليس المراد منه توجيه  
الأمر والتکلیف على السموات والأرض بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يتمتعان عليهنَّ وجدتا  
كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيم إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع ، ونظيره قوله قول القائل :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادِ وَنُودَ (٢٧) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَفِيرُونَ (٢٨) فَامَّا عَادُ فَاسْتَكَبُرُوا فِي الْأَرْضِ

قال الجدار الوتد لم تشقني ؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فان الحجر الذي وراني ما خلاني وراني . واعلم أن هذا عدول عن الظاهر ، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، وقد يبنا أن قوله ( اتنيا طوعاً أو كرماً ) إنما حصل قبل وجودها ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حل قوله ( اتنيا طوعاً أو كرهاً ) على الامر والتکلیف ، فوجب حلله على ما ذكرنا .

واعلم أن إثبات الامر والتکلیف فيما مسروط بحصول المأمور فيما ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، أو أنه تعالى أمرهم بأشياء ونهام عن أشياء ، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم أنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضاً ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بقول البشر ، بل هي أعلى من مصاعد أفهمهم ومرادي أو هامهم ، ثم قال ( وزينا السماء الدنيا بصاصيغ ) وهي النيرات التي خلقها في السموات ، وخص كل واحد بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لا يعرفها إلا الله ، ثم قال ( وحفظها ) يعني وحفظناها حفظاً ، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع ، فأعاد لكل شيطان نجماً يرميه به ولا يخذه ، فتها ما يحرق ، ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخللاً ، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال « خلق الله تعالى الأرض في يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجن والشجر في يومين وخلق في يوم الخميس السماء ، وخلق في يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة - ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال - ثم استوى على العرش - قالوا : ثم استراح - فقضى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى ( وما مسنا من لغو ) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل ، قال ( ذلك تقدير العزيز العليم ) والعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الاعمال لا تتمكن إلا بقدرة كاملة وعلم بحفيظ .

قوله تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنَكُمْ صاعقة مثل صاعقة عاد ونود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإننا بنا أرسلتم به كافرون ،

يَغْيِرُ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَ الْقُوَّةِ أَوْ لَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُ  
مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا يُغَايِبُونَا يَجْحَدُونَ ﴿١﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَّارًا فِي أَيَّامٍ  
تَّحْسَاتٍ لَنُذِيقَهُمْ عَذَابَ أَخْرَزٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَزٌ  
وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَهُدِينَاهُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعُمَى عَلَى الْهُدَى  
فَأَخْذُوهُمْ صَاعِدَةً الْعَذَابُ أَهْمُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ  
أَمْنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٤﴾

فاما عاد فاستكثروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أ ولم ير أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا آياتنا يمحدون ، فأرسلنا عليهم ريحًا صريراً في أيام نحسات لذريتهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينتصرون ، وأما ممود فهدينام فاستحبوا العمى على المهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقوون )

اعلم أن الكلام إنما ابتدىء من قوله (أنما إلهكم إله واحد) واحتج عليه بقوله (قل أنتم  
لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين) وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهره  
كيف يجوز الكفر به ، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركا له في الإلهية ؟ ولما تم  
ذلك الحجة قال (فإن أعرضوا فقل أندتركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثورود) وبيان ذلك لأن وظيفة  
الحججه قد تمت على أكمل الوجه ، فإن بقوا مصررين على الجهل لم يبق حيئته علاج في حفهم إلا  
إزاله العذاب عليهم . فلماذا السبب قال (فإن أعرضوا فقل أندتركم) بمعنى إن أعرضوا عن قبول  
هذه الحجة القاهره التي ذكرناها وأصرروا على الجهل والتقليد (قل أندتركم) والإذار هو :  
التخويف ، قال المبرد والصاعقة الثائرة المهلكة لاني شيء كان ، وقرىء صاعقة مثل صاعقة عاد وثورود  
قال صاحب الكشاف وهي المرة من الصعق .

ثم قال (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) وفيه وجهاً (الأول) المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتواهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله (ثم لا ينفهم من بين أيديهم ومن خلفهم) يعني (لأنهم) من كل جهة ولا عملن فيهم كل حيلة ، ويقول الرجل : استدرت بفلان من كل

جانب فلم تؤثر حيلتي فيه .

(السؤال الثاني) المعنى : أن الرسول جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم ، فإن قيل : الرسل الذين جاؤوا من قبلهم ومن بعدهم ، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤهم ؟ فلما : قد جاءهم هود وصالح داعين إلى الآيةان بهما وبجميع الرسل ، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤهم .

ثم قال (ألا تعبدوا إلا الله) يعني أن الرسل الذين جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمرؤم بالتوحيد ونفي الشرك ، قال صاحب الكشاف أن قوله (أن لا تعبدوا إلا الله) يعني أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه (لا تعبدوا) أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله .

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أئمهم قالوا (لو شاء ربنا لازل ملائكة) يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل ، وقالوا الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الوسالة إلى البشر يجعل رسالته من زمرة الملائكة ، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البشارة والرسالة ، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا (إيانا بما أرسلنا به كافرون) معناه : فإذا أنت بشر ونشتم بملائكة ، فأنت لست برسل ، وإذا لم تكونو أمن الرسل لم يلزمك قبول قولكم ، وهو المراد من قوله (إيانا بما أرسلنا به كافرون) .

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام ، و قوله (أرسلت به) ليس يأفترار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلًا ، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) . روى أن أبي جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو نشتم لنار جلا عالماً بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ، ثم أثنا بياني عن أمره ، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك عالماً وما يخفى على ، فأناه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشنتم آهتنا وتضللنا ؟ فان كنت تزيد الرياسة عقدنا لك اللواه فكنت ونيستنا ، وإن تكن بك الباقة زوجناك عشر نسوة تخارهن ، أي بنات من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغنى به ، ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما فرغ قال (بسم الله الرحمن الرحيم حم تزييل من الرحمن الرحيم) إلى قوله (صاعقة مثل صاعقة عاد ونمود) فأمسك عتبة عليه وناشدته بالرحمة ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا ، لازرى عتبة إلا قد صبا ، فانطلقوا إليه وقالوا ياعتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت : ففصب وأقسم لا يكلم محمدًا أبداً ، ثم قال : والله لقد كلنته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سخر ولا كهانة ، وما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد ونمود : أمسكت بيه وناشدته بالرحمة ، ولقد علمت أن محمدًا إذا قال شيئاً لم يكن ذنب خفت أن ينزل بكم العذاب .

واعلم أنه تعالى لما بين كفر قوم عاد ونحو على الإجمال بين خاصية كل واحدة من هاتين ، الطائفتين فقال (فاما عاد فاستكروا في الأرض بغير الحق) وهذا الاستكبار فيه وجهان (الأول) إظهار النخوة والكبر ، وعدم الالتفات إلى الغير (والثاني) الاستعلاء على الغير

واستخراهم ، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا (من أشد منا قوة) وكما ورد مخصوصين بذكر الأجسام وشدة القوة ، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم ، فقال (أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم ، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون النافذ في طاعة الكامل ، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى ، خاصتين لأولئك ونواهيه .

واحتاج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القدرة لله ، فقالوا القوة لله تعالى وبتأكيد هذا بقوله (الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) يدل على إثبات القوة لله تعالى وبتأكيد هذا بقوله (إن الله هر الرزاق ذو القوة المتين) فإن قيل صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شئين لأحدهما مع الآخر نسبة ، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها ، والمتناه لا نسبة له إلى غير المتناه ، فما معنى قوله إن الله أشد منهم قوة ؟ فلذا هذا ورد على قانون قوله قولنا الله أكبر .

ثم قال (وكانوا بآياتنا يجحدون) والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يحمد الموعظ الوديعة .

واعلم أن نظم الكلام أن يقال : أما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون ، وقوله (وقالوا من أشدمنا قوة ، أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) اعترض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم إلى الاستكبار .

واعلم أنا ذكرنا أن مجتمع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق ، فقوله (استكروا في الأرض بغير الحق) مضاد للإحسان إلى الخلق وقوله (وكانوا بآياتنا يجحدون) مضاد للتعظيم للخالق ، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للملاك والإبطال إلى الغاية القصوى ، فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِّ صَرِّا) وفي الصرصر قولان (أحدهما) أنها العاصفة التي تصحر صر أي تصعو في هبوبها ، وفي علة هذه التسمية وجوه (قيل) إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم (وقيل) هو من صرير الباب ، (وقيل) من الصرة والصيحة ، ومنه قوله تعالى (فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرِّهِ) (والقول الثاني) أنها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها ، وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى (كَمْلَ رِيحٍ فِي هَبَّهٍ صَرٌ) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسوم ، وأربع منها رحمة الناثرات والمبشرات والمرسلات والذاريات » وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمي ، والمقصود أنه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته .

وأما قوله (في أيام نحسات) فقيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (نحسات) بسكون الحاء والباء وفتح الكسر الفخر الرازي - ج ٢٧ م ٨

الحادي ، قال صاحب الكشاف يقال نحس نحساً نقىض سعد سعداً فهو نحس ، وأما نحس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحساً وبعضها قد يكون سعداً ، وقالوا هذه الآية صريحة في هذا المعنى ، أجاب المتكلمون بأن قالوا (أيام نحسات) أي ذوات غبار وتراب نازلاً يكاد يصر فيه ويتصرف ، وأيضاً قالوا معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها ، أجاب المستدل الأول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشترمات لأن السعد يقابل السعد ، والكدر يقابل الكدر ، وأجاب عن السؤال الثاني أن الله تعالى أخبر عن ليقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات ، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب الذي وقع فيها .

ثم قال تعالى (ولنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) أي عذاب المروان والذل ، والسبب فيه أنهم استكثروا ، فقابل الله ذلك الاستكثار بإصال الخزي والمروان والذل إليهم .  
ثم قال تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى) أي أشد إهانة وخرجاً (وملائينصرون) أي أنهم يقعنون في الخزي الشديد ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزي عنهم .

ولما ذكر الله قصة عاد أتبهه بقصة ثمود فقال (وأما ثمود) قال صاحب الكشاف فرعيه (ثمود) بالرفع والنصب منوناً وغير منون والرفع أ Finch لوقوعه بعد حرف الابتداء . وقرىء بضم الثاء و قوله (فهدينام) أي دللناهم على طريق الخير والشر (فاستحبوا العمى على المدى) أي اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد .

واعلم أن صاحب الكشاف ذكر في تفسير المدى في قوله تعالى (هدي للتيقين) أن المدى عبارة عن الدلالة الموصولة إلى البغية ، وهذه الآية تبطل قوله ، لأنها تدل على أن المدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل ، فثبتت أن قيد كونه مفهوماً إلى البغية غير معتبر في اسم المدى . وقد ثبتت في هذه الآية سؤال يشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جواباً شافياً فتركناه ، قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزبح الأعذار والعلل ، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله (واما ثمود فهدينام) يدل على أنه تعالى قد ينصب لهم الدلائل و قوله (فاستحبوا العمى على المدى) يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد ، وأقول بل هذه الآية من أدلة الدلائل ، على أنها إنما يحصلان من الله لا من العبد ، وبيانه من وجوهين : (الأول) أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى ، لأنهم أجهوا تحصيله ، فلما وقع في قلوبهم هذه الحبة دون حبة ضده ، فإن حصل ذلك الترجيح لامرجح فهو باطل ، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب ، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثاني) أنه تعالى قال (فاستحبوا

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُ وَهَا  
شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ سَعْهُمْ وَابصِرُهُمْ وَجْلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا  
جَلْلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَ كُلَّ أَوْلَىٰ  
مَرْءَةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشَهِدَ عَلَيْكُمْ سَعْكُمْ وَلَا أَبْصِرُكُمْ  
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَلِكُمْ ظَنُوكُمْ

(العنى على المدى) ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً لا يحب العنى والجهل مع العلم بكونه عنى وجهاً، بل مالم يظن في ذلك العنى والجهل كونه تبصرة وعلم لا يرغب فيه ، فإذا ما هم على اختيار ذلك الجهل لابد وإن يكون مسبوقاً بجهل آخر ، فأن كان ذلك الجهل الثاني باختياره أيضاً لزم التسلسل وهو الحال ، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ، ولما وصف الله كفراً قال (فأخذتهم صاعقة العذاب الهرول) و (صاعقة العذاب) أي دائمة العذاب و (الهرول) المهاون ، وصف به العذاب وبالغة أو أبدل منه ( بما كانوا يكبسوه ) يريد من شركهم وتكلذبهم صلحاً وعمرهم الناقلة ، وشرع صاحب الكشاف هنا في سفاهة عظيمة . والأولى أن لا يلتفت إليه لانه وإن كان قد سعى سعيأً حسناً فيما يتعلق بالألفاظ ، إلا أن المسكين كان بعيداً من الممانع ، ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال (ونجينا الذين آمنوا و كانوا يتقوون ) يعني وكانوا يتقوون الأعمال التي كان يأني بها قوم عاد و ثمود ، فأن قيل كيف يحرز للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قوله مثل صاعقة عاد و ثمود ، مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمم محمد عليهم السلام ، وقد صرخ الله تعالى بذلك في قوله (وما كان الله ليغ儆هم وأنت فيهم) وجاء في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات ؟ قلنا لهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد و ثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يذكرون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفي في التخويف .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُ وَهَا شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ سَعْهُمْ وَابصِرُهُمْ وَجْلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا جَلْلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَ كُلَّ أَوْلَىٰ مَرْءَةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشَهِدَ عَلَيْكُمْ سَعْكُمْ وَلَا أَبْصِرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ، وَذَلِكُمْ ظَنُوكُمْ

الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَلُكُمْ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَأَلَّا نَارٌ  
مَشْوِيَّ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَأُمُّهُمْ مِنَ الْمُعْتَيْنَ ﴿٢٤﴾

بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستغروا فام من المعتين ) .

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردهم بكيفية عقوتهم في الآخرة ، ليحصل منه تمام الاعتبار في الرجز والتحذير ، وقرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير يحصر الله عز وجل أعداءه الكفار من الأولين والآخرين ومحجته أنه معطوف على قوله (ونجينا) فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ، ويقويه قوله (وبعد نحشر المتدين) (وحشرناهم) وأما البافون فقرروا على فعل مالم يسم فاعله لأن قصة ثور قد تمت وقوله (وبعد نحشر) ابتداء كلام آخر ، وأيضاً الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله (احشروا) ومملائكة ، وأيضاً أن هذه القراءة موافقة لقوله (فهم يوزعون) وأيضاً تقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال (وبعد نحشر أعداء الله إلى النار) فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا إلى النار .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال (فهم يوزعون) أي يحبس أو لم على آخرم ، أي يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا استلوا عن أعمالهم .

ثم قال حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودم وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التقدير حتى إذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودم ، وعلى هذا التقدير فكلمة (ما) صلة ، وقيل فيها قاعدة زائدة وهي تأكيد أن عند بعيتهم لابد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله (أئم إذا ما وقع آمنت به) أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى أن العبد يقول يوم القيمة : يارب العزة أستقدر وعدتني أن لا تظلمني ، فيقول الله تعالى فإن لك ذلك ، فيقول العبد إن لا أقبل على نفسى شاهداً إلا من نفسى ، فيختصر الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه ، فذلك قوله (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودم) واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال (أحدما) أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه (والثانية) أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والمحروف الدالة على تلك المعانى كخلق الكلام في الشجرة (والثالث) أن يظهر تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى

شمادات ، كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه ، واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة أما (القول الأول) فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع تونه لساناً يمتنع أن يكون محلاً للعلم والعقل ، فإن غير الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لساناً وجلدآ ، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود ، فإن قلنا إن الله تعالى ماغير بنية هذه الأعضاء . في恁د يمتنع عليها كونها عاقلة ناطقة فاهمة ، وأما (القول الثاني) وهو أن يقال إن الله تعالى خلق هذه الأصوات والحرف في هذه الأعضاء ، وهذا أيضاً باطل على أصول المعتزلة لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذي فعل الكلام ، لا ما كان موضوعاً بالكلام ، فإنهم يقرّون إن الله تعالى خلق الكلام في الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة ، فهنا لو قلنا إن الله خلق الأصوات والحرف في تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك ، ولزوم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لاتلك الأعضاء ، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لامن الله تعالى لأن الله تعالى قال (شَهَدُوا لِي مِمْنُونَ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) وأيضاً أنهم قالوا لتلك الأعضاء (لَمْ شَهَدُوكُمْ عَلَيْنَا) فقالت الأعضاء (أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هي تلك الأعضاء ، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى ، فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين ، وأما (القول الثالث) وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والأصل عدمه ، فهذا منتهى الكلام في هذا البحث ، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم ، لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة ، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة والله أعلم .

**﴿المسألة الثالثة﴾** ما رأيت للمفسرين في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سبيلاً وفائدة ، وأقول لا شك أن الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق والمس ، ولا شك أن آلة المحس هي الجلد ، فالله تعالى ذكر هنا من الحواس وهي السمع والبصر والمس ، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم ، لأن الذوق داخل في المحس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك معاشرة لجسم الطعام ، فكان هذا داخلاً فيه في حق حس الشم وهو حس ضعيف في الإنسان ، وليس الله فيه تكليف ولا أمر ولا نهى ، إذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج . قال وهذا من باب السكتنات كا قال (ولكن لا تواعدوهن سراً) وأراد النكاح وقال (أو جاء أحد من الغانط) والمراد قضاء الحاجة وعن التي صل الله عليه وسلم أنه قال «أول ما يتكلّم من الأدمي خذله وكفه» وعلى هذا التقدير تكون هذه

قوله تعالى : وَقِيَضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمْ

وَقِيَضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمْ

الآية وعيداً شديداً في الإيتان بالزنا ، لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكفر ، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ .

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء ( لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ) ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطافكم في المرة الأولى حالماً كنتم في الدنيا ثم على خلقكم وإنطافكم في المرة الثانية وهي حال القيمة والبعث كيف يستبعد منه إنطق الجوارح والأعضاء ؟ .

ثم قال تعالى ( وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ) والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة ، إلا أن استثارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيمة ، ولكن ذلك الاستثار لأجل أنهم كانوا يظلون أن الله لا يعلم الأعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستثار . عن ابن مسعود قال : كنت مستثراً بـأـسـتـارـالـكـعـبـةـ فـدـخـلـ ثـلـاثـةـ نـفـرـ عـلـىـ تـقـيـانـ وـقـرـشـيـ . فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان إذا سمعنا أصواتنا سمع وللام يسمع . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل ( وما كنتم تسترون ) .

ثم قال تعالى ( وذلكم ظنك الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ) وهذا نص صريح في أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شيء من المعلومات عن علمه فإنه يكون من الحالين الخاسرين ، قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل ، قال ﴿ حَكَا يَحْيَى عَنْ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَ « أَنَا عَنْ دُنْيَا عَبْدِيِّ بْنِ عَمْرَو » وَقَالَ يَحْيَى عَنْ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَ « لَا يَمْوِنُ أَحَدٌ بَلْ وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ » ، والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أنه يزرب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان ظن منج وظن مرد ، فالمنج قوله ( إني ظنلت أن ملائكة حسائيه ) وقوله ( الذين يظلون أنهم ملائكة ربهم ) ، وأما الظن المرد فهذا قوله ( وذلكم ظنك الذي ظنتم بربكم أرداكم ) قال صاحب الكشاف ( وذلكم ) رفع بالإبداء ( وظنك ) و( أرداكم ) خبران ويجز أن يكون ظنك بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر .

ثم قال ( فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ) يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج يتظارون لهم يحدوا ذلك وتعكون النار مثوى لهم أي مقاماً لهم ( وإن يستعيوا فما من المعتبين ) أي لم يعطوا العتبى ولم يجذبوا إليها ، ونظيره قوله تعالى ( أجزعننا أم صبرنا مالنا من محيسن ) وقرىء وإن يستعيوا فما من المعتبين أي أن يستلوا أن يرضوا ربهم فما فاعلون أي لا سيل لهم إلى ذلك . قوله تعالى : « وَقِيَضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمْ

الْقَوْلُ فِي أَمْبِعَادٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَطِيرِينَ  
 ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ  
 فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجِزِيْنَهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ  
 ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْأَنَارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَلْدَ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
 يَبْحَدُونَ  
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّا نَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ  
 نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ  
 ﴿٣٠﴾

قد خلت من قبليهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزىهم أسوأ الذي كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يبحدون ، وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين .  
 إنما أعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردده  
 بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال ﴿وَقِيْضَنَا هُمْ قُرْنَاءٌ﴾ وفيه مسائل :

﴿الْمَسَالَةُ الْأُولَى﴾ قال صاحب الصحاح : يقال قايسنا الرجل مقاييسنا أي عاوضته بتعارع ، وما قيضا ، كما يقال بيعان ، وقيض الله فلا أنا لفلانا أي جاء به وأن به له ، ومنه قوله تعالى  
 (وَقِيْضَنَا هُمْ قُرْنَاءٌ) .

﴿الْمَسَالَةُ الثَّانِيَةُ﴾ احتاج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر ، فقالوا إنه تعالى ذكر أن قيضا لهم أولئك القرنان ، وكان عالماً بأنه متى قيضا لهم أولئك القرنان فإن يزيينا بالباطل لهم ، وكل من فعل فعله وعلم أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر لا حالة ، فإن فاعل ذلك الفعل لابد وأن يكون مریداً لذلك الأثر ثبت أنه تعالى لما قيضا لهم قرناه فقد أراد منهم ذلك الكفر ، أجاب الجبائي عنه بأن قال لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها مطبيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطبيعاً له ، وبأن قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) يدل على أنه لم يربد منهم إلا العبادة ، فثبت بهذا أنه تعالى لم يربد منهم المعاصي ، وأما هذه الآية فنقول : إنه تعالى لم يقل وَقِيْضَنَا هُمْ قُرْنَاءٌ ليزينوا لهم ، وإنما قال (فزيينا لهم) فهو تعالى قيضا القرنان لهم بمعنى أنه تعالى

أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه ، ففيض أحد الزوجين الآخر والفقير والفقير للغنى ثم يعن  
تعالى أن بعضهم يزين المعاصي للبعض .

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه ، وهو أن من فعل فعلاً وعلم قطعاً أن ذلك الفعل  
يفضي إلى أثر ، فاعل ذلك الفعل يكون مريراً لذلك الأثر ، فهذا الله تعالى فيض أولئك القراءات لم  
وعلم أنه متى فيض أولئك القراءات لم يأتهم يقعون في ذلك الكفر والضلالة ، وما ذكره الجباني  
لا يدفع ذلك ، وقوله ولو أراد الله منهم المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين لله ، فلنا لو كان من فعل  
ما أراده غيره مطيناً له لوجب أن يكون الله مطيناً لعباده إذا فعل ما أرادوه ومعلوم أنه باطل ،  
وأيضاً لهذا إلزام لفظي لأنّه يقال إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد وهذا إلزام للشّيء على نفسه ،  
وإن أردت غيره فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا .

هي المسألة الثالثة اختلافوا في المراد بقوله (فزيروا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) وذكر  
الراجح فيه وجهين : (الأول) زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار  
وما خلفهم من أمر الدنيا ، زينوا أن الدنيا قدية ، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك  
(الثاني) زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه ، وعبر  
ابن زيد عنه ، فقال زينوا لهم ما من أفعالهم الخبيثة وما بقي من أعمالهم الحنيفة .

ثم قال تعالى (وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا  
خاسرين) فقوله في أمم في محل النصب على الحال من الضمير في عليهم أو التقدير حق عليهم القول  
حال كونهم كائنين في جملة (أمم) من المتقدّمين (إنهم كانوا خاسرين) واحتاج أصحابنا أيضاً بأنه  
تعالى أخبر بأن هؤلاء (حق عليهم القول) نلهم يكونوا كفاراً لأنقلب هذا القول الحق باطلاً وهذا  
العلم جهلاً ، وهذا الخبر الصدق كذباً ، وكل ذلك محال ومستلزم الحال محال ، فثبت أن صدور  
الإيمان عنهم ، وعدم صدور الكفر عنهم محال .

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئه من قوله (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إلينا) إلى  
قوله (فأعمل إيتنا عاملون) فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجهه من الأوجهة ، واتصل الكلام  
بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال (و قال الذين كفروا لا تسمعوا  
هذا القرآن والغواصي لعلمكم تغلبون) ، قال صاحب الكشاف قرئ (والغواصي) بفتح الغين وضمها  
يقال لني يانى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل منه .

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى ، وفي اللفظ وأن كل من سمعه وقف على  
جزءه الفاظه ، وأحاط عقله بمعانيه ، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول ، فدبروا انتدراً في  
منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم بعض (لاتسمعوا لهذا القرآن) إذا قرئ وتشاغلوا عند  
قراءته برمي الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة ، حتى تخلطوا على القارئ .

وتشوشوا عليه وتغلبوا على قرائته ، كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضاً ، والمراد افعلن عند تلاوة القرآن ما يكون لنوراً وباطلاً ، لتخرجوها قراءة القرآن عن أن تصير مفرومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبوا مهداً <sup>عليهم</sup> ، وهذا جهل منهم لفهمهم في الحال أقرروا بأنهم مشتغلون باللغو وبالباطل من العمل والله تعالى ينصر مهداً بفضلته ، ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال (فلنذيفن الذين كفروا عذاباً شديداً) لأن لفظ النحو إنما يذكر في القدر القليل الذي يؤمن به لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك النحو عذاب الشديد ، فإذا كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه ، ثم قال (ولنجزئهم أسوأ الذي كانوا يعملون) واختلفوا فيه فقال الآكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم ، وقال المحسن بل المراد أنه لا يجازيهم على محسنه أعمالهم ، لأنهم أحبطوا بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم ، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة ، فلا جرم لم يحصلوا إلا على جزاء السيئات .

ثم قال تعالى (ذلك جزاء أعداء الله النار) والمعنى أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة (ولنجزئهم أسوأ الذي كانوا يعملون) بين أن ذلك الأسوأ الذي جعل جزاء أعداء الله هو النار .

ثم قال تعالى (لهم فيما دار الخلد) أي لهم في جملة النار دار السيئات معينة وهي دار العذاب المخلد لهم (جزاء بما كانوا بأياتنا يجحدون) أي جزاء بما كانوا يلغون في القراءة ، وإنما سباه جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوا للحسد .

واعلم أنه تعالى لما بين أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء الموه بين أن الكفار عند الواقع في العذاب الشديد يقولون (ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس) والسبب في ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جنى وإنسى ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكلنبي عدواً شياطين الإنس والجن) وقال (الذي يوسمون في صدور الناس من الجنة والناس) وقيل مما إبليس وقائل لأن الكفر سنة إبليس ، والقتل بغیر حق سنة قايل .

وقری (أرنا) بسكون الراء لنقل الكسرة كما قالوا في نخذلخنز ، وقيل معناه أعطانا الذين أضلانا وحرکوا عن الخليل إنك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر ، فالمعني بصرينيه وإذا قلته بالسکون فهو استعطاه معناه أعطني ثوبك .

ثم قال تعالى (نجعلهم تحت أقدامنا) قال مقاتل ليكونان أسفل مناف النار (ليكونا من الأسفل) قال الزجاج : ليكونا في الدرك الأسفل من النار ، وكان بعض تلامذتي من يميل إلى الحكمة يقول المراد باللذين يضلال الشهوة والغضب ، وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله (أنجع فيهما من يفسد فيها ويصفك الدماء) ثم قال والمراد بقوله (نجعلهم تحت أقدامنا) يعني ياربنا أعننا حتى نحمل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية ، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرین للنفس القدسية مطعمين لها ، وأن لا يكونا مسئولين عليها ظاهرين لها .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا  
تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْحَنْنَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦﴾ نَحْنُ أُولَئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَتَّهَيْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا  
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا  
وَأَبْشِرُوا بِالْحَنْنَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولهم فيها ما شتهي  
أنفسكم ولهم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم .

اعلم أنه تعالى لما أطرب في الوعيد أردف بهذا الوعيد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه ، وقد ذكرنا مراراً أن الكحالات على ثلاثة أقسام النسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النسانية وأوسعها البدنية وأدنها الخارجية ، وذكرنا أن الكحالات النسانية محصورة في نوعين العلم اليقيني والعمل الصالح ، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته وألخير ل أجل العمل به ورأس المعرفة اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله (إن الذين قالوا ربنا الله) ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيما في الوسط غير مائل إلى طرف الإفراط والتفريط . كما قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وقال أيضاً (اهدنا الصراط المستقيم) وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله (ثم استقاموا) وسمعت أن القاريء قرأ في مجلس العبادى هذه الآية ، فقال العبادى : والقيمة في القيمة ، بقدر الاستقامة ، إذا عرفت هذا فتفوّل : قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فلما ذكر عقب ذلك القول الاستقامة علينا أن ذلك القول كان مقوّناً باليقين التام والمعرفة الحقيقة ، إذا عرفت هذا فتفوّل في الاستقامة قولهان (أحدما) أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة (الثاني) أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة أما على القول الأول فقيه عبارات : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ثم استقاموا أى لم يلتفتوا إلى إله غيره ، قال ابن عباس في بعض الروايات هذه الآية نزلت في أبي بكر رضى الله عنه ، وذلك أن أبي بكر رضى الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير بتة عن دينه ، فكان هو الذي قال (ربنا الله) وبقي مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الأسباب ، وأقول يمكن فيه وجوه أخرى ، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم لها بقيت له مقامات أخرى (فأولها)

أن يتغول في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ، ولا يتغول في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه ، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، وأيضاً يجب أن يبق على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر ، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم ، وهذا هو المراد من قوله (إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا) وأما على القول الثاني وهو أن تحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة ، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله (إن الذين قالوا ربنا الله) متناولًا للقول والاعتقاد ويكون قوله (ثم استقاموا) متناولًا للأعمال الصالحة .

ثم قال (تنزل عليه الملائكة) قيل عند الموت وقيل في موافق ثلاثة عند الموت وفي القبر وعندبعث إلى القيمة (أن لا تخافوا) أن يعني أي أو بمعنى من التقبلا وأصله أنه لا تخافوا والمهام تغير الشأن وأعلم أن الغاية الفضلى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ، ومعلوم أن دفع المضر أولى بالرعاية من جلب المصلحة ، والمضررة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي ، وهذا دقة عقلية وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضي ، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلًا ، فإذا وجد يصير حاضرًا ، فإذا عدم وفاته بعد ذلك يصير ماضيًّا ، وأيضاً المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولاً والماضي في كل حالة أبعد حصولاً ، ولهذا قال الشاعر :

فلا زال ماتهواه أقرب من غد ولا زال مانخشهأه أبعد من أمس

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية ، وأيضاً الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقيع حصول مضررة في المستقبل ، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قرة نفع كان موجوداً في الماضي ، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقلونه من أحوال القيمة ، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا ، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمناع بالكلية ، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى (وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فإن قيل البشرارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع ، فاما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثاني إخباراً ولا يكون بشارة ، والمؤمن قد يسمع بشارات الحير فإذا سمع المؤمن بهذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة ، فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشرارة ، قلنا المؤمن يسمع أن من كان مؤمناً تقلياً كان له الجنة ، أما من لم يسمع بذلك أنه من أهل الجنة فإذا سمع لهذا الكلام من الملائكة كان هذا إخباراً بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول كذلك فكان ذلك بشارة .

قوله تعالى : ومن أحسن قوله . سورة فصلت .

**وَمَنْ أَحَسَّ قَوْلًا مِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٧)**

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر عندبعث لا يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد ، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله (أن لا تخافوا ولا تخزنو) يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق .

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال (وَقِيضْنَا لَهُمْ فَرْنَاهُ ) ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية ، والمقامات الحقيقة ، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح يلقاها الوساوس فيها وتخيل الأباطيل إليها . ويقالجنة تكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلاقة ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، وال العلاقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لو لا أن الشياطين يحرون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملائكت السموات » فإذا زالت العلاقة الجسمانية والتدبيبات البدنية ، فقد زال الغظاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالتأثير ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، وهذا هو المراد من قوله (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ثم قال (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) قال ابن عباس : (ولكم فيها ما تدعون) أي ما تتمون ، كقوله تعالى (لم فيها فاكهة ولم ما يدعون) فإن قيل فعل هذا التفسير لا يبني فرق بين قوله (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) وبين قوله (ولكم فيها ما تدعون) قلنا : الأقرب عندى أن قوله (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) إشارة إلى الجنة الجسمانية ، و قوله (ولكم فيها ما تدعون) إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله (دعواهم فيها سبحانه الله وتحسنتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

ثم قال (نزلنا من غفور رحيم) والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال ، قال العارفون : دلت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية بجري النزل ، وال الكريم إذا أعطى النزل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها ، وثالث الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الخاصة عند الرؤبة والتجلی والكشف النام ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلاً بفضله وكرمه ، إنه قريب مجتب .

قوله تعالى : (وَمَنْ أَحَسَّ قَوْلًا مِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) :

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَّذِي  
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةً كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ (٣٧) وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا  
يُلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ (٣٨) وَإِمَّا يَنْزَغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ  
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٩)

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولـيـ حـمـيمـ ، وما يلقاـهاـ إـلـاـ الـذـيـنـ صـبـرـواـ وـماـ يـلـقـاـهـاـ إـلـاـ ذـوـ حـظـ عـظـيمـ ، وـإـمـاـ يـنـزـغـنـكـ مـنـ الشـيـطـانـ نـزـغـ فـأـسـتـعـدـ بـالـلـهـ . إـلـهـ، هـوـ السـمـيعـ الـعـلـيمـ ﴾ .  
اعلم أن في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول ( قلوبنا في أكنة مما ندعونا إلى ) ومرادم ألا نقبل قوله ولا ننتفت إلى دليلك ، ثم ذكرروا طريقة أخرى في السفاهة ، فقالوا ( لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه ) وإن سبحانه ذكر الأجروبة الشافية ، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ، ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتو بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتبع المواجهة على التبليغ والدعوة ، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكل الطاعات ورأس العبادات ، وعبر عن هذا المعنى فقال ( ومن أحسن قولًا من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنـىـ مـنـ الـمـسـلـيـنـ ) فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة . وفيه وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : النـامـ ، وفـوقـ النـامـ ، أما النـامـ : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لا جلـمـاـ يـصـيرـ كـامـلـاـ ذـاهـهـ ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتعل بعدها بتكثيل الناقصين وهو فوق النـامـ ، إذا عرفتـ هـذـاـ فـتـقـولـ إـنـ قـوـلـهـ ( إـنـ الـذـيـ قـالـواـ رـبـنـاـ اللـهـ ثـمـ اـسـتـقـامـواـ ) إـشـارـةـ إلىـ المرـتـبةـ الـأـوـلـىـ ، وهـيـ اـكـتـسـابـ الـأـحـوالـ الـنـفـسـ فـ جـوـهـرـهـاـ ، فإذا حـصـلـ الفـرـاغـ مـنـ هـذـهـ الـمـرـتـبةـ وجـبـ الـاتـقـالـ إـلـىـ الـمـرـتـبةـ الثـانـيـةـ . وهـيـ الـاشـتـغالـ بـتـكـثـيلـ النـاقـصـينـ ، وـذـلـكـ إـنـمـاـ يـكـوـنـ بـدـعـوـةـ الـخـلـقـ إـلـىـ الـدـيـنـ الـحـقـ ، وـهـوـ الـمـرـادـ مـنـ قـوـلـهـ ( وـمـنـ أـحـسـنـ ) قـوـلـاـ مـنـ دـعـاـ إـلـىـ اللـهـ ) فـهـذـاـ أـيـضاـ وـجـهـ حـسـنـ فـيـ نـظـمـ هـذـهـ الـآـيـاتـ .

واعلم أن من آتـاهـ اللـهـ قـرـيـحةـ قـوـيـةـ وـنـصـابـاـ وـأـفـيـاـ مـنـ الـعـلـومـ الإـلـاهـيـةـ الـكـشـنـيـةـ ، عـرـفـ أـنـ لـاـ تـرـتـيبـ أـحـسـنـ وـلـاـ أـكـلـ مـنـ تـرـتـيبـ آـيـاتـ الـقـرـآنـ .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال المراد من قوله ( وـمـنـ أـحـسـنـ قـوـلـاـ مـنـ دـعـاـ إـلـىـ اللـهـ )

هو الرسول ﷺ ، و منهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه ، وللدعوة إلى الله مراتب :

( فالمরتبة الأولى ) دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجده (أحدما) أنهم جعوا بين الدعوة بالحججة أولاً ، ثم الدعوة بالسيف ثانياً ، وقلما انفق لغيرهم الجميع بين هذين الطريقين (وأنهما) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل (وأنهما) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفي جوهرًا ، فكانت تأثيراتهما في إحياء القلوب الميتة واسراق الأرواح السكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل (واربعها) أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الأول) العوام (والقسم الثاني) هم الأولياء (والقسم الثالث) هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم « علماء أمتي ، كانوا نبياء بني إسرائيل » وإذا عرفت هذا فتقول : إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيةتان : الكمال في الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فتقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفاتان : العلم والقدرة ، أما العلماء ، فهم نواب الأنبياء في العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء في القدرة ، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد . وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله . والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله . أما العلماء بالله ، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم (يوقن الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوى خيراً كثيراً) وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاثة درجات لانهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لانهاية لها ، وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بياهاته عند وجوده وذلك ممثل قولنا المرتد يقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأنه ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعانٍ تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محظياً بها إلا أنه لا يريد بذلك المعانٍ الشريفة ، فهذا هو الكلام ، في مرتبة الدعوة إلى الله . ( المسألة الثالثة ) قوله ( ومن أحسن قوله ) يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل مساواها ، إذا عرفت هذا فتقول : كل ما كان أحسن الأفعال يجب أن يكون واجباً ، لأن كل مالا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، ثبت أن كل ما كان أحسن الأفعال فهو

واجب ، إذا عرفت هذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم يتبين أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول الأذان دعوة إلى الدعوة إليه واجبة فيفتح الأذان واجب ، وأعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المراد بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبتت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، يتبين من الشكل الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان .

المسألة الرابعة ) اختلاف الناس في أن الأولى أن يقول الرجل أنا المسلم أو الأولى أن يقول أنا مسلم إن شاء الله ، فالقائلون بالقول الأولى احتجروا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير ومن أحسن قولًا عن قال إنى من المسلمين ، فهم بأن هذا القول أحسن الأقوال ، ولو كان قولنا إن شاء الله يعتبرًا في كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية .

المسألة الخامسة ) الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (أو لها) الدعوة إلى الله (وثانيها) العمل الصالح (والثالثها) أن يكون من المسلمين ، أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية :  
وأما قوله (وعمل صالحًا) فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات .

وأما قوله (وقال إنتي من المسلمين) فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإفوار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصال أربعة (أحدها) الإفوار باللسان (والثانى) الأعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاستغفال بإقامة الحجة على دين الله ، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربع أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربع ليس إلا محمد ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ واعلم انا بينما أن الكلام من أول السورة ابتدئ من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا (تلوينا في أكنة مما ندعونا إليه) فأظهرروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أدائهم القدمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ ، ثم إنه تعالى أطلب في الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قوله (لا تسمعوا بما في القرآن والغواصيه) وأجاب عنها أيضًا بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطباب في الجواب عن تلك الشبهات رغب بمحداً ﷺ في أن لا يترك الدعوة إلى الله فابتداً أولاً بآن قال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلهم التراب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى

هذا المرض واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلاً سأله فقال إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة حظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعندها ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الأشكال فقال (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) والمراد بالحسنة دعوة الرسول عليه السلام إلى الدين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الاتقام ، وترك الانتقامات لهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلالة في قوله (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) وما ذكروه في قوله (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) فكانه قال يا محمد فملكت حسنة وفليهم سيئة ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة ، وم بالقصد من ذلك ، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاستغلال بهذه الحسنة .

ثم قال (ادفع باليتى هي أحسن) يعني ادفع سفاهتهم وجهائهم بالطريق الذى هو أحسن الطريق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحبوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال (إذا الذي يبنك وبينه عداوة كأنه ول حيم) يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأنتم لهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى الحبة ومن البغضنة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) قال الزجاج : أى وما يلاق هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائـد وكظم الغيظ وترك الاتقام .

ثم قال (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية ، فإن الاستغلال بالاتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثير النفس ، وتأثير النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس فاما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتعل بالاتقام ، فثبتت أن هذه السيرة التي شرحتها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ، ويختتم أن يكون المراد (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من ثواب الآخرة ، فعل هذا الوجه قوله (وما يلقاها إلا الذين صبروا) مدح بفعل الصبر ، وقوله (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وعد بأعظم الحظ من الثواب .

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والاتقام ، وفي ترك المقصومة ذكر عقبيه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً في هذا الباب ، فقال (إنما ينزعك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم) وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب الكشاف التزغ والنفع بمعنى واحد وهو شبه النسخ

وَمِنْ آيَاتِهِ الْلَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّهَارِ  
 وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكِبُرُوا  
 فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ  
 آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ  
 الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

والشيطان ينزع الإنسان ، كأنه ينفعه بيته على مالا يبني وجعل النزع نازعاً ، كما قيل : جد جده أو أريد ( وإنما ينزعك ) نازع وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالقصد من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعد بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم .

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ الْلَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّهَارِ وَأَسْجُدُوا  
 لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ، فَإِنْ أَسْتَكِبُرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ  
 وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ  
 إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبئاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبئات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هي العالم بجميع مانيه من الأجزاء والأبعاض ، فبدأ هنا بذكر الفلكيات وهي الليل والنهر وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهر تنبئاً على أن الظللة عدم ، والتور وجود ، والعدم سابق على الوجود ، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع ، فقد شرحاها في هذا الكتاب مراراً ، لا سيما في تفسير قوله ( الحمد لله رب العالمين ) وفي تفسير قوله ( الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ) .

ولما بين أن الشمس والقمر محدثان ، وما دليلان على وجود الإله القادر قال ( لا تسجدوا  
 للشمس ولا للقمر ) يعني أنها عبدان دليلان على وجود الإله ، والسجدة عبارة عن نهاية التعليم  
 الفخر الرازي - ج ٢٧ - ٩

فهي لاتليق إلا بنـ كـانـ أـشـرـفـ الـمـوـجـوـدـاتـ ، فـقـالـ (لا تـسـجـدـواـ لـلـشـمـسـ وـلـلـقـمـ) لأنـهـماـ عـبـادـانـ مـخـلـوقـانـ (وـاـبـجـدـواـ لـهـ) الـحـالـقـ الـقـادـرـ الـحـكـيمـ ، وـالـضـمـيرـ فـقـولـهـ (خـلـقـنـ) لـلـلـيـلـ وـالـنـهـارـ وـالـقـمـ ، لأنـ حـكـمـ جـمـاعـةـ ماـ لـاـ يـعـقـلـ حـكـمـ الـأـثـنـىـ أوـ الـإـنـاثـ ، يـقـالـ لـلـأـقـلـامـ بـرـيـتـهاـ وـبـرـيـتـهنـ ، وـلـمـ قـالـ (وـمـنـ آـيـاتـهـ) كـنـ فـيـ مـعـنـىـ الـإـنـاثـ فـقـالـ (خـلـقـنـ) وـلـمـاـ قـالـ (إـنـ كـنـتـ إـيـاهـ تـعـبـدـونـ) لأنـ نـاسـاـ كـانـوـاـ يـسـجـدـونـ لـلـشـمـسـ وـالـقـمـ كـالـصـابـئـينـ فـيـ عـبـادـتـهـمـ السـكـوـاـكـ وـبـرـيـعـمـونـ أـنـهـمـ يـقـصـدـونـ بـالـسـجـودـ لـهـماـ السـجـودـ لـهـ فـهـوـاـ عـنـ هـذـهـ الـوـاسـطـةـ وـأـمـرـوـاـ أـنـ لـاـ يـسـجـدـوـاـ إـلـاـ لـهـ الـذـيـ خـلـقـ الـأـشـيـاءـ ، فـيـنـ قـيلـ إـذـاـ كـانـ لـاـ بـدـ فـيـ الصـلـةـ مـنـ قـبـلـةـ مـعـيـنـةـ ، فـلـوـ جـعـلـنـاـ الشـمـسـ قـبـلـةـ مـعـيـنـةـ عـنـ السـجـودـ كـانـ ذـلـكـ أـوـلـىـ ، فـلـنـاـ الشـمـسـ جـوـهـرـ مـشـرـقـ عـظـيمـ الرـفـعـ عـالـيـ الـدـرـجـةـ ، فـلـوـ أـذـنـ الشـرـعـ فـيـ جـعـلـهـ قـبـلـةـ فـيـ الـصـلـوـاتـ ، فـعـنـدـ اـعـتـيـادـ السـجـودـ إـلـىـ جـانـبـ الشـمـسـ رـبـاـ غـلـبـ عـلـىـ الـأـوـهـامـ أـنـ ذـلـكـ السـجـودـ لـلـشـمـسـ لـهـ ، فـلـأـجـلـ الـخـوفـ مـنـ هـذـاـ الـمـخـذـورـنـىـ الشـارـعـ الـحـكـيمـ عـنـ جـعـلـ الشـمـسـ قـبـلـةـ لـلـسـجـودـ ، بـخـلـافـ الـحـجـرـ الـمـعـيـنـ فـاـنـهـ لـيـسـ فـيـ مـاـ يـوـمـ الـإـلـهـيـةـ ، فـكـانـ الـمـقـصـودـ مـنـ الـقـبـلـةـ حـاـصـلـاـ وـالـمـخـذـورـ الـمـذـكـورـ زـائـلـاـ فـكـانـ هـذـاـ أـوـلـىـ ، وـاعـلمـ أـنـ مـذـهـبـ الشـافـعـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ مـوـضـعـ السـجـودـ هـوـ قـولـهـ (تـعـبـدـونـ) لـأـجـلـ أـنـ قـولـهـ (وـاـبـجـدـواـ لـهـ) مـتـصـلـ بـهـ ، وـعـدـ أـنـ حـنـيـفـةـ هـوـ قـولـهـ (وـمـ لـاـ يـسـأـمـونـ) لـأـنـ الـكـلـامـ إـنـاـ يـمـ عـنـهـ .  
ثـمـ إـنـهـ تـعـالـىـ لـمـاـ أـمـرـ بـالـسـجـودـ قـالـ بـعـدـهـ (فـيـنـ أـسـتـكـبـرـوـاـ فـالـذـينـ عـنـ رـبـكـ يـسـبـحـونـ لـهـ بـالـلـيـلـ وـالـنـهـارـ وـمـ لـاـ يـسـأـمـونـ) وـفـيـهـ سـؤـالـاتـ :

(الـسـؤـالـ الـأـوـلـ) إـنـ الـذـينـ يـسـجـدـونـ لـلـشـمـسـ وـالـقـمـ يـقـولـونـ نـحـنـ أـقـلـ وـأـذـلـ مـنـ أـنـ يـعـصـلـ لـاـ أـهـلـيـةـ عـبـودـيـةـ اللـهـ تـعـالـىـ ، وـلـكـنـاـ عـبـدـيـةـ اللـهـ وـمـاـ عـبـادـانـ اللـهـ ، وـإـذـاـ كـانـ قـولـ مـؤـلـاـهـ مـكـذاـ ، فـكـيـفـ يـلـيقـ أـنـ يـقـالـ إـنـهـمـ أـسـتـكـبـرـوـاـ عـنـ السـجـودـ لـهـ ؟ (الـجـوابـ) لـيـسـ الـمـرـادـ مـنـ لـفـظـ الـأـسـتـكـبـارـ مـاـذـكـرـمـ ، بلـ الـمـرـادـ فـيـنـ أـسـتـكـبـرـوـاـ عـنـ قـبـولـ قـولـكـ يـأـمـدـفـ فـيـ النـهـيـ عـنـ السـجـودـ لـلـشـمـسـ وـالـقـمـ .

(الـسـؤـالـ الثـانـىـ) أـنـ الـمـشـبـهـ تـمـسـكـوـاـ بـقـولـهـ (فـالـذـينـ عـنـ رـبـكـ) فـيـ إـنـيـاتـ الـمـكـانـ وـالـجـهـةـ اللـهـ تـعـالـىـ (الـجـوابـ) أـنـهـ يـقـالـ عـنـدـ الـمـلـكـ مـنـ الـجـنـدـ كـذاـ وـكـذاـ ، وـلـاـ يـرـادـ بـهـ قـرـبـ الـمـكـانـ . فـكـذاـ هـنـاـ . وـيـدـلـ عـلـيـهـ قـولـهـ «أـنـاـ عـنـدـ ظـنـ عـبـدـيـ بـيـ» ، وـأـنـاـ عـنـدـ الـمـنـكـسـرـةـ فـلـوـهـمـ لـأـجـلـ ، فـقـعـدـ صـدـقـ عـنـدـ مـلـيـكـ مـقـتـدـرـ » وـيـقـالـ عـنـ الشـافـعـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ الـمـسـلـمـ لـاـ يـقـتـلـ بـالـذـمـىـ .

(الـسـؤـالـ الثـالـثـ) مـلـ تـدـلـ هـذـهـ الـآـيـةـ عـلـىـ أـنـ الـمـلـكـ أـفـضـلـ مـنـ الـبـشـرـ ؟ (الـجـوابـ) نـعـمـ ، لأنـهـ إـنـاـ يـسـتـدـلـ بـحـالـ الـأـعـلـىـ عـلـىـ حـالـ الـأـدـوـنـ ، فـيـقـالـ مـؤـلـاـهـ الـأـقـرـامـ إـنـ أـسـتـكـبـرـوـاـ عـنـ طـاعـةـ فـلـانـ فـالـأـكـبـرـ يـخـدـمـوـهـ وـيـتـرـفـونـ بـقـدـمـهـ ، ثـبـتـ أـنـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـأـسـتـدـلـالـ إـنـاـ يـمـسـنـ بـحـالـ الـأـعـلـىـ عـلـىـ حـالـ الـأـدـوـنـ .

(الـسـؤـالـ الرـابـعـ) قـالـ هـنـاـ فـيـ صـفـةـ الـمـلـاـكـ (يـسـبـحـونـ بـالـلـيـلـ وـالـنـهـارـ) فـهـنـاـ يـدـلـ عـلـىـ

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَيَّتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مَّنْ يَأْتِيَءَمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ

أنهم مواطنون على التسبيح، لا ينكرون عنه لحظة واحدة ، واشتعالهم بهذا العمل على سهل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال كثونهم ينزلون إلى الأرض كما قال (نزل به الروح الأمين على قلبك ) وقال ( ونبههم عن ضيف إبراهيم ) قوله تعالى ( عليها ملائكة غلاظ شداد ) الجواب أن الذين ذكرهم الله تعالى هنأ بكونهم مواطنين على التسبيح أنواع معينون من الملائكة ومم الإشراف الأكبر منهم ، لأن الله تعالى وصفهم بكونهم عنده ، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة ، وهذا لا ينافي كون طائفتين أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال ، فإن قالوا هل أن الأمر كذلك إلا أنهم لا بد وإن يتنفسوا ، فاشتعالهم بذلك التنفس يصدم عن تلك الحالة من التسبيح فلنا كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالم في حياتهم ، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستنراها في معارج معارف الله بأحوال البشر ، فإن بين الحالتين بعد المشرقين .

ثم قال تعالى ( ومن آياته أنك ترى الأرض خائفة ) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلسفية وهي الليل والنهر والشمس والقمر ، أتبعها بذكر آية أرضية فقال ( ومن آياته أنك ترى الأرض خائفة ) والخشوع التذلل والتصاغر ، واستعير هذا اللفظ حال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ( فإذا أزرتنا عليها الماء اهتزت ووربت ) أي تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن البذت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال ( إن الذي أحياها لم يحيي الموتى ) يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجسام بعد موتها ، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مراراً لاحصر لها ، ثم قال ( إنه على كل شيء قدير ) وهذا هو الدليل الأصلي وتقريره إن عردة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة يمكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر يمكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، فوجب أن يكون قادرًا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجسام يمكن لا امتانع فيه البة ، والله أعلم .

قوله تعالى : «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفن يلقى في النار خيرًا من يأتِيءنا يوم القيمة أعملوا ما شئتم إنهم ب بصير » إن الذين

كَفَرُوا بِاللَّهِ كَرِيمًا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكَتَبَ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ  
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

عزيز ، لا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .  
اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعلم بأعظم المناصب وأشرف المراتب ، ثم بين  
أن الدعوة إلى دين الله تعالى ، إنما تحصل بذلك دلائل التوحيد والعدل وصحة البصائر والقيامة ،  
عاد إلى تهديد من ينماز في تلك الآيات ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها ، فقال (إن الذين يلحدون في  
في آياتنا) يقال أخذ الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فخر في شق ، فالمحد هو المحرف ، ثم  
بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل ، و قوله (لا يخونون علينا) تهديد كما إذا قال  
الملك المبيب : إن الذين ينمازون في ملكي أعرفهم ، فإنه يكون ذلك تهديداً ، ثم قال (أفن يلقى في  
النار خير من يأْتِي آمناً يوم القيمة) وهذا استفهام بمعنى التقرير ، والغرض التنبية على أن الذين  
يلحدون في آياتنا يلقون في النار ، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيمة . ثم قال (اعملوا  
ما شئتم إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) وهذا أيضاً تهديد ثالث ، ونظيره ما يقوله الملك المبيب عند الغضب  
الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم (اعملوا ما شئتم) فإن هذا مما يدل على الوعيد  
الشديد .

قوله تعالى : «إن الذين كفروا بالذكر لـما جاءهم» وهذا أيضاً تهديد ، وفي جوابه وجهاً :  
(أعدهما) أنه محفوظ كسائر الأجرة المخنوقة في القرآن على تقدير (إن الذين كفروا بالذكر  
لـما جاءهم) يجازون بكلفthem أو ما أشبه ذلك (والثانى) أن جوابه قوله (أولئك ينادون من  
مكان بعيد) والأول أصوب ، ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبه ببيان  
تعظيم القرآن ، فقال (ولإِنَّه لِكَتَبَ عَزِيزٌ) والعزيز له معنيان (أحدهما) الغالب القاهر (والثانى)  
الذى لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً ، فالامر كذلك لأن الأولين والآخرين  
غلب على كل متساوٍ ، وأما كونه عزيزاً بمعنى عديم النظير ، فالامر كذلك لأن الأولين والآخرين  
مبعزواً عن معارضته ، ثم قال (لَا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) وفيه وجهه : (الأول)  
لانكذبة الكتب المنقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجيء كتاب من بعده يكتتبه  
(الثانى) ما حكم القرآن بكونه حتاً لا يصير باطلاً ، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حتاً (الثالث)  
معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فتأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزداد فيه فتأتيه الباطل من  
خلفه . والدليل عليه قوله (ولإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فعل هذا الباطل هو الزيادة والتقصان (الرابع)  
يمكن أن يكون المراد أنه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معاوضاً له ولم يوجد فيما تقدم

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ  
 أَلِيمٍ ﴿٢﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ  
 قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي أَذْانِهِمْ وَقُرْآنٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ  
 عَمَّى أُولَئِكَ يُنَادِونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ  
 فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَلَا هُمْ لَنِي شَكَرُ  
 مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿٤﴾ مِنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ  
 لِلْعَيْدِ ﴿٥﴾

كتاب يصلح به معارضاته (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل ، والمقصود أن (الباطل)  
 لا ينطرق إلى ، ولا يهدى إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه .

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتاج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه لأن النسخ إبطال  
 فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلمه وإنه على خلاف هذه الآية .

ثُمَّ قال تعالى ( تَزَبَّلَ مِنْ حَكِيمٍ حَيْدَ ) أى حكيم في جميع أحواله وأفعاله ، حيد إلى جميع خلقه  
 بسبب كثرة نعمه ، ولهذا السبب جعل ( الحمد لله رب العالمين ) فاتحة كلامه ، وأخبر أن عامة كلام  
 أهل الجنة ، وهو قوله ( الحمد لله رب العالمين ) .

قوله تعالى : مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ إِلَيْهِ ،  
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ  
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي أَذْانِهِمْ وَقُرْآنٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ  
 مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَلَا هُمْ لَنِي شَكَرُ ،  
 مِنْ حَلْ صَالِحًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ .

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب  
 الله رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصر على أذى قومه وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه ضدهم  
 في أول السورة من أنهم ( قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ) إلى قوله ( فاعمل إتنا عاملون )

قال (ما يقال لك إلا ما ند قيل للرجل من قبلك) وفيه وجاهان : (الأول) وهو الأقرب أن المراد ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرجل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والطاعن في الكتب المنزلة (وإن ربكم لن هو مغفرة للحقين (وفو عتاب أليم) للبطالين قوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى (الثاني) أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الآنباء بالصبر على بسفاهة الأقوام فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته وبخافه أهل معصيته ، وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة ، هو ذكر الأرجوبة عن قوله (وقالوا قلوبنا في أكبته ما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر و من بيننا وبينك حجاب فاعمل إتنا عاملون ) فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعد والوعيد لم يؤمن بهذا القرآن ولم يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذا الموضوع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل . ثم إنه تعالى ذكر جواباً آخر عن قوله (وقالوا قلوبنا في أكبته ما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر) فقال (ولو جعلناه قرآنًا أجمعياً لقالوا لا ولا فصلت آياته الأجمي وعربية ) وفيه مسائل :

هي المسألة الأولى ) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : الأجمي بهمزتين على الاستفهام ، والباقيون بهمزة واحدة ومرة على أصلهم في أمثاله ، كقوله (الأندرتهم) ونحوها على الاستفهام ، وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة ، وأما القراءة بهمزتين : فالهمزة الأولى همزة إنكار ، والمراد أنكروا و قالوا القرآن أجمي ورسول عربي ، أو مرسل إليه عربي ، وأما القراءة بغير همزة الاستفهام ، فالمراد الإخبار بأن القرآن أجمي والمرسل إليه عربي .

هي المسألة الثانية ) نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لاجل التعتن ، قالوا النزول القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية ، وعندى أن أمثل هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ، لأنها يقتضى ورود آيات لا تتعلق البعض فيها بالبعض ، وأنه يجب أحظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعا . كونه كتاباً متظلاً ، فضلاً عن ادعا . كونه معجزاً ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أوها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكم الله تعالى بهم من قوله (قلوبنا في أكبته ما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر) وهذا الكلام أيضاً متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا نزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب ، ويصبح لهم أن يقولوا (قلوبنا في أكبته ما تدعونا إليه) أي من هذا الكلام (وفي آذاننا وقر) منه لأننا لانفهمه ولا نحيط بمعناه ، أما ما نزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنت من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنكم ادعا أن قلوبكم في أكبته منها ، وفي آذانكم وقر منها ، ظاهر أننا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أوها إلى آخرها على أحسن وجه النظم ، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جداً .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْبًا وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَنِ الْأُولَئِكَ يَنادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

واعلم أن هذا متعلق بقولهم (وقلوا قلوبنا في أكنة ما ندعونا إليه) إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة ، فبقي أن يقال إن كل من آتاه الله طبعاً مائلاً إلى الحق ، وقلباً مائلاً إلى الصدق ، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين ، فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء . أما كونه (هدي) فالأدلة دليل على الخيرات وبرشد إلى كل السعادات ، وأما كونه (شفاء) فإنه إذا أمكنه الاهتمام فقد حصل المهدى ، فذلك المهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من كان غارقاً في بحر الخذلان ، وتأثراً في مفاوز الحرمان ، ومشغولاً بمتابة الشيطان ، كان هذا القرآن في آذانه وقرأ ، كما قال (وفي آذاننا وقر) وكان القرآن عليهم (عني) كما قال (ومن بيننا وبينك حجاب ، أولئك ينادون من مكان بعيد) بسبب ذلك الحجاب الذي حال بين الاتصال وبين القرآن ، وكل من أتصف ولم يتعرف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الزوج الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أو لها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوحاً نحو غرض واحد ، فيكون هذا التفسير أولى ما ذكروه ، وقرأ الجمهور ( وهو عليهم عني ) على المصدر ، وقرأ ابن عباس عم على النعت ، قال أبو عبيدة والأول هو الوجه ، كقوله (هدي وشفاء) وكذلك (عني) هو مصدر مثلها ، ولو كان المذكور أنه هاد وشاف لكان الكسر في (عني) أجود فيكون نعتاً مثلهما ، قوله تعالى (أولئك ينادون من مكان بعيد) قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء ، وقيل من دعى من مكان بعيد لم يسمع ، وإن سمع لم يفهم ، فكذا حال هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وأقول أيضاً إن هذا متعلق بما قبله ، كأنه قبل إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ورده الآخرون ، فكذلك آتيناكم هذا الكتاب قبله بعضهم وهم أصحابك ، ورده الآخرون ، ومَنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ (قلوبنا في أكنة ما ندعونا إليه) .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلَمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيمة ، كما قال (بل الساعة موعد لقضى بينهم) يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وإنهم لفي شك من صدقك وكتابك مرتب ، فلا ينبغي أن تستعظام استيحاشك من قوله (قلوبنا في أكنة ما ندعونا إليه) .

ثم قال ﴿مَنْ عَدَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَأَهُ فَعَلَيْهَا﴾ يعني خفف على نفسك إن ارتكبوا ، فإنهم إن آمنوا فتفع إيمانهم يعود عليهم ، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ( وما ربك بظلام للعبيد ) .

تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاؤِيْ فَالْوَأْذَنَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٢٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلٍ وَظَنُّوا مَالَهُمْ مِنْ حَمِصٍ (٢٨) لَا يَسْمُعُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ أَخْيَرٍ وَإِنْ مَسَهُ الشَّرُّ فَيَعُوْسُ قَنُوطٌ (٢٩) وَلَئِنْ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظْلَمُ الْسَّاعَةَ قَاتِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَهُسْنَى فَلَنْتَبِّعَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٣٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَنَعَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيَضٍ (٣١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوكُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٣٢) سَرِّيْهُمْ أَبَيْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرْدَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ أَكَامَهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاؤِيْ فَالْوَأْذَنَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٢٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلٍ وَظَنُّوا مَالَهُمْ مِنْ حَمِصٍ (٢٨) لَا يَسْمُعُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ أَخْيَرٍ وَإِنْ مَسَهُ الشَّرُّ فَيَعُوْسُ قَنُوطٌ (٢٩) وَلَئِنْ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظْلَمُ الْسَّاعَةَ قَاتِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَهُسْنَى فَلَنْتَبِّعَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٣٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَنَعَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيَضٍ (٣١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوكُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٣٢) سَرِّيْهُمْ أَبَيْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

**شَيْءٌ شَهِيدٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**

ألا إنهم في ميرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط .

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله (من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعلها) ومنناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيمة ، وكانت سائلاً قال ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله ، فقال (إليه يرد علم الساعة) وهذه الكلمة تفيد الحسر أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله ، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله فكذلك العلم بحدث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى ، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثاليين (أحد هما) قوله (وما تخرج من ثمرات من أكالمها) (والثانى) قوله ( وما تحمل من أثني ولا تضع إلا بعلمه ) قال أبو عبيدة أكالمها أو عيتها وهي ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكثرة ، فرأى نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالآلاف على الجمجم والباقيون من ثمرة بغير ألف على الواحد .

واعلم أن نظرية هذه الآية قوله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) إلى آخر الآية ، فإن قيل أليس أن المتجهين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالاً كثيرة من أحوال العالم ، وكذلك قد يتعرفون من طوال الناس أشياء من أحوالهم ، وهنها شيء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة وأيضاً علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات ، فكيف الجمع بين هذه المعلوم المشاهدة وبين هذه الآية ؟ فلذا إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء من المطالب البالغة وإنما الغاية للقصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور في هذه الآية أن عليها ليس إلا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المناقاة والمعاندة والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما ذكر القيمة أرده ب شيئاً من أحوال يوم القيمة ، وهذا الذي ذكره هنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به في أول السورة ، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استئناف القرآن إنما حصلت من أجل أن **محمدًا** عليه السلام كان يدعوم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان بدليل أنه قال في أول السورة (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنا إلهكم إله واحد) فذكر في خاتمة السورة وعبيد القاتلين بالشركاء والأنداد قال (ويوم يناديهم فيقول أين شركاؤك) أي بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا (آذنناك) قال ابن عباس أسمناك كقوله تعالى (وأذنت لربها وحقها) بمعنى سمعت ، وقال الكلبى أعنانك وهذا بعيد ، لأن أهل القيمة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء على ما واجها ، فالإعلام في حقه ع الحال .

ثم قال (ما منا من شهيد) وفيه وجوه (الأول) ليس أحد منا يشهد بأن لك شريك ، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبررون من إثبات الشريك له تعالى (الثانى) ما منا من أحد يشاهد لازهم

ضلوا عنهم وضلوا هنهم آلمتهم لا يصر ونها في ساعة التوين (الثالث) أن قوله (ما مننا من شديد) كلام الأصنام قلن آتى بعيبها ، ثم إنها تقول ما من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة ، وعل هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال (وضلوا مالم من عيوب ) وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول إن الكفار ضلوا أولاً ثم أيقنوا أنه لا يعيوب لهم عن النار والعقاب ، ومنهم من قال إنهم ضلوا أولاً أنه لا يعيوب لهم عن النار ثم أيقنوا بذلك بعده ، وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم ، ولما بين الله تعالى من حال مؤلاه الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرین على القول بآيات الشرك ، والأضداد فيه في الدنيا تبرأوا عن تلك الشرك ، في الآخرة بين أن الإنسان في جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المزاج ، فإن أحسن بخير وقدرة اتفخ ونعم وإن أحس بيله وعنة ذبل ، كما قبل في المثل : إن هذا كالقرني ، إن رأى خيراً تدل ، وإن رأى شرًا تول ، فقال (لابسأ الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيتوس قوط ) يعني أنه في حال الإقبال وبجي ، المرادات لا ينتهي فقط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها ، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قاططاً ، فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له إلى هذا اليأس الكلي يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفي قوله (يتوس قوط) مبالغة من وجهين (المحدثون) من طريق بناء فعل (والثانى) من طريق التكرر واليأس من صفة القلب ، والقطوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة .

ثم بين تعالى أن هذا الذي صار آيساً قاططاً لو عاودته النعمة والدولة ، وهو المراد من قوله (ولئن أذقاه رحمة منا من بعد ضراء مسته) فإن هذا الرجل يأتي ثلاثة أنواع من الآثار أو بليل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر وبعد عن الله تعالى (فأولها) أنه لا بد وأن يقول هذا لي وفيه وجهاً (الأول) معناه أن هذا حقيقة وصل إلى ، لأن استوجهته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً ، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصفاً بشيء من الفضائل والصفات الحميدة ، فهو بأسر ما إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه ، وإذا تفضل الله بشيء على بعض عبيده ، امتنع أن يصير قدره عليه بتلك العطية شيئاً لأن يستحق على الله شيئاً آخر ، ثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاق (والوجه الثاني) أن هذا لي أي لا يزول عن وبيق على وعل أولادي وذربي .

{ والنوع الثانى } من كلامهم الفاسدة أن يقول (وما أظن الساعة قائمة) يعني أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فإذا آتى الأمر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لي وإذا آتى الأمر إلى الآخرة يقول (وما أظن الساعة قائمة) .

{ والنوع الثالث } من كلامهم الفاسدة أن يقول (ولئن رجمت إلى ربى إن لي عنده للحسن)

يعنى أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيمة باطل ، وبتقدير أن يكون حقاً فإن لي عنده الحسنى ، وهذه الكلمة تدل على جزهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه (الأول) أن كلمة إن تفيد التأكيد (الثانى) أن تقديم كلمة لـ تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله (عنه) يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئه عنده كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير ، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده ، فلو قلت إن لي عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (والرابع) اللام في قوله (للحسنى) تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال في الحسنى .

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة أحسدة قال (فَلَنْبَئُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا عَمِلُوا) أى نظير لمـ أنـ الـأـمـرـ عـلـىـ ضـدـمـاـ اـعـقـدـوـهـ وـعـلـىـ عـكـسـ مـاـ تـصـورـوـهـ كـاـقـالـ تـعـالـىـ (وـقـدـمـنـاـ إـلـىـ مـاـعـلـوـاـ) مـنـ حـلـ بـعـلـنـاهـ هـبـاـ مـتـشـوـرـاـ ،ـ وـلـنـذـيـقـنـهـ مـنـ عـذـابـ غـلـيـظـ )ـ فـيـ مـقـاـلـةـ قـوـلـمـ (ـ إـنـ لـيـ عـنـهـ لـلـحـسـنـىـ)ـ .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال (وإذا أنسنا على الإنسان أغرض) عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (ونـأـيـ بـجـانـبـهـ) أى ذهب بنفسه وتسكبـ وتعظمـ ، ثم إن مـسـهـ الضـرـ وـالـفـقـرـ أـفـيلـ عـلـىـ دـوـامـ الدـعـاءـ وأـخـذـ فـيـ الـأـبـهـالـ والتـضـرـعـ ،ـ وـقـدـ اـسـتـعـيـرـ العـرـضـ لـكـثـرـةـ الدـمـاءـ وـدـوـامـهـ وـهـوـ مـنـ صـفـاتـ الـأـجـرـامـ وـيـسـتـعـارـ لـهـ الـطـوـلـ أـيـضاـ كـاـ اـسـتـعـيـرـ الغـلـظـ لـشـدـةـ العـذـابـ .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيمة ، وينظرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاه الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جبل على التبدل ، فإن وجـدـ لـنـفـسـهـ قـوـةـ بـالـغـ فـيـ التـكـبـرـ وـالـتـعـظـمـ ،ـ وـإـنـ أـحـسـ بـالـفـتـورـ وـالـضـعـفـ بـالـغـ فـيـ إـظـهـارـ الـذـلـةـ وـالـمـسـكـنـةـ ذـكـرـ عـقـيـهـ كـلـاـمـ آـخـرـ يـجـبـ عـلـىـ هـؤـلـاـ الـكـفـارـ أـنـ لـاـ يـالـغـواـ فـيـ إـظـهـارـ النـفـرـةـ مـنـ قـبـلـ التـوـحـيدـ ،ـ وـأـنـ لـاـ يـفـرـطـواـ فـيـ إـظـهـارـ الـعـدـاوـةـ مـعـ الرـسـوـلـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـقـالـ (ـقـلـ أـرـأـيـتـ إـنـ كـانـ مـنـ عـنـدـ اللـهـ ثـمـ كـفـرـتـ بـهـ مـنـ أـضـلـ مـنـ هـوـ فـيـ شـقـاقـ بـعـدـ)ـ وـتـقـرـيرـ هـذـاـ الـكـلـامـ أـنـكـمـ كـلـاـمـ سـمـعـتـ هـذـاـ الـقـرـآنـ أـعـرـضـتـ عـنـهـ وـمـاـنـأـلـمـ فـيـهـ وـبـالـفـتـمـ فـيـ النـفـرـةـ عـنـهـ حـتـىـ فـلـمـ (ـقـلـوـنـاـ فـيـ أـكـنـةـ مـاـنـدـعـنـاـ إـلـيـهـ وـفـيـ آـذـانـاـ وـقـرـ)ـ ثـمـ مـنـ الـمـلـوـمـ بـالـضـرـورـةـ أـنـ لـيـسـ الـعـلـمـ بـكـوـنـ الـقـرـآنـ بـاطـلاـ عـلـمـاـ بـدـيـهـاـ ،ـ وـلـيـسـ الـعـلـمـ بـفـسـادـ الـقـوـلـ بـالـتـوـحـيدـ وـالـنـبـوـةـ عـلـمـاـ بـدـيـهـاـ ،ـ فـقـبـلـ الـدـاـلـيـلـ يـحـتـمـ أـنـ يـكـوـنـ حـسـيـحاـ وـأـنـ يـكـوـنـ فـاسـداـ فـيـتـقـدـيـرـ أـنـ يـكـوـنـ حـسـيـحاـ كـانـ إـصـرـارـكـمـ عـلـىـ دـفـهـ مـنـ أـعـظـمـ مـوـجـبـاتـ الـعـقـابـ ،ـ أـمـذـاـ الطـرـيقـ يـوـجـبـ عـلـيـكـمـ أـنـ تـنـزـكـرـاـ هـذـهـ النـفـرـةـ ،ـ وـأـنـ تـرـجـعـرـاـ إـلـىـ النـظـرـ وـالـاـسـتـدـلـالـ فـانـ دـلـ الـدـاـلـيـلـ عـلـىـ صـحـتـهـ قـبـلـمـرـهـ ،ـ وـإـنـ دـلـ عـلـىـ فـسـادـهـ تـرـكـتـوـهـ ،ـ فـأـمـاـ قـبـلـ الـدـاـلـيـلـ فـالـإـصـرـارـ عـلـىـ الدـفـعـ وـالـإـعـرـاضـ بـعـدـ عـنـ الـعـقـلـ ،ـ وـقـوـلـهـ (ـمـنـ هـوـ فـيـ شـقـاقـ بـعـدـ)ـ مـوـضـعـ مـوـضـعـ مـنـكـمـ يـيـاـنـاـ لـحـاـلـمـ وـصـفـاتـهـ ،ـ وـلـاـ ذـكـرـ هـذـهـ الـوـجـوهـ الـكـثـيـرـةـ فـيـ تـقـرـيرـ التـوـحـيدـ وـالـنـبـوـةـ ،ـ وـأـجـابـ عـنـ شـبـهـاتـ

المرشّكين وتمويهات الصالين قال (سفيهيم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) قال الواحدى وأحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحى الأرض ، وكذلك آفاق السماء . نواجهها وأطراقها ، وفي تفسير قوله (سفيهيم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) قوله (الأول) أن المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكونية وآيات الليل والنهار وآيات الأصوات والإضلال والظلمات وآيات عالم العناصر الأربع وآيات المواليد الثلاثة ، وقد أكثر الله منها في القرآن ، و قوله (وفي أنفسهم) المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلبات الارحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، كما قال تعالى (وفي أنفسكم أفلأ تبصرون) يعني نزيرهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المازه عن المثل والضد ، فإن قيل هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى (سفيهيم) يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك ثبت أنه تعمد حل هذا اللفظ على هذا الوجه ، قلنا إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء بما لا نهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً ، ومثاله كل أحد رأى بيته بنيته الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يرثونها ، والذي وقف على شيء منها فكلها ازداد وقرفاً على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله (سفيهيم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) (والقول الثاني) أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقاتلون بهذا القول رجحوه على القول الأول لأجل أن قوله (سفيهيم) يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله (سفيهيم) لائق بالوجه الأول كما قررناه ، فإن قيل حل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أنصى ما في الباب أن صل الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ، ثم استولى على مكة ، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستول عتتاً ، فإذا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكيهم ، وذلك لا يدل على كونهم محتلين ، وهذا السبب قلنا إن حل الآية على الوجه الأول أولى ، ثم نقول إن أردنا تصحيح هذا الوجه ، قلنا إننا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محققاً في ادعاء النبوة ، بل نستدل به من حيث أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولى عليها ويقرر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء ، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره ، فيكون هنا إخباراً صدقه عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة ، بهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقاً .

نم قال (أو لم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد) و قوله (ربك) في موضع الرفع على أنه

فاعل (يَكْفُ) و (أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) بدل منه ، و تقديره : أَوْلَمْ يَكْفُمُهُ أَنْ رَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، وَمَعْنَى كُونَهُ تَعَالَى شَهِيداً عَلَى الْأَشْيَايْهِ أَنَّهُ خَلَقَ الدَّلَائِلَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرْ شَهَادَةَ قَلْ أَنَّهُ) وَالْمَعْنَى أَنَّمَا تَكْفُمُهُ هَذِهِ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي أَوْفَهَا أَنَّهُ تَعَالَى وَقَرَرَهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي كُلِّ سُورَةِ الْقُرْآنِ الدَّالِلَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيْهِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبُوَّةِ .

نَمْ خَتَمَ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيهٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ) أَيْ أَنَّ الْقَوْمَ فِي شَكٍ عَظِيمٍ وَشَبَهَ شَدِيدَةً مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، وَقَرَىءَ (فِي مَرِيهٍ) بِالضَّمِّ .

ثُمَّ قَالَ (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَمِيطٌ) أَيْ عَالَمُ بِجُمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي لَا نَهَايَةَ لَهَا فَيُطْمِنُ بِوَاطِنِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَظَلَّوْهُمْ ، وَيَحْمَازُهُمْ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى فَعْلَمِهِ بِحَسْبِ مَا يُلْيِقُ بِهِ إِنْ خَيْرًا خَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ فَإِنْ قَبِيلَ قَوْلِهِ (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَمِيطٌ) يَقْتَضِي أَنَّ تَكُونَ عِلْمَهُ مُتَنَاهِيَّةً ، فَقَدْ قَوْلَهُ (بِكُلِّ شَيْءٍ حَمِيطٍ) يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ عَلَيْهِ حَمِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَايْهِ فَهَذَا يَقْتَضِي كَوْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَنَاهِيًّا ، لَا كَوْنَ بِعْرُوهَهَا مُتَنَاهِيًّا ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

تُمَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ السُّورَةِ وَمُوقِتُ ظَهُورِ الرَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةُ ثَلَاثَ وَسَيْئَةٍ وَالْمَدْ

قَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَاتُهُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّنَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

(٤٢) شِورَةُ الشَّوْرِيِّ فِكِيَّةٌ  
وَأَنْيَانِهَا تَلَاثٌ وَخَيْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ عَسَقَ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمُ نَكَادُ  
السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ  
لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ  
أُولَئِكَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ، عَسَقَ، كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمُ، نَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ فِي فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾.

اعلم أن الكلام في أمثل هذه الفوائع معلوم إلا أن في هذا الموضع سؤالان زائدان (الأول) أن يقال أن هذه السورة السبعة مصدرة بقوله (حـ) فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد (عـ)؟ (الثاني) أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين (كـيـعـصـ) وهذا يفصل بين (حـ) وبين (عـ) فما السبب فيه؟.

واعلم أن الكلام في أمثل هذه الفوائع يضيق ، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولى أن يفرض عليها إلى الله ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود (حـ ، عـقـ) .  
أما قوله تعالى (كذلك يُوحى إليك) فالكاف معناه المثل وذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره ، فيكون المعنى مثل (حـ عـقـ كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان :

(الأول) نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال «لابني صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه حم عشق» وهذا عندى بعيد.

(الثاني) أن يكون المعنى : مثل الكتاب المسمى (بِحُمْ عَسْق) يوحى الله إليك ولـى الذين من قبلك ، وهذه المـائـة المراد منها المـائـة في الدـعـوة إلى التـوـحـيد والـعـدـل والنـبـوـة والمـعـاد وـتـقـيـعـ أحـرـالـ الـدـنـيـا وـالـتـرـغـيبـ فـيـ التـوـجـهـ إـلـىـ الـآخـرـةـ ، وـالـذـىـ يـوـكـدـ هـذـاـ أـنـاـ يـبـنـاـ فـيـ سـوـرـةـ (سـبـحـ اـسـمـ رـبـكـ) أـنـ أـوـلـاـ مـاـ فـيـ تـقـرـيرـ التـوـحـيدـ ، وـأـوـسـطـهـاـ فـيـ تـقـرـيرـ النـبـوـةـ ، وـآخـرـهاـ فـيـ تـقـرـيرـ المـعـادـ ، وـلـمـ تـمـ الـكـلـامـ فـيـ تـقـرـيرـ هـذـهـ الـمـطـالـبـ الـثـلـاثـةـ قـالـ (إـنـ هـذـاـ لـفـيـ الصـحـفـ الـأـوـلـىـ صـحـفـ إـلـرـاهـيمـ وـمـوسـىـ) يـعـنيـ أـنـ الـمـقـصـودـ مـنـ إـنـزـالـ جـمـيعـ الـكـتـبـ الـإـلهـيـةـ لـيـسـ إـلـاـ هـذـهـ الـمـطـالـبـ الـثـلـاثـةـ ، فـكـذـلـكـ هـنـاـ يـمـنـيـ أـنـ الـكـتـابـ الـمـسـمـىـ بـحـمـ عـسـقـ يـوـحـىـ اللهـ إـلـيـكـ وـلـىـ كـلـ مـنـ قـبـلـكـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ ، وـالـمـرـادـ بـهـذـهـ الـمـائـةـ الـدـعـوـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـطـالـبـ الـعـالـيـةـ وـالـمـبـاحـثـ الـمـقـدـسـةـ الـإـلـهـيـةـ ، قـالـ صـاحـبـ الـكـشـافـ : وـلـمـ يـقـلـ أـوـحـىـ إـلـيـكـ ، وـلـكـنـ قـالـ (يـوـحـىـ إـلـيـكـ) عـلـىـ لـفـظـ الـمـضـارـعـ لـيـدـلـ عـلـىـ أـنـ إـيـمـاـجـ مـلـهـ عـادـهـ ، وـقـرـأـ اـبـنـ كـثـيرـ (كـذـلـكـ يـوـحـىـ) بـفـتـحـ الـحـامـ عـلـىـ مـاـلـمـ يـسـمـ فـاعـلـهـ وـهـىـ إـحـدـىـ الـرـوـاـيـتـيـنـ عـنـ أـيـ عمـرـ وـعـنـ بـعـضـهـ (نـوـحـىـ) بـالـنـوـنـ ، وـقـرـأـ الـبـاقـونـ (يـوـحـىـ إـلـيـكـ وـلـىـ الـذـينـ مـنـ قـبـلـكـ) بـكـسـرـ الـحـامـ ، فـانـ قـيلـ فـعـلـيـ الـقـرـاءـةـ الـأـوـلـىـ مـارـافـعـ اـسـمـ اللهـ تـعـالـىـ ؟ فـلـتـاـ مـادـلـ عـلـيـهـ بـوـحـىـ ، كـانـ قـائـلاـ قـالـ مـنـ الـمـوـحـىـ ؟ فـقـيلـ اللهـ وـنـظـيرـهـ قـرـاءـةـ السـلـىـ (وـكـذـلـكـ زـيـنـ لـكـثـيرـ مـنـ الـمـشـرـكـيـنـ قـلـ أـوـلـادـهـ شـرـكـاـؤـمـ) عـلـىـ الـبـنـاءـ الـمـفـعـولـ وـرـفـعـ شـرـكـاـؤـمـ ، فـانـ قـيلـ فـاـ رـافـعـهـ فـيـمـ قـرـأـ (نـوـحـىـ) بـالـنـوـنـ ؟ فـلـتـاـ يـرـفـعـ بـالـاـبـدـاءـ ، وـالـعـزـيزـ وـمـاـ بـعـدهـ أـخـبـارـ ، أـوـ (الـعـزـيزـ الـحـكـيمـ) صـفـتـانـ وـالـظـرـفـ خـبـرـهـ ، وـلـمـ ذـكـرـ أـنـ هـذـهـ الـكـتـابـ حـصـلـ بـالـوـحـىـ بـيـنـ أـنـ الـمـرـحـىـ مـنـ هـوـ (الـعـزـيزـ الـحـكـيمـ) وـقـدـ يـبـنـاـ فـيـ أـوـلـ سـوـرـةـ (حـمـ) الـمـوـمـنـ أـنـ كـوـنـهـ (عـزـيزـأـ) يـدـلـ عـلـىـ كـوـنـهـ قـادـرـأـ عـلـىـ مـاـلـاـ نـاهـيـةـ لـهـ وـكـوـنـهـ (حـكـيـمـاـ) يـدـلـ عـلـىـ كـوـنـهـ عـالـمـاـ بـجـمـيعـ الـمـعـلـومـاتـ غـنـيـاـ عـنـ جـمـيعـ الـحـاجـاتـ فـيـحـصـلـ لـنـاـ مـنـ كـوـنـهـ (عـزـيزـأـ حـكـيـمـاـ) كـوـنـهـ قـادـرـأـ عـلـىـ جـمـيعـ الـمـقـدـورـاتـ عـالـمـاـ بـجـمـيعـ الـمـعـلـومـاتـ غـنـيـاـ عـنـ جـمـيعـ الـحـاجـاتـ وـمـنـ كـانـ كـذـلـكـ كـانـ أـفـعـالـهـ وـأـقـوـالـهـ حـكـمـةـ وـصـوـابـاـ ، وـكـانـ مـبـرـأـةـ عـنـ الـعـيـبـ وـالـعـبـثـ ، قـالـ مـصـنـفـ الـكـتـابـ قـلتـ فـيـ قـصـيـدةـ :

الحمد لله ذي الآلاء والنعم والفضل والجود والإحسان والكرم

**منزه الفعل عن عيب وعن عبث مقدس الملك عن عزل وعن عدم**

والصفة الثالثة قوله (له ما في السموات وما في الأرض) وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال (أحدهما) كونه موصوفاً بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام والتكون والإبطال (والثاني) أنه لما بين بقوله (له ما في السموات وما في الأرض) أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو ملكه وملكه، وجباً أن يكون منها عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض، وإلا لزم كونه ملكاً لنفسه، وإذا

ثبت أنه ليس في شيء من السموات امتنع كونه أيضاً في العرش ، لأن كل ما سألك فهو شيء فإذا كان العرش موجوداً فرق السموات كان في الحقيقة شيء ، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلاً في العرش ملكاً له ، فوجب أن يكون متزماً عن كونه حاصلاً في العرش ، وإن قالوا إنه تعالى قال (له ما في السموات) وكلمة مالا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين : (الأول) أن لفظة ما واردة في حق الله تعالى قال تعالى (والسماء وما بنها ، والأرض وما طحها) وقال (لا أعبد ما تعبدون ولا أنت عابدون ما أعبد) ، (والثاني) أن صيغة من وردت في مثل هذه السورة قال تعالى (إن كل من في السموات والأرض إلا آن الرحمن عبداً) وكلمة من لا شك أنها واردة في حق الله تعالى ندللت هذه الآية على أن كل من في السموات والأرض فهو عبد الله فلو كان الله موجوداً في السموات والأرض وفي العرش لمكان هو من جملة من في السموات فوجب أن يكون عبد الله ، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجوداً في السموات والعرش فهو عبد الله وجب فيمن تقدست كبر ياؤه عن تهمة العبودية أن يكون متزماً عن الكون في المكان والجهة والعرش والكرسي .

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى ( وهو العلي العظيم ) ولا يجوز أن يكون المراد بكونه علياً اللو في الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبُر الجسم ، لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفاً من الأجزاء والبعض ، وذلك خد قوله (الله أحد) فوجب أن يكون المراد من العلي تعالى عن مشابهة المكائن ومناسبة المحدثات ، ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكذا الإلهية .

ثم قال **(تكاد السموات يتقطرن من فوقهن)** وفيه مسائل :

**( المسألة الأولى )** قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ( تكاد ) بالباء ( ينقطرن ) بالياء والنون ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحزرة ( تكاد ) بالباء ( ينقطرن ) بالياء والناء ، وقرأ نافع والكسان : ( يكاد ) بالياء ( ينقطرن ) أيضاً بالباء ، قال صاحب الكشاف : وروى يوأنس عن أبي عمرو قراءة غريبة ( تتفطرن ) بالباءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى في نوادر ابن الأعرابي : الإبل تتشمسن .

**( المسألة الثانية )** في قائدة قوله ( من فوقهن ) وجوه ( الأول ) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ( تكاد السموات يتقطرن من فوقهن ) قال والمعنى أنها تكاد تتقطر من نقل الله عليها .

واعلم أن هذا القول سخيف ، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ، ويدل على فساده وجوه : (الأول) أن قوله ( من فوقهن ) لا يفهم منه من فوقهن ( وثانية ) هب أنه يحمل على ذلك ، لكن لم فلزم إن هذه الحالة إنما حصلت من نقل الله عليها ، ولم لا يجوز أن يقال إن هذه الحالة إنما حصلت من نقل الملائكة عليها ، كما جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « أطّلت السماء وحق لها أن تحيط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد » ( وثالثاً ) لم لا يجوز أن يكون المراد

تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فرقية بالإلهية والقهر والقدرة ؟، ثبت بهذه الوجوه أن القول الذي ذكره في غاية الفساد والركاكة (والوجه الثاني) في تأويل الآية ماذكره صاحب الكشاف ، وهو أن كلمة الكفر إنما جات من الذين تحت السموات ، وكان القياس أن يقال : يتقطرون من تخشن من الجهة التي جات منها الكلمة ، ولكن بولغ في ذلك قلب بجعلت مؤثرة في جهة الفرق ، كأنه قيل : يكذن يتقطرون من الجهة التي فوقهن ، ودع الجهة التي تخشن ، ونظيره في المبالغة قوله تعالى (يصب من فرق رؤوسهم الحيم ، يصرخ به ما في بطونهم والجلود) يجعل مؤثراً في أجزاءه الباطنة (الوجه الثالث) في تأويل الآية أن يقال (من فوقهن) أي من فرق الأرضين ، لأنه تعالى قال قبل هذه الآية (له ما في السموات وما في الأرض) ثم قال (تكاد السموات يتقطرون من فوقهن) أي من فوق الأرضين (والوجه الرابع) في التأويل أن يقال معنى (من فوقهن) أي من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها ، وتلك الجهة هي فوق ، قوله (من فوقهن) أي من الجهة الفرقانية التي هي فيها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلروا في أن هذه الهيئة لم حصلت ؟ وفيه قولان (الأول) أنه تعالى لما بين أن الموسي لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم ، بين وصف جلاله وكرياته ، فقال (تكاد السموات يتقطرون من فوقهن) أي من هيته وجلالته (والقول الثاني) أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ، (تكاد السموات يتقطرون) منه ، وهنا السبب فيه إثباتهم الشرك لله ، لقوله بعد هذه الآية (والذين اتخذوا من دونه أولياء) والصحيح هو الأول ، ثم قال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغرون ملن في الأرض) .

واعلم أن عخلوقات الله تعالى نوعان : عالم الجسمانيات وأعظمها السموات ، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة ، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيته في الجسمانيات ، ثم يردده بنفاذ قدرته واستيلاه هيته على الروحانيات ، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة (عم يتسالون) لما أراد تقرير العظمة والكريات بدأ بذكر الجسمانيات ، فقال (رب السموات والأرض وما ينتما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات ، فقال (يوم يقوم الرحمن والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) فبنكذلک الفول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاه هيته على الجسمانيات ، فقال (تكاد السموات يتقطرون من فوقهن) ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات ، فقال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) فهذا ترتيب شريف وبيان باهر .

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يقبل الآخر ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام ، ومتاثر لا يؤثر ، وهو القابل وهو الجسم وهو أحسن الأقسام ، ومحظوظ يقبل الآخر من القسم الأول ، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجرام في الروحانيات المقدسة ، وهو المرتبة الفخر الرازي - ج ٢٧ م ١٠

المتوسطة ، إذا عرفت هذا ، فنقول الجوامر الروحانية لها تعلقان : تعلق بعلم الجلال والكبارية ، وهو تعلق القبول ، فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية إذا أشرقت على الجوامر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهيتها ، ثم إن الجوامر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية ، قويت بها على الاستيلاء على عالم الجسانيات ، وإذا كان كذلك فلها وجهان : وجه إلى جانب الكبارية وحضرية الجلال ، وجه إلى عالم الأجسام والوجه الأول أشرف من الثاني . إذا عرفت هذا فنقول :

قوله تعالى ( يسبحون بحمد ربهم ) إشارة إلى الوجه الذي لم يمتد إلى عالم الجلال والكبارية ، وقوله ( ويستغرون من في الأرض ) إشارة إلى الوجه الذي لم يمتد إلى عالم الأجسام ، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حبس الخلق إلى أوج معركة الحق ، إذا عرفت هذا فنقول : أما الجهة الأولى وهي الجهة العلوية المقدسة ، فقد اشتغلت على أمرين : أحدهما التسبيح ، وثانيهما التحميد ، لأن قوله ( يسبحون بحمد ربهم ) يفيد هذين الأمرين ، والتسبيح مقدم على التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تزييه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منها في ذاته عما لا ينبغي ، مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات ، لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ، ولهذا قال ( يسبحون بحمد ربهم ) .

وأما الجهة الثانية ، وهي الجهة التي تناولت الأرواح إلى عالم الجسانيات ، فالإشارة إليها بقوله ( ويستغرون من في الأرض ) والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها ، وهذه ملخص من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة ، ولترجع إلى ما يليق بعلم التفسير ، فإن قيل كيف يصح أن يستغروا المن في الأرض وفيهم الكفار ، وقد قال تعالى ( أولئك عليهم لعنة الله والملائكة ) فكيف يكونون لاعنين ومستغرين لهم ؟ ، قلنا ( الجواب ) عنه من وجوه :

( الأول ) أن قوله ( من في الأرض ) لا يفيد العموم ، لأنَّه يصح أن يقال إنهم استغروا لكل من في الأرض وأن يقال لهم استغروا البعض من في الأرض دون البعض ، ولو كان قوله من في الأرض صريحاً في العموم لما صح ذلك التقسيم ( الثاني ) هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حم المؤمن فقال ( ويستغرون للذين آمنوا ربنا وسعتم كل شيء وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ) ( الثالث ) يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما في قوله تعالى ( إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ) إلى أن قال ( إنه كان حلها غفوراً ) ( الرابع ) يجوز أن يقال إنهم يستغرون لكل من في الأرض ، أما في حق الكفار فهو باسطة طلب الإيمان لهم ، وأما في حق المؤمنين فباتجاوز عن سلطتهم ، فانا

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا  
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَرَبِّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

تقول اللهم أهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الإيمان وأزل عن خواطرك وحشة الكفر ، وهذا في الحقيقة استغفار .

واعلم أن قوله (ويستغفرون لمن في الأرض) يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم ، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض ، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم علينا أنهم مبررون عن كل الذنب والأنبياء عليهم السلام لهم ذنب والذى لا ذنب له البتة أفضل من له ذنب وأيضاً قوله ( ويستغفرون لمن في الأرض ) يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء في جملة من في الأرض ، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم .

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال ( إلا إن الله هو الغفور الرحيم ) والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الأول) أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خلق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ، ولو لا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثاني) أن الملائكة قالوا في أول الأرض (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ثم في آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن في الأرض ، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجوداً في الأولى والآخر ثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض ولم يحل لهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال ( إلا إن الله هو الغفور الرحيم ) يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

ثم قال تعالى (والذين اخْذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَاهُمْ) أي جعلوا له شركاً وأنداداً (الله حفيظ عليهم) أي رقيب على أحد المم وأعمالهم ، لا يفوته منها شيء . وهو محاسبهم عليها لارقيب عليهم إلا هو وحده وما أنت يا محمد بمافوض إليك أمرهم ولا قسم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب .

قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتذرن يوم الجمع لرب فيه قريق في الجنة وفريق في السعير ، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالمهم من ول و لا نصير ، أم اخْذُوا مِنْ دونه أولاً هم فآلة هو الولي وهو

بِلَعْلَهُمْ أَمَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكُنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ  
 وَلَا نَصِيرٌ ⑩ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَّاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْأَوَّلُ وَهُوَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ  
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑪ وَمَا اخْتَلَفُتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَسَكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ  
 اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑫ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ  
 مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ  
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑬ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ  
 وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يُكْلِ شَيْءٌ عَلِيمٌ ⑭

يحيى الموتى وهو على كل شيء قادر ، وما اختلفتم فيه من شيء. فشكوه إلى الله ذلكم الله وفي عليه  
 توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً  
 يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، له مقايد السموات والأرض يبسط الرزق من  
 يشاء ويقدر إنه بكل شيء عالم ⑭

وأعلم أن كلامه (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره قوله (وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً)  
 يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء هنا قد سبق ذكره ، وليس هنا شيء سبق ذكره يمكن  
 تشبيه وحي القرآن به إلا قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عاهم  
 بوكييل) يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظاً عليهم ولست وكيلًا عليهم ، فكذلك أوحينا  
 إليك قرآنًا عربياً لتكون نذيرًا لهم وقوله تعالى (لتتذرأ أم القرى) أى لتتذرأ أهل أم القرى لأن  
 البلد لاتعقل وهو كقوله (واسأل القرية) وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا الاسم  
 إجلالاً لها لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمى أصل كل شيء أمه حتى يقال هذه القصيدة  
 من أمهات قصائد فلان ، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر ، والإذار التخريف ، فإن  
 قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه ليتنذر أهل مكة وأهل القرى المحجوبة بهم  
 وهذا يقتضي أن يكون رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين (والجواب) أن  
 التخصيص بالذكر لا يدل على نق الحكمة فيما سواه ، فهذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء

خاصة و قوله ( وما أرسلناك إلا كافة للناس ) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين ، وأيضاً ثبتَ كونه رسولا إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين ، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه ، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين .

ثم قال تعالى ( وتنذر يوم الجمع ) الأصل أن يقال أذرت فلاناً بكتناً فكان الواجب أن يقال لتنذر أهل القرى يوم الجمع وأيضاً فيه اضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفي تسميته يوم الجمع وجوه ( الأول ) أن الخلاائق يجتمعون فيه قال تعالى ( يوم يجتمعكم يوم الجمع ) فيجتمع فيه أهل السموات من أهل الأرض ( الثاني ) أنه يجمع بين الأرواح والأجساد ( الثالث ) يجمع بين كل عامل و عمله ( الرابع ) يجمع بين الظالم والمظلوم و قوله ( لا ريب فيه ) صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه ، و قوله ( فريق في الجنة وفريق في السعير ) تقديره ليوم الجمع الذي من صفتة يكون القوم فيه فريقين ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، فإن قيل قوله ( يوم الجمع ) يقتضي كون القوم مجتمعين و قوله ( فريق في الجنة وفريق في السعير ) يقتضي كونهم متفرقين ، والجمع بين الصفتين الحال ، قلنا إنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين .

ثم قال ( ولو شاء الله بجعلهم أمة واحدة) والمراد تقرير قوله ( والذين اخندوا من دونه أولياء الله حفظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ) أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الإيمان ، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منه ، ولكنه جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً ، ف قوله ( يدخل من يشاء في رحمته ) يدل على أنه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة ، و قوله ( والظالمون مالهم من ولٍ ولا نصير ) يعني أنه تعالى مالهم في رحمة ، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا في رحمة ، لأنه كان لهم ولٍ ونصير أدخلهم في تلك الرحمة ، و هؤلاء ما كان لهم ولٍ ولا نصير يدخلهم في رحمة .

ثم قال تعالى ( ألم اخندوا من دونه أولياء ) والمعنى أنه تعالى حتى عنهم أولاً إنهم اخندوا من دونه أولياء ، ثم قال بعده محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لست عليهم رقيباً ولا حافظاً ، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاموا ألم أبوا ، فإن هذا المعنى لو كان واجباً لفعله الله ، لأنه أقدر منه ، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار ، فإن قوله ( ألم اخندوا من دونه أولياء ) استفهام على سبيل الإنكار .

ثم قال تعالى ( فالله هو الولي ) والفاء في قوله ( فالله هو الولي ) جواب شرط مقدر ، كأنه قال : إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق لا ولٍ سواه ، لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قادر ، فهو الحقيق بأن يتخد ولـيا دون من لا يقدر على شيء .

ثم قال الله وَمَا اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم أنه تعالى كما منع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً ، فكذلك من المؤمنين أن يشرعوا عليهم في الخصومات والمنازعات فقال ( وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ) وهو إثابة المحتدين فيه ومعافاة المبطلين ، وقيل وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ ، ولا تؤثر حكمه غيره على حكمته ، وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا تصل بتتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه كحقيقة الروح ، فقلوا إله أعلم به ، قال تعالى ( ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر رب ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقدير الآية كأنه قال : قل يا محمد ( وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ) والدليل عليه قوله تعالى ( ذلك الله رب عليه توكلت وإليه أنيب ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتاج نفاذ القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى ( وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ) إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه ، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على مانع الله عليه ، والثاني باطل لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس بأنه باطل فيعتبر الأول ، فوجوب كون كل الأحكام مثبتة بالنص وذلك ينفي العمل بالقياس ، وإنما يقال أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى ، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ؟ أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف ، والرجوع إلى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضنه ، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى .

ثم قال تعالى ( ذلك الله رب ) أي ذلك الحاكم بينكم هو ( رب عليه توكل ) في دفع كيد الأعداء وفي طلب كل خير ( وإليه أنيب ) أي وإليه أرجع في كل المهمات ، وقوله ( عليه توكل ) يفيد الحصر ، أي لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزيف طريقة من اتخذ غير الله ولها .

ثم قال ( فاطر السموات والأرض ) قريء بالرفع والجر ، فالرفع على أنه خبر ذلك ، أو خبر مبدأ محنوف ، والجر على تقدير أن يكرن الكلام مكتنا ( وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض ) وقوله ( ذلك الله رب ) اعترض وقع بين الصفة والموصوف ، ( جعل لكم من أنفسكم ) من جنسكم من الناس ( أزواجا ومن الأنعام أزواجا ) أي خلق من الأنعام أزواجا ، ومعناه وخلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجا ( يذرؤكم ) أي يكرثكم ، يقال : ذرأ الله الخلق ، أي كفرم ، وقوله ( فيه ) أي في هذا التدبير ، وهو التزويع وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التواد والتنازل ، والضمير في ( يذرؤكم ) يرجع إلى المخاطبين ، إلى أنه غالب في جانب الناس من وجهين ( الأول ) أنه غالب في جانب العقلاه على غير العقلاء ( الثاني ) أنه غالب فيه جانب المخاطبين على الغائبين ، فإن قبل ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ، ولم يقل يذرؤكم به ؟ فلنا جمل هذا التدبير كالتبني والمعدن لهذا التكثير ، لا ترى أنه يقال للحيوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى ( ولهم في الفcasus حياة ) .

قوله تعالى : ﴿لِيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو السميع البصير به وهذه الآية فيها مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ احتاج علماء التوحيد قدماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً من الأعضاء والأجزاء، وحاصل في المكان والجهة، وقالوا لو كان جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثل والأشبه له، وذلك باطل بتصريح قوله تعالى (ليس كمثله شيء). ويمكن إبراد هذه الحجة على وجه آخر، فيقال إنما أن يكون المراد (ليس كمثله شيء) في ماهيات الذات، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرین، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلوین مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، ثبت أن المراد بالمائلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوى الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسماً، لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام متساوية له في الجسمية، أعني في كونها متحيزة طوبية عريضة عريقة، فيتندى تكون سائر الأجسام مائلة لذات الله تعالى في كونه ذاتاً، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسماً.

واعلم أن محمد بن إسحق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بالتوحيد، وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعتراض عليها، وأنا أذكر حاصلاً كلامه بعد حذف التطويلات، لأنّه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل، فقال : «نحن ثبتت الله وجهاً ونقول : إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء، مالو كشف ججاجه لا حرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، ووجه ربنا منق عنده الملائكة والفناء، ونقول إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الملائكة والفناء، ونفي عنها الجلال والإكرام، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء، ولو كان مجرد إثبات الوجه للتشبيه لكان من قال إن لبني آدم وجوهاً للخنازير والقردة والكلاب وجوهاً، لكن قد شبه وجهه بني آدم بوجه الخنازير والقردة والكلاب. ثم قال : ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنّه لو قيل له : وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغبض ولشافعه بالسوء، فعلينا أنه لا يلزم من إثبات الوجه والدين للتشبيه بين الله وبين خلقه».

وذكر في فصل آخر من هذا الكتاب «أن القرآن دل على وقع التسورية بين ذات الله تعالى وبين خلقه في صفات كثيرة، ولم يلوم منها أن يكون القائل مشبهاً فكذا هنا»، ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء (فالاول) أنه تعالى قال في هذه الآية ( وهو السميع البصير ) وقال في حق الإنسان ( بعلمكنا سميماً بصيراً )، ( الثاني ) قال ( وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ) وقال في حق المخلوقين ( ألم ير إلى الطير مسخرات في جو السماء )، ( الثالث ) قال ( واصنع الفلك بأعيننا ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ) وقال في حق المخلوقين ( ترى أعينهم تفيض من الدمع ) ( الرابع ) قال لإبليس ( ما منك أن تجد لما خلقت بيدي ) وقال ( بل يداه مبسوطتان ) وقال

فـ حق المخلوقين (ذلك بما قدمت أيديكم) ، (ذلك بما قدمت يداك) ، (إن الذين يباعونك إنما يباعون الله يد الله فوق أيديهم) ، (الخامس) قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال في الذين يركبون الدواب (لتستروا على ظهوره) وقال في سفينة نوح (وأستوت على الجودي) (ال السادس) سمي نفسه عزيزا فقال (العزيز الجبار) ، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، يا أيها العزيز مسناً وأهلاً للضر) ، (السابع) سمي نفسه بالملك وسمى بعض عباده أيضاً بالملك فقال (وقال الملك انتوف به) وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال (رب العرش العظيم) وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هنا الاسم على المخلوق فقال (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) ثم طول في ضرب الأمثلة من هذا الجنس ، وقال ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه إلا كثار منها ، فهذا ما أوردته هذا الرجل في هذا الكتاب .

وأقول هذا المiskin الجاحد إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حفروا الكلام في المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية ، فنقول المثلان هنا اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وما هي ، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقيدة أخرى فنقول : المعتبر في كل شيء ، إما تمام ماهيته وإما جزء من أجزاء ماهيته وإما أمر خارج عن ماهيته ، ولكنه من لوازם تلك الماهية ، وأما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة ، فانا نرى الحجة من المحرض كأنه في غاية الحضرة والمحرضة ثم صارت في غاية السواد والحلوة ، فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغيرة للصفات المختلفة ، وأيضاً نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض ، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل ، فظاهر بما ذكرنا أن الذوات مغيرة للصفات . إذا عرفت هذا فنقول : اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البة ، لأننا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركاً ، ثم يسكن بعد ذلك ، فالذرات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ودون سق واحد ، والصفات متغيرة متزايدة ، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات ، إذا عرفت هذا فنقول : الأجسام منها تألف وجه الكلب والقرد متساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها ، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض ، فاما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن الموارم لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات ، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مختلف لوجه الحمار ، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات ، فاما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية ، فثبتت أن الكلام

الذى أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام وما كان يعرف أن المعتبر في المماثل والاختلاف حقائق الأشياء وما هي منها لا الأعراض والصفات القائمة بها ، بقى هنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها مماثلة ؟ فنقول لنا هاهنا مقامان :

**(المقام الأول)** أن نقول هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أولاً تكون مسلمة ، فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود ، وإن كانت منوعة ، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إنه العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي ، ويكون ذلك الجسم مخالفاً لـماهية سائر الأجسام فكان هو قد يمازجها وأذلاها واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة ، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن الجسمة لا يقدرون عليه ؟ فإن قالوا هذا باطل لأن القرآن دل على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لأن حجة القرآن وححة نبوة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله ، فإذا ثبتت معرفة الإله بالقرآن ونقول النبي لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به .

**(والمقام الثاني)** أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تمام الـأجسام في الذوات والحقيقة ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إنه العالم جسماً وكانت ذاته مساوية لـذوات الـأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنـقل ، أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لـذوات الذوات سائر الـأجسام وجب أن يصبح عليه ما يصح على سائر الـأجسام ، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قبله للتفرق والمنزق . وأما النـقل فقوله تعالى (ليس كمثله شيء) فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لـزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة إلا أنا نقول لما ثبت أن الـأجسام مماثلة في تمام المـاهية ، فلو كانت ذاته جسماً لكن ذلك الجسم مساوياً لـسائر الـأجسام في تمام المـاهية ، وحيـنـئـدـ يـلـزـمـ أنـ يـكـونـ كـلـ جـسـمـ مـثـلـهـ ،ـ لـماـ يـيـنـدـ أـنـ الـمـعـتـرـفـ بـحـصـولـ الـمـمـاثـلـ اـعـتـبـارـ الـحـقـائـقـ مـنـ حـيـثـ هـيـ هـيـ ،ـ لـاـ اـعـتـبـارـ الـصـفـاتـ الـقـائـمـةـ بـهـ فـظـهـرـ بـالـتـقـرـيرـ الـذـىـ ذـكـرـ نـاهـ أـنـ حـجـةـ أـهـلـ التـوـحـيدـ فـغـايـةـ الـقـوـةـ ،ـ وـأـنـ هـذـهـ الـكـلـاـتـ الـتـىـ أـوـرـدـهـاـ هـذـاـ إـلـاـ إـنـمـاـ أـوـرـدـهـاـ لـأـنـ هـذـاـ كـلـاـتـ الـعـوـامـ فـأـغـتـرـ بـتـلـكـ الـكـلـاـتـ الـتـىـ ذـكـرـهـاـ وـنـسـأـلـ اللـهـ تـعـالـىـ حـسـنـ الـخـاتـمـةـ .

**﴿المسألة الثانية﴾** في ظاهر هذه الآية إشكال ، فإنه يقال المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل له ، فإنه يقتضى نفي المثل عن منه لا عنه ، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى ، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا إن العرب تقول مثل ذلك لا يدخل أى أن لا تدخل فنفوا البخل عن منه ، ومـيرـيدـونـ نـفـيـهـ عـنـهـ ،ـ وـيـقـولـ الرـجـلـ :ـ هـذـاـ الـكـلـاـمـ لـاـ يـقـالـ مـثـلـ أـىـ لـاـ يـقـالـ لـيـ قـالـ الشـاعـرـ :

« ومـثـلـ جـذـوعـ النـخـيلـ »

والمراد منه المبالغة فإنه إذا كان ذلك الحكم متقياً عن كونه مشابهاً له ، فلأن يكون متيناً عنه كان ذلك أولى ، ونظيره قوله : سلام على المجلس العالى ، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعاً على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعاً عليه كان ذلك أولى ، فكذا هنا قوله تعالى (ليس كمثله شيء) والمعنى ليس كمثل شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ سافطاً عديم الآخر ، بل كان مفيداً للبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وزعم جهم بن ص quoan أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء ، قال لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً مثل نفسه فهو (ليس كمثله شيء) معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء ، وعندى فيه طريقة أخرى ، وهى أن المقصود من ذكر الجم بين حرف التشبيه الدليل الحال على كونه منها عن المثل ، وتقريره أن يقال لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه ، وهذا حال قاتبات المثل له الحال ، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالامر فيه ظاهر ، وأما بيان أن هذا الحال فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهية وبما يناله في نفسه ، وما به المشاركة غير مابه الماهية . فتكون ذات كل واحد منها مرتكباً وكل مرتكب يمكن ، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو في نفسه واجب الوجود ، فإذا عرفت هذا قوله ليس مثل مثله شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئاً بناه على ما يبناه أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود ، فهذا ما يحتمله اللفظ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى (وله المثل الأعلى) يقتضي إثبات المثل فلابد من الفرق بينهما ، فنقول المثل هو الذي يكون مساوياً للشيء . في تمام الماهية والمثل هو الذي يكون مسؤولاً له في بعض الصفات الخارجية عن الماهية وإن كان خالفاً في تمام الماهية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وهو السميع البصير) يدل على كونه تعالى ساماً للسموعات بصرياً للبرئيات ، فإن قيل يتحقق إجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذيذنك الجسمين اقلاً بما ينفع فيتموج الهواء بسبب ذلك وينادى بذلك التموج إلى سطح الصالخ وهذا هو السباع ، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثير الحدقة بصورة المرفق ، ثبت أن السمع والبصر على عالي بالسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على أن السباع معايير لتأثير الماهية إننا إذا سمعنا الصوت علينا أنه من أي الجوانب جاء فعلمنا أنها أدركتنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه ، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة معايرة لتأثير الصالخ عن تموج ذلك الهواء . وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة معايرة لتأثير الحدقة ، وذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه ، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة ، وهذا يدل على أن الرؤية حالة معايرة لنفس ذلك الانطباع ، وإذا ثبت هذا فنقول

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ  
وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ  
إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (٢٣) وَمَا تَفَرَّقُوا  
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْهِ

لا يلزم من امتلاع التأثير في حق الله امتلاع السمع والبصر في حقه ، فإن قالوا هل أن السمع والبصر  
حالات مغايرتان لتأثير الحاسة إلا أن حصولها مشروط بحصول ذلك التأثير ، فلما كان حصول ذلك  
التأثير في حق الله تعالى مختلفاً عن حصول السمع والبصر في حق الله مختلفاً ، فنقول ظاهر قوله (ومو  
السميع البصير) يدل على كونه (سميناً بصيراً) فلم يجر لنا أن بعد عن هذا الظاهر إلا إذا قام  
الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثير ، والتأثير في حق الله تعالى  
مختلف ، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر مختلفاً ، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم  
الدلالة على حصوله ، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه ، فإن  
قال قائل قوله (وهو السماع البصير) يفيد الحصر ، فامعن هذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون  
بكونهم سماعين بصيرين ؟ فنقول السمع والبصر لفظان مشهوران بحصول هاتين الصفتين على سهل  
الكمال ، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ، وهذا هو المراد من هذا الحصر .

أما قوله تعالى (له مقايد السموات والأرض) فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى (فاطر  
السموات والأرض) والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً فهو خالق أنفسنا وأزواجاًنا وخالق أولادنا  
منا ومن أزواجاًنا ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً (فله مقايد السموات والأرض) والأصنام  
ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز بجعل الأصنام  
التي هي جادات مساوية له في العبودية ؟ فقوله (له مقايد السموات والأرض) يريد مفاتيح  
الرزق من السموات والأرض ، فمقاييس السموات الأمطار ، ومقاييس الأرض النبات ، وذكرنا  
تفسير المقاييس في سورة الزمر عند قوله (يسقط الرزق من يشاء ويقدر) لأن مفاتيح الأرزاق  
فيه (إنه يكل ثني) من البسط والتقدير (عليم) .

قوله تعالى : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به  
لإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعونهم إليه الله  
يحببى إليهم من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولو لا

أَجْلِ مُسْمَى لَقْضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَرْثَوْا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ  
مُرِيبٌ ۝ فَلَذِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتَ وَلَا تَتَبَعَ هُوَاءَهُمْ وَقُلْ  
عَامَتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدَلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ  
لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْكُمْ لَا جُنَاحَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ  
الْمَصِيرُ ۝ وَالَّذِينَ يَحْاجِجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجَبَ لَهُ حِجْرَتِهِمْ دَاهِخَةٌ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ  
بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ  
يُكَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَنِي ضَلَالٌ بَعِيدٌ ۝ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ  
وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝

كلمة سبقت من ربكم إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أرثوا الكتاب من بعدم لفي شك منه عریب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لا أعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكنكم لا تحيجه بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ، والذين يجاجون في الله من بعد ما استجيب له حجرتهم داهضة عند ربهم وعليهم غضب ولم عذاب شديد ، الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريبت ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقوهم منها ويعلمون أنها الحق لأن الذين يعارضون في الساعة لفي ضلال بعيد ، الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز . اعلم أنه تعالى لما عظم وجيه إلى محمد ﷺ بقوله ( كذلك يوحى إليك وللذين من قبلك الله العزيز الحكيم ) ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا )

والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحًا وموسى وإبراهيم وعيسى ، هذا هو المقصود من لفظ الآية ، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع الظنية والاتباع الكثيرة ، إلا أنه بقى في لفظ الآية اشكالات (أحدها) أنه قال في أول الآية (ما وصى به نوحًا) وفي آخرها (وما وصينا به إبراهيم) وفي الوسط (والذى أوحينا إليك) فما الفائدة في هذا التفاوت ؟ (وثانية) أنه ذكر نوحًا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال (ما وصى به نوحًا) والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال (والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم) (وثالثة) أنه يصير تقدير الآية : شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك فقوله (شرع لكم) خطاب الغيبة وقوله (والذى أوحينا إليك) خطاب الحضور ، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد ، وهو مشكل ، فهذه المضائق يجب البحث عنها وال القوم ما داروا حرثها ، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديننا طابت الأنبياء على صحته ، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتکاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بوجوب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعى في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال ، ويحرز عندي أن يكون المراد من قوله (ولا تتفرقوا) أي لا تتفرقوا بالأئمة الكثيرة ، كما قال يوسف عليه السلام (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا توحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) واحتاج بعضهم بقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا) على أن النبي عليه فضل في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام ، والجرأ ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ، ومحل (أن أقيموا الدين) إما نصب بدل من مفعول (شرع) والمطرفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذاك المشروع ؟ فقيل هو إقامة الدين (كبير على المشركون) عظم عليهم وشق عليهم (ماندיעون إله) من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع ، بدليل أن الكفار قالوا (أجعل الأئمة إماماً واحداً إن هذا شيء عجب ) وهنـا مسائل :

هي المسألة الأولى ) احتاج نفأة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطهروا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتباين ، وآله تعالى ذكر في معرض النسـة على عباده أنه أرشـدم إلى الدين الحالـ عن التـفرق والـمخالفة ومـعلوم أن فتح بـاب الـقياس يـفضـي إلى أـعـظـم أنـوـاع التـفرقـ وـالـمنـازـعـةـ ، فإنـ الحـسـ شـاهـدـ بـأنـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ بـنـواـ دـينـهمـ عـلـىـ

قوله تعالى : الله يحيي إلى من يشاء . سورة الشورى .

الأخذ بالقياس تفرقوا لارجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيمة ، فوجب أن يكون ذلك حرمًا ممنوعاً عنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان ، كالقول بحسن الصدق والمعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء ، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان ، ودللت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني ، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه) مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل ، وبيان منفعته من وجوه (الأول) أن النفوس تأثيرات ، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوى التأثير (الثاني) أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً الآخر في ذلك المقصود المعين ، وكثرة الأعراض توجب حصول المقصود ، أما إذا تناقضت تنازع وتجادلت فتضعضفت فلا يحصل المقصود (الثالث) أن حصول التنازع ضد مصالحة العالم لأن ذلك يفضي إلى المرج والمرج والقتل والنهب ، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق وقال في آية أخرى (ولا تنازعوا فتفشوا) .

ثم قال تعالى (الله يحيي إلى من يشاء ويهدى إلى من ين Hibah) وفيه وجهان (الأول) أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم وأصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثاني) أنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الاتقياد لهم تكبراً وأنفة وبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الاتقياد لهم ، ولا يعتبر الحسب والنسب والفقى ، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى ، واشتقاق لفظ "اجتباه" يدل على الضم والجمع ، فنه جي الخراج واجتباه وجي الماء في الموضن فقوله (الله يحيي إليه) أى يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة ، وقوله (من يشاء) كقوله تعالى (يعدب من يشاء ويرحم من يشاء) .

ثم قال (ويهدى إلى من ين Hibah) وهو كاروئ في الخبر من « تقرب من شبراً تقربت منه ذرعاً ومن أتاكى يمشى أتيته هرولة » أى من أقبل إلى بطاعته أقبلت إليه بهدايق وإرشادى بأن أشرح له صدره وأسهل أمره .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه ، كان لقائل أن يقول : فلماذا نحمد من تفرقين ؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءكم العلم بنياً بينهم) يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علوا أن الفرق ضلال ، ولكلهم فعلوا ذلك للبغى

وطلب الرياسة خلتهم الحية النسانية والآنفة الطبيعة ، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقع ما سواه طلباً المذكر والرياسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب ، لأن لكل عذاب عنده أجل مسمى ، أى وقتاً معلوماً ، إما لمحض المشيئة كما هو قوله ، أو لأنه علم أن الصلاح تتحقق به كما عند المترزلة ، وهو معنى قوله ( ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ) والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيمة ، واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم ؟ فقال الأكثرون هم اليهود والنصارى ، والدليل قوله تعالى في آل عمران ( وما اختلف الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ماجاهم العلم بغيرهم ) وقال في سورة لم يكن ( وما تفرق الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ماجاهم البينة ) ولأن قوله ( إلا من بعد ماجاهم العلم ) لائق بأهل الكتاب ، وقال آخرون : إنهم هم العرب ، وهذا باطل للوجوه المذكورة ، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية ( وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدم ) لا يليق بالعرب ، لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدم ، هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ( لفي شرك منه ) من كتابهم ( مرتب ) لا يؤمنون به حق الإيمان .

قوله تعالى : « فلذلك فادع واستقم كأمرات » يعني فلا جل ذلك التفرق ولا جل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين ، فادع إلى الاتفاق على الملة الخينيفية واستقم عليها وعلى الدعوة إليها ، كما أمرك الله ، ولا تتبع أهواء م المختلفة الباطلة ( وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ) أى بأى كتاب صح أن الله أنزله ، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأن المترفين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ونظيره قوله ( تومن ببعض ونكفر ببعض ) إلى قوله ( أولئك هم الكافرون ) ثم قال ( وأمرت لا أعدل بينكم ) أى في الحكم إذا تناهتم فتحاكمتم إلى ، قال القفال : معناه أن ربى أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن أمركم بما لا أعمله ، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه ، لكنى أسوى بينكم وبين نفسي ، وكذلك أسوى بين أكبركم وأصغركم فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال ( الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحيجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ) والمعنى أن الله الكل واحد ، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه ، فوجب أن يستغل كل واحد في الدنيا بنفسه ، فإن الله يجمع بين الكل في يوم القيمة ويجازيه على عمله ، والمقصود منه المتركة واستغلال كل أحد بهم نفسه ، فإن قيل كيف يليق بهذه المتركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ فلنا هذه المتركة كانت مشرطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء ، ودخل فيه التوحيد ، وترك عبادة الأصنام ، والإقرار بنبوة الأنبياء ، وبصحةبعث والقيمة ، فلما لم يقبلوا هذا الدين ، ففيئذ فات الشرط ، فلا جرم ثات المشروط .

واعلم أنه ليس المراد من قوله (لا حججة بینا ویینکم) تحرير ما يجري بغير حاجتهم ، ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذا الكلام مذكور في معرض الحاجة ، فلو كان المقصود من هذه الآية تحرير الحاجة ، لوم كونها حرجمة لنفسها وهو متناقض (والثاني) أنه لو لا الأدلة لما توجه التكليف (الثالث) أن الدليل يفيد الدلالة وذلك لا يمكن تحريره ، بل المراد أن القوم عرّفوا بالحجّة صدق محمد ﷺ ، وإنما تركوا تصديقه بغياً وعانياً ، فيبين تعالى أنه قد حصل الاستغناه عن حاجتهم لأنهم عرّفوا بالحجّة صدقه فلا حاجة منهم إلى الحاجة البتة ، وما يقوى قوله : أنه لا يجوز تحرير الحاجة ، قوله (وجادلهم بأنّي هى أحسن) وقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بأنّي هى أحسن) وقوله (يا نوح قد جادلتني فأكثرت جدّي) وقوله (وذلك حجّتنا آتينا إبراهيم على قومه) .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِينَ يُحاجِنُونَ فِي اللَّهِ هُوَ أَيُّ بِخَاصِّيَّةٍ فِي دِينِهِ (من بعد ما استجيب له) أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين (حجتهم داخلة) أي باطلة وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا ألسنة يقولون إن الأخذ بالاتفاق أولى من الأخذ بال مختلف ؟ فنبوة موسى وحقيقة التوارث مسلومة بالاتفاق ، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالاتفاق أولى ، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى ، فيبين تعالى أن هذه الحجّة داخلة ، أي باطلة فاسدة ، وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله ، وه هنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام ، واليهود شاهدوا تلك المعجزات ، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق ، فهنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ ، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته . وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استواههما في ظهور المعجزة يكون متناقضاً ، ولما تقرّر الله هذه الدلائل خوف المنكريين بعذاب القيمة ، فقال (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) . والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنوع الدلائل والبيانات ، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطناس المستقيم ، وأنهم لا يعلمون أن القيمة من تفاجئهم وهي كان الأمر كذلك ، وجب على العاقل أن يجد ويجهد في النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليل ، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيمة وأكثر في ذلك ، وأنهم مارأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخرية : فتى تقوم القيمة ، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عايه أو الذي عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفرون منها) والمعنى ظاهر ، وإنما يشفرون وبمخالفون لعلمهم أن عندها تتحقق التوبة ، وأما منكر البعد فلأن لا يحصل له هذا الخوف .

ثم قال (ألا إن الذين يمارون في الساعة أفي ضلال بعيد) والمهارة الملاجة ، قال الزجاج : الذين

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ تَزَدَّ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ  
مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٣﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكٌ أَوْ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَالُوا  
يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾  
تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَسَّأَمُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ  
الْكَبِيرُ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادُهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ  
لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوْدَةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَزَدَّ لَهُ

تدخلهم المരية والشك في وقوع الساعة ، فيمارون فيها ويجدون (لن ضلال بعيد) لأن استيفاء حق المظلوم من الظلم واجب في العدل ، فلوم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من أهل الحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيداً .

ثم قال (الله لطيف بعباده) أى كثير الإحسان بهم ، وإنما حسن ذكر هذا الكلام هنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده ، وأيضاً المتفرون استوجبوا العذاب الشديد ، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضاً من لطف الله تعالى ، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم ، لا جرم حسن ذكره هنا ، ثم قال (يرزق من يشاء) يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فاما مراتب العطية والبهجة فتفاوته مختلفة .

ثم قال (وهو القوى) أى القادر على كل ما يشاء (العزيز) الذي لا يغالب ولا يدافع .

قوله تعالى : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ تَزَدَّ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ  
وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكٌ أَوْ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَالُوا  
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا  
كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوْدَةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَزَدَّ لَهُ

فِيهَا حَسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ  
 يَسْأَلُ اللَّهُ يَحْمِمُ عَلَى قَلْبِكَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْكِمُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
 بِذَاتِ الْصَّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ  
 السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أساكم عليه أجرًا إلا المودة في القرني  
 ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسنة إن الله غفور شكور ، أم يقولون افترى على الله كذباً فإن  
 بشـا الله يختـم على قلبك ويـبح الله الباطـل ويـحقـقـ الحقـ بكلـامـهـ إـنهـ عـلـيمـ بـذـاتـ الصـدورـ ،ـ وـهـوـ الـذـيـ  
 يـقبـلـ التـوـبـةـ عـنـ عـبـادـهـ وـيـغـفـرـ عـنـ السـيـئـاتـ وـيـعـلـمـ مـاـ تـفـعـلـونـ ،ـ وـيـسـتـجـيبـ الـذـينـ آـمـنـواـ وـعـمـلـواـ الصـالـحـاتـ  
 وـيـزـيدـهـمـ مـنـ فـضـلـهـ وـالـكـافـرـونـ لـهـمـ عـذـابـ شـدـيدـ ۝

اعلم أنه تعالى لما بين كونه طيفاً بعباده كثير الإحسان إليهم بين أنه لا بد لهم من أن يسعوا في  
 طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه) قال صاحب  
 الكشاف إنه تعالى سئ ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدـةـ حرثـاـ على سـيـلـ المـجازـ وـفـيـ الـآـيـةـ مـسـائلـ :  
 ﴿الـمـسـلـةـ الـأـوـلـىـ﴾ـ أـنـهـ تـعـالـيـ أـظـهـرـ الفـرـقـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ بـيـنـ مـنـ أـرـادـ  
 الدـنـيـاـ مـنـ وـجـوهـ (الـأـوـلـ)ـ أـنـهـ قـدـمـ مـرـيدـ جـرـثـ الـآـخـرـةـ فـيـ الذـكـرـ عـلـىـ مـرـيدـ حرـثـ الدـنـيـاـ ،ـ وـذـلـكـ  
 يـدلـ عـلـىـ التـفـضـيلـ ،ـ لـأـنـهـ وـصـفـهـ بـكـونـهـ آـخـرـهـ ثـمـ قـدـمـهـ فـيـ الذـكـرـ تـنبـيـهـاـ عـلـىـ قـوـلـهـ «ـنـحـنـ الـآـخـرـونـ السـابـقـونـ»ـ  
 (الـثـانـيـ)ـ أـنـهـ قـالـ فـيـ مـرـيدـ حرـثـ الـآـخـرـةـ (ـنـزـدـ لـهـ فـيـ حـرـثـهـ)ـ وـقـالـ فـيـ مـرـيدـ حرـثـ الدـنـيـاـ (ـتـؤـهـ مـنـهـ)  
 وـكـلـمـةـ مـنـ لـتـبـعـيـضـ ،ـ فـالـعـنـيـ أـنـهـ يـعـطـيـ بـعـضـ مـاـ يـطـلـبـهـ وـلـاـ يـؤـتـيـهـ كـلـهـ ،ـ وـقـالـ فـيـ سـوـرـةـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ  
 (عـجـلـنـاـ لـهـ فـيـ مـاـ شـاءـ لـمـ نـرـيدـ)ـ وـأـقـولـ الـبـرـهـانـ الـمـقـلـ مـسـاعـدـ عـلـىـ الـبـاـيـنـ ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ كـلـ مـنـ عـمـلـ  
 لـلـآـخـرـةـ وـوـاظـبـ عـلـىـ ذـلـكـ الـعـمـلـ ،ـ فـكـثـرـ الـأـعـمـالـ سـبـبـ لـحـصـولـ الـمـلـكـاتـ ،ـ فـكـلـ مـنـ مـوـاظـبـتـهـ  
 عـلـىـ تـلـكـ الـأـعـمـالـ أـكـثـرـ كـانـ مـيـلـ قـلـبـهـ إـلـىـ طـلـبـ الـآـخـرـةـ أـكـثـرـ ،ـ وـكـلـماـ كـانـ الـأـنـسـ كـذـلـكـ كـانـ  
 الـآـبـهـاجـ أـعـظـمـ وـالـسـعـادـاتـ أـكـثـرـ ،ـ وـذـلـكـ هـوـ الـمـرـادـ بـقـوـلـهـ (ـنـزـدـ لـهـ فـيـ حـرـثـهـ)ـ وـأـمـاـ طـالـبـ الـدـنـيـاـ  
 فـكـلـماـ كـانـ مـوـاظـبـتـهـ عـلـىـ أـعـمـالـ ذـلـكـ الـطـالـبـ أـكـثـرـ كـانـ رـغـبـتـ فـيـ الـفـوزـ بـالـدـنـيـاـ أـكـثـرـ وـيـلـهـ إـلـيـهاـ

أشد ، وإذا كان الميل أبداً في التزايد ، وكان حصول المطلوب بانياً على حالة واحدة كان الحرمان لازماً لاحالة (الثالث) أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة (نزد له في حرثه) ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا ، بل بقى الكلام ساكتاً عنه تماماً وإياتاً ، وأما طالب حرث الدنيا فأنه تعالى بين أنه لا يعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التفصيص ، وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول الآخرة أصل والدنيا ثبع ، فواجد الأصل يكون واجداً للطبع بقدر الحاجة ، إلا أنه لم يذكر ذلك تقييماً على أن الدنيا أحسن من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة (والرابع) أنه تعالى بين أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه ، وبين أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا ، وأما في الآخرة فإنه لا يحصل له نصيب البتة ، فيبين بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبداً في الترق والتزايد وبين بالكلام الثاني أن طالب الدنيا يكون حاله في المقام الأول في النقصان وفي المقام الشاف في البطلان التام (الخامس) أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة من جوهره بالنسبة إلى النقد ، لأن الناس يقولون النقد خير من النسيئة فيبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا ، فالآخرة وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل ، والدنيا وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أحسن وأرذل ، فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا البتة ، وأنه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد في البابين من الحرث ، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقيمة والتنمية والمحصد ثم التقى ، فلما سمي الله كلاً القسمين حرثناً علينا أن كل واحد منها لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق ، ثم بين تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وإن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء ، فكانه قيل إذا كان لابد في القسمين جميعاً من تحمل متاعب الحرثة والتسقيمة والمحصد والتنمية ، فلأن تصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يكون في النقصان والانفصال والفناء .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** في تفسير قوله (نزد له في حرثه) قوله (ال الأول ) المعنى أنا نزيد في توفيقه وإعاته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه ، وقال مقاتل (نزد له في حرثه) بتضعيف الشواب ، قال تعالى (ليوفهم أجورهم ويزدهم من فضلهم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصبح وهو الدنيا شلت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأنه من الدنيا إلى ما كتب له ، ومن أصبح همه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه في قلبه وأنته الدنيا وهي رغمة عن أنفها » أو لفاظاً يقرب من أن يكون هذا معناه .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** ظاهر المفظ يدل على أن من صل ل أجل طلب التواب أو ل أجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته ، وأجمعوا على أنها لاتصح (والجواب) أنه تعالى قال (من كان يريد حرث

الآخرة ) والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض ، والبذر الصحيح جمِيع الخيرات والسعادة ليس إلا عبودية الله تعالى .

**﴿المسألة الرابعة﴾** قال أصحابنا إذا توْضأ بغير نية لم يصح ، قالوا لأن هذا الإنسان ملأ زاد حِرث الآخرة ، لأن الكلام فيها إذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة ، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلة من باب منافع الآخرة ، فوجب أن لا يحصل في الوضوء العارى عن النية .

واعلم أن الله تعالى لما بين القانون الأعظم والقططاعن الأقدم في أعمال الآخرة والدنيا أرده بالتبني على ما هو الأصل في باب الضلاله والشقاوة فقال . (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءٌ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَلَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ) ومعنى الممزدة في أَم التقرير والتقرير و(شركاؤهم) شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكاربعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها ، وقيل (شركاؤهم) أو ثانهم ، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لهم ، ولما كان سبباً لضلالهم جعلت شارعه الدين الضلاله كما قال إبراهيم صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رَبِّ إِنَّمَا أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) وقوله (شرعوا لهم من الدين ملماً يأذن به الله) يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين الله ، ثم قال (ولولا كلمة الفصل) أي القضاة السابق بتأخير الجزاء ، أو يقال ولو لا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيمة (لقضى بينهم) أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركيين وشركائهم (ولأن الظالمين لهم عذاب أليم) وقرأ بعضهم ، وأن بفتح الممزة في أن عطفاً له على كلمة الفصل يعني (ولولا كلمة الفصل) وأن تقريره تعذيب الظالمين في الآخرة (لقضى بينهم) في الدنيا ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب ، (الأول) فهو قوله (ترى الظالمين مشفقين) خائفين خوفاً شديداً (ما كسبوا) من السبات ( وهو واقع بهم ) يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا ، وأما ( الثاني ) فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات) لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها ، وفي الآية تبنيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة ، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهي البقاع الشريفة من الجنة ، فالبقاع الذي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم قال (لهم ما يشامون عند ربهم) وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهياً ، ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة (ذلك هو الفضل الكبير) وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله ، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشامون عند ربهم) فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه إنما كان جزاء على الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم قال تعالى (ذلك هو الفضل الكبير) وهذا تصریح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم قال (ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) قال صاحب الكشاف قرئ (يبشر) من بشره (ويبشر) من أبشره (ويبشر) من بشره .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه : (الأول) أن الله سبحانه وتعالى الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمه إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى (الثاني) أنه تعالى قال (لهم ما يشاءون عند ربهم) و قوله (لهم ما يشاءون) يدخل في باب غير النتائج لأنه لادرجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها (الثالث) أنه تعالى قال (ذلك هو الفضل الكبير) والذي يحكم بكراهه من له الكبر يا والعظمة على الإطلاق كان في غاية التكبر (الرابع) أنه تعالى أعاد البشرة على سبيل التعظيم فقال (الذي يبشر الله عباده) وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها .

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالى وأودع فيه ثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب ، بين أنى لأطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلاً ومطلوباً حاضراً ، لثلا يتخيّل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال ﷺ قل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى وَفِيهِ مَسَائِلُ :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال :

(الأول) قال الشعبي أكثر الناس علينا في هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله (قل لا أَسْأَلُكُمْ) على ما أدعوكم إليه (أجرًا إلا) أن تودوني لقرباني منكم ، والمفهـى أنكم قومي وأحق من أجـابـي وأطـاعـي ، فإذا قد أـيـتمـ ذلك فـاحـفـظـواـ حقـ القرـبـىـ ولا تـؤـذـونـ ولا تـهـبـواـ علىـ .

(والقول الثاني) روى الكلبـيـ عنـ ابنـ عـباسـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـماـ قـالـ إنـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لما قدمـ المـدـيـنـةـ كـانـ تـعـرـوـهـ نـوـاـبـ وـحـقـرـقـ وـلـيـسـ فـيـ يـدـهـ سـعـةـ ،ـ فـقـالـ الـأـنـصـارـ إـنـ هـذـاـ الرـجـلـ قـدـ هـدـاـكـمـ اللهـ عـلـيـ يـدـهـ وـهـوـ اـخـتـكـمـ وـجـارـكـمـ فـيـ بـلـدـكـمـ ،ـ فـاجـمـعـواـهـ طـافـةـ مـنـ أـمـوـالـكـمـ فـقـعـلـواـ ثـمـ أـنـوـهـ بـهـفـرـدـهـ عـلـيـهـمـ ،ـ فـتـزـلـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (ـقـلـ لـاـ أـسـأـلـكـمـ عـلـيـهـ أـجـرـاـ)ـ أـيـ عـلـىـ الإـيـانـ إـلـاـ أـنـ تـوـدـواـ أـقـارـبـهـ فـتـهـمـ عـلـىـ مـوـدـةـ أـقـارـبـهـ .

( القول الثالث ) ما ذكره الحسن فقال : إِلَّا أَنْ تَوْدُوا إِلَى اللَّهِ فِيهَا يَقْرِبُكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْدِيدِ إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَالْقُرْبَى عَلَى الْقُرْبَى الْأَوَّلُ الْفَرَابَةُ الَّتِي هِيَ بِعْنَى الرَّحْمِ وَعَلَى الثَّانِي الْفَرَابَةِ الَّتِي هِيَ بِعْنَى الْأَقْارِبِ ، وَعَلَى الثَّالِثِ هِيَ فَعْلٌ مِنَ الْقَرْبِ وَالتَّقْرِبِ ، فَإِنْ قِيلَ الْآيَةُ مُشْكَلَةٌ ، ذَلِكَ لِأَنَّ طَلْبَ الْأَجْرِ عَلَى تِبْلِيغِ الْوَحْيِ لَا يَجُوزُ وَيَدْلِلُ عَلَيْهِ وَجْوهٌ :

( الأول ) أَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْ أَكْثَرِ الْأَنْيَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : أَنَّهُمْ صَرَحُوا بِنَفْيِ طَلْبِ الْأَجْرِ ، فَذَكَرَ فِي قَصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ( وَمَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ) وَكَذَّا فِي قَصَّةِ هُرُودٍ وَصَالِحٍ ، وَفِي قَصَّةِ لَوْطٍ وَشَعِيبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَرَسُولُنَا أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْأَنْيَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَكَانَ بِأَنَّ لَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ عَلَى النَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ أُولَى ( الثَّالِثُ ) أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرَحَ بِنَفْيِ طَلْبِ الْأَجْرِ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ فَقَالَ ( قُلْ مَا أَسَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ) وَقَالَ ( قُلْ مَا أَسَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُنْكَفِلِينَ ) ( الثَّالِثُ ) الْعُقْلُ يَدْلِلُ عَلَيْهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّبْلِيغَ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى ( بَلَغْ مَا أَنْزَلْتِ إِلَيْكَ مِنْ رِبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَابْلَغْ رَسَالَتَهُ ) وَطَلْبُ الْأَجْرِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ لَا يَلِيقُ بِأَقْلَى النَّاسِ فَضْلًا عَنْ أَعْلَمِ الْعُلَمَاءِ ( الرَّابِعُ ) أَنَّ النَّبُوَّةَ أَفْضَلُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صَفَةِ الْحِكْمَةِ ( وَمَنْ يَوْمَ يَرَى هَذِهِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوقِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ) وَقَالَ فِي صَفَةِ الدِّينِيَا ( قُلْ مَتَاعُ الدِّينِيَا قَلِيلٌ ) فَكَيْفَ يَحْسَنُ فِي الْعُقْلِ مَقَابِلَةً أَشْرَفِ الْأَشْيَاءِ ( الْخَامِسُ ) أَنْ طَلْبُ الْأَجْرِ كَانَ يُوجِبُ التَّهْمَةَ ، وَذَلِكَ بِنَافِقِ الْقَطْلِعِ بِصِحَّةِ النَّبُوَّةِ ، فَثَبَّتَ بِهَذِهِ الْوَجْهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مِنَ النَّبِيِّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَطْلُبَ أَجْرًا بِالْبَتْهَةِ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالرِّسَالَةِ ، وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُ طَلْبُ أَجْرٍ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالرِّسَالَةِ ، وَهُوَ الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى هَذَا تَقْرِيرُ السُّؤَالِ . ( وَالجَوابُ عَنْهُ ) أَنَّهُ لَا زَرْاعٌ فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ طَلْبُ الْأَجْرِ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالرِّسَالَةِ ، فَقَوْلُهُ ( إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى ) تَقْوِيلُ الْجَوابِ عَنْهُ مِنْ وَجْهِنِ ( الأول ) أَنَّهُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ :

وَلَا عِيبٌ فِيهِمْ غَيْرُ أَنْ سَيِّدُهُمْ بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فَلَوْلَ

الْمَعْنَى أَنَّا لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ إِلَّا هَذَا . وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ أَجْرًا لَأَنَّ حَصْولَ الْمُوْدَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْ وَاجِبٌ قَالَ تَعَالَى ( وَالْأَمْنُونُ وَالْأَمْنَاتُ بِعِصْمِهِمْ أَوْ لِيَاهُ بَعْضُهُمْ ) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْمُؤْمِنُونَ كَالْبَنِيَانَ يَشَدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » وَالْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا كَانَ حَصْولُ الْمُوْدَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبًا فَخُصُوصُهَا فِي حَقِّ أَشْرَفِ الْمُسْلِمِينَ وَأَكَابِرِهِمْ أُولَى ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( قُلْ لَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى ) تَقْدِيرُهُ وَالْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى لَيْسَتْ أَجْرًا ، فَرَجَعَ الْحَاصِلُ إِلَى أَنَّهُ لَا أَجْرٌ بِالْبَتْهَةِ ( الْوَجْهُ الثَّالِثُ ) فِي الْجَوابِ أَنَّ هَذَا اسْتِئْنَاءٌ هَنْقَطَعَ ، وَتَمَ الْسَّكَلَامُ عَنْهُ قَوْلُهُ ( قُلْ لَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ) .

ثُمَّ قَالَ ( إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى ) أَيْ لَكُنْ أَذْكُرُكُمْ فَرَابِيَ مِنْكُمْ وَكَانَهُ فِي الْلَّفْظِ أَجْرٌ وَلَا يَجُوزُ أَجْرٌ .

﴿ الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ ﴾ نَقْلُ صَاحِبِ الْكَشَافِ عَنِ النَّبِيِّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ

مات شهيداً . ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات ثائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكلاً بالإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كائزف العروس إلى بيته زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره باباً إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بعض آل محمد جاء يوم القيمة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بعض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بعض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف ، وأنا أقول : آل محمد عليهم السلام هم الذين يقول أمرهم إليه بكل من كان أمرهم إليه أشد وأكل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعليها والحسين والحسين كان التعاق بينهم وبين رسول الله صلوات الله عليه أشد العلاقات وهذا كالعلم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حلناء على القرابة فهم الآل ، وإن حلناء على الأمة الذين قبلوا دعوه فهم أيضاً آل ثبت أن على جميع النظائرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فختلف فيه . وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال على وفاطمة وأبنها ، ثبت أن هؤلاء الأربع أقارب النبي صلوات الله عليه وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه : (الأول) قوله تعالى (إلا المودة في القربي) ووجه الاستدلال به ما سبق (الثاني) لا شك أن النبي صلوات الله عليه كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة مني بؤذني ما يؤذها » وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب عليها والحسين والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله (وابنوه لعلكم تهتدون) ولقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ولقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبونكم الله) ولقوله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (الثالث) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدآ وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ، وقال الشافعى رضى الله عنه :

ياراكيا قف بالمحصب من مني  
واهتف بساكن خيفها والناهض  
سحراً إذا فاض الحيجيج إلى مني  
فيضاً كأن نظم الفرات الفائض  
إذ كان رفضاً حب آل محمد فليشهد النقلان أن راضي

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (إلا المودة في القربي) فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل

تحت قوله (إلا المودة في القربي) والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ وحب أصحابه، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جعلوا بين حب العترة والصحابة، وسمعت بعض المذكرين قال إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ قال «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجسا»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ «أصحاب كالنجوم بأيمان اهتدتكم»، ونحن الآن في بحر التكليف وتضررنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين (أحددهما) السفينة الخالية عن العيوب والنقب (والثاني) السكواكب الظاهرة الطالعة النيرة، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك السكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولنرجع إلى التفسير: أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالاً فقال: هل قيل إلا مودة القربي، أو إلا مودة للقربي، وما معنى قوله (إلا المودة في القربي)? وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكاناً للمودة ومقدراً لها كقوله لي في آل فلان مودة ولـي فيهم هو وحب شديد، تزيد أحبابهم ومكان حبي ومحله.

ثم قال تعالى (ومن يقترب حسنة نزد له فيها حستنا) قيل نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه، والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذكرت عقب ذكر المودة في القربي دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة.

ثم قال تعالى (إن الله غفور شكور) والشكور في حق الله تعالى بجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطاعين في إيصال الشواب لآبائهم وفي أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل.

وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذباً) واعلم أن الكلام في أول السورة إنما ابتدئ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوجي الله وهو قوله تعالى (كذلك بوجي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) وانصل الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى هنا، ثم حكى هنا شهادة القوم وهي قوله: إن هذا ليس وحيًا من الله تعالى فقال (أم يقولون افترى على الله كذباً) قال صاحب الكشاف أم منقطعة، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل: أيقع في ذلوبهم ويجرى في ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذي هو أقيح أنواع الفرية وأخفها، ثم أجاب عنه بأن قال (فإن يشا الله يختم على قلبك) وفيه وجوه (الأول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذىهم حتى لا يشق عليك قوله إنه مفتر كذاب (والثاني) يعني بهذا الكلام أنه إن يشا الله يجعلك من الخنوم على قلوبهم حتى يفترى عليهم الكذب فإنه لا يجترى على افتراه الكذب على الله إلا من كان في مثل هذه الحالة، والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمانة إلى الخيانة فيقول

الآمين ، لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمي القلب لنفسه ، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه .

ثم قال تعالى ( ويبح الله الباطل ويحق الحق ) أى ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلاً كذا بآياته لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أتته بالقوة والنصرة ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من السكاذبين المفترين على الله ، ويجوز أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه .

ثم قال ( إن الله عليم بذات الصدور ) أى إن الله عليم بما في صدرك وتصورهم فيجرئك الأمر على حسب ذلك ، وعن قنادة يختم على قلبك ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي ، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك .

واعلم أنه تعالى لما قال ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ) ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفريدة عقاباً عظيمًا ، لاجرم ندبهم الله إلى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءاته ، فقال هو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ) وفي هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه ، فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ونشأه ، ومعنى قبلته عنه أخذته وأتبته عنه وقد سبق البحث المستقصي عن حقيقة التوبة في سورة البقرة ، وأقل ما لا بد منه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إني أستغفرك وأنوب إليك وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على عليه السلام يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة السكاذبين فتوبيتك تحتاج إلى توبة ، فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضي من الذنب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظلوم وإذابة النفس في الطاعة كما رأيتها في المعصية وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك حمكته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلاً قبول التوبة ، وقال أصحابنا لا يجب على الله شيء وكل ما يفعله قائمًا يفعله بالكرم والفضل ، واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا إنه تعالى ندح بقبول التوبة ، ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل التدرج العظيم ، إلا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضر الناس ظليماً ولا يقتلونه غصباً ، كان ذلك مدخلاً فليلاً ، أما إذا قال إن أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب على كان ذلك مدخلاً وثناه :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى ( ويعفو عن السيئات ) إما أن يكون المراد منه أن يعفو

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الْرِزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ  
إِنَّهُ لِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ <sup>(٢٧)</sup> وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ  
رَحْمَتَهُ وَهُوَ أَلَوَّلُ الْحَمِيدِ <sup>(٢٨)</sup> وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ

عن الكبار بعد الإتيان بالتوبه، أو المراد منه أنه يغفون الصغار، أو المراد منه أنه يغفون الكبار قبل التوبه، والأول باطل وإلا لصار قوله (ويغفون السنين) عين قوله (وهو الذي يقبل التوبه) والتكرار خلاف الأصل، والثانى أيضاً باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يتمنى به فنى القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يغفو بواسطة قبول التوبه وتارة يغفو ابتداء من غير توبه .  
نعم قال (ويعلم ما تفعلون) فرأى حزنة والكسافى وحفص عن عاصم بالتابع على الخطابة والباقيون بالپا على المغایية، والمعنى أنه تعالى يعلمه فنيته على حسناته ويعاقبه على سيئاته .

ثم قال (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدم من فضله) وفيه قوله (أحدهما)  
الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل تقديره ويحيط المؤمنون الله فيها داعم إلية .  
(والثاني) عمل نصب والفاعل هضر وهو الله وتقديره ، ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف  
اللام كا حذف في قوله (إذا كان لهم) وهذا الثاني أولى لأن الخبر فيها قبل وبعد عن الله لأن مانبل  
الأية قوله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وما بعدها قوله (ويزيدم  
من فضله) فهو يعطى على ويستجيب ، وعلى الأول ويحيط العبد ويزيد الله من فضله .  
أما من قال إن الفعل للذين آمنوا فيه وجهان : (أحدهما) ويحيط المؤمنون ربهم فيها داعم  
إله (والثاني) يطغونه فيها أسرم به ، والاستجابة الطاعة .

وأما من قال إن الفعل لله فقد اختلفوا، فقيل يحب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ماطلبوه من فضله، فان قالوا التخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يحب دعاء الكفار؟ فلنا قال بعضهم لا يجوز لأن إجابة الدعاء تهذيم، وذلك لا يليق بالكفار، وقيل يجوز على بعض الوجوه، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج، ثم قال (ويزيد them من فضله) أى يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء (والكافرون لم عذاب شديد) والمقصود التهديد.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَفَوَّا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزُلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ ، وَهُوَ الَّذِي يَنْزُلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَطَرَ أَوْ يَنْشُرُ رَحْمَةً وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، وَمَنْ

فِيهِمَا مِنْ دَآبَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَصَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ  
فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا  
لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٨﴾

آياته خالق السموات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا شاء قادر ، وما أصابكم من مصيبة فيها كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ، وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولی ولا نصیر . وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلاية وفقر ثم يدعوا فلا يشاهد أثر الإجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله (ويستجيب الذين آمنوا) ؟ فأجاب تعالى عنه بقوله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) أى لا يقدموا على المعاishi ، ولما كان ذلك محدوراً وجباً أن لا يعطيهم ماطلبوا ، قال الجبائى : هذه الآية تدل على بطلان قول المخبرة من وجهين : (الأول) أن حاصل الكلام أنه تعالى (لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض) والمعنى في الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة ، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا أنه تعالى يريد البغي في الأرض ، وذلك يوجب فساد قول المخبرة (الثاني) أنه تعالى بين أنه إنما يريد بسط الرزق لأنه يفضى إلى المفسدة فلما بين تعالى أنه لا يريد ما يفضى إلى المفسدة فبأن لا يكون مریداً للمفسدة كان أولى ، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن فلا بد لها من فاعل ، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها فيعود السؤال في أنه من المحدث لذلك الميل الثاني ؟ ويلزم التسلسل ، وإيضاً فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات ، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ، ولما بطل هذا ثبت أن حدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ، ثم أورد الجبائى في تفسيره على نفسه سؤالاً قال : فإن قبل أليس قد بسط الله الرزق لم بعض عباده مع أنه بغي ؟ وأجاب عنه بأن الذي عنده الرزق وبغي كان المعلوم من حاله أنه يبغى على كل حال سواء أعطى ذلك الرزق أو لم يعط ، وأقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل ، أما القرآن فقوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رأه استغنى ) حكم مطلقاً بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان . وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكتها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أفل ، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر ، فثبتت أن وجود المال يوجب الطغيان .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ في بيان الوجه الذي لأجله كان التوسيع موجباً للطغيان ذكرها فيه وجروها (الأول) أن الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك خرب العالم وتعطلت المصالح (الثاني) أن هذه الآية خصصة بالعرب فأنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يروهم ومن الكلأ والمشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والفساد (الثالث) أن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر ، وإذا وقع في شدة وبلاية ومكره انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّالِثَةُ﴾ قال خباب بن الأرت فينا نزات هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بي قريظة والنضير وفي قينقاع فتميناها ، وقيل نزلت في أهل الصفة تمنوا واسعة الرزق والغني .

ثم قال تعالى (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) قرأ ابن كثير وأبو عيسى (ينزل) خفيفة والباقيون بالتشديد ، ثم نقول (بقدر) بتقدير يقال قدره قدرأ وقدرأ (إنه بعده خير بصير) يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطبياعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرذافهم على وفق مصالحهم ، ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم حين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا ينفعهم منه فقال (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما نظروا) قرأ نافع وابن عاصم وعامر (ينزل) مشددة والباقيون مخففة ، قال صاحب الكشاف قوله (قطروا) بفتح النون وكسرها ، وإنزال الغيث بعد القحط وقطع الناس فقال : إذن مطروا ، أراد البليه أنت ، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر (وينشر رحته) أي بركات الغيث ومتافعه وما يحصل به من الخصب ، وعن عسر رضى الله عنه أنه قيل له «اشتد القحط وقطع الناس فقال : إذن مطروا» أراد هذه الآية ، ويجوز أن يريد رحته الواسعة في كل شيء ، كأنه قيل ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة (وهو الولي الحميد) (الولي) الذي يتولى عباده بإحسانه (والحميد) المحمد على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ، ثم ذكر آية أخرى تدل على إيمانه فقال (ومن آياته خلق السموات والأرضن وما بيته فيما من دابة) فنقول : أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم ، فإن قيل كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة ؟ فلنا فيه وجوه (الأول) أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحداً منهم يقال بنوفلان فعلوا كذا ، وإنما فعلوا واحداً منهم ومنه قوله تعالى (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) (الثاني) أن الدليل هو الحركة ، والملائكة لهم حركة (الثالث) لا يبعد أن يقال إنه تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يعيشون مشياً لأنفسهم على الأرض .

ثم قال تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قادر) قال صاحب الكشاف ، إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي ، قال تعالى (والليل إذا يخشى) ومنه (إذا يشاء قادر) والمقصود أنه تعالى خلقهما متفرقة ، لا يعجز ولكن لمصلحة ، فلهذا قال (وهو على جمعهم إذا يشاء قادر) يعني الجمع

للحشر والمحاسبة ، وإنما قال (على جمعهم) ولم يقل على جمعها ، لاجل أن المقصود من هذا الجم الحاسبة ، فكانه تعالى قال ، وهو على جم العقلاه إذا يشاء قادر ، واحتاج الجبائني بقوله (إذا يشاء قادر) على أن مشيئته تعالى محددة بان قال : إن كامة (إذا) تفيد ظرف الزمان ، وكلمة (يشاء) صيغة المستقبل ، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخسيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل قائدة ، ولما دل قوله (إذا يشاء قادر) على هذا التخسيص علينا أن مشيئته تعالى محددة (والجواب) أن هاتين الكلمتين كما ذكرنا على المشيئة ، أي مشيئة الله ، فقد دخلتا أيضاً على لفظ (القدير) فلزم على هذا أن يكون كونه قادرآ صفة محددة ، ولما كان هذا باطلا ، فكذا القول فيما ذكره ، والله أعلم .

قوله تعالى : **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيهَا كَسْبَتُ أَيْدِيكُمْ** وفي الآية مسائل :

**﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾** قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء ، وكذلك هي في مصاحف الشام وأندية ، والباقيون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم ، وتقدير الأول أن مامبتدأ بمعنى الذي ، وبما كسبت خبره ، والمعنى والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وتقدير الثاني تضمين كلمة : (ما) معنى الشرطية .

**﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾** المراد بهذه المصائب الأحوال المکروهه نحو الآلام والأسقام والقطط الغرق والصواعق وأشياءها ، واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا ؟ منهم من أنكر ذلك لوجوه (الأول) قوله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) بين تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيمة ، وقال تعالى في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) أي يوم الجزاء ، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيمة (والثاني) أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق ، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب ، بل الاستقرار يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَعْمَالَ النَّاسِ﴾ وخص البلاء بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأشمل » (الثالث) أن الدنيا دار التكليف ، فلو جعل الجزاء فيها كانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معاً ، وهو محال ، وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة ، فقد تمسكوا أيضاً بما روى عن النبي ﷺ أنه قال «لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره إلا بذنب أو افظع » هذا معناه وتمسكوا أيضاً بهذه الآية ، وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات) وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى بعد هذه الآية (أو يوبقون بما كسبوا) وذلك تصریح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم ، وأجاب الأولون عن التسلك بهذه الآية ، فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف ، لامن بباب العقوبة كاف في حق الأنبياء والأولياء ، ويحمل قوله (فيما كسبت أيديكم)

على أن الأصلح عند إثباتكم بذلك الكسب إزالة هذه المصائب عليكم ، وكذا الجرأب عن بقية الدلائل ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتاج أهل التناصح بهذه الآية ، وكذلك الذين يقولون إن الأطفال والبهائم لا تتألم ، فقالوا دلت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم ، ثم إن أهل التناصح قالوا : لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم ، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنب في الزمان السابق ، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناصح فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة (والجرأب) أن قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم) خطاب مع من يفهم ويعقل ، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ، ولم يقل تعالى : إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فيها كسبت أيديكم) يقتضي إضافة الـكـسـب إلى الـيدـ، قال والـكـسـب لا يـكونـ بـالـيـدـ ، بل بـالـقـدرـةـ الـفـائـمـ بـالـيـدـ ، وإـذـاـ كانـ الـمـرـادـ مـنـ لـفـظـ الـيـدـ هـنـاـ الـقـدرـةـ ، وـكـانـ هـذـاـ الـجـازـ مشـهـورـاـ مـسـتـعـمـلاـ ، كـانـ لـفـظـ الـيـدـ الـوـارـدـ فـيـ حـقـ اللهـ تـعـالـيـ يـجـبـ حـلـهـ عـلـيـ الـقـدرـةـ تـوـيـهاـ لـهـ تـعـالـيـ عـنـ الـأـعـضـاءـ وـالـأـجـزـاءـ ، وـالـلهـ أـعـلـمـ .

قوله تعالى : ﴿ وـيـغـفـرـواـ عـنـ كـثـيرـ ﴾ وـمـعـنـاهـ أـنـ تـعـالـيـ قـدـ يـتـرـكـ الـكـثـيرـ مـنـ هـذـهـ التـشـدـيدـاتـ بـفـضـلـهـ وـرـحـمـتـهـ ، وـعـنـ الـخـيـرـ قـالـ : دـخـلـنـاـ عـلـىـ عـمـرـانـ بـنـ حـسـينـ فـيـ الـوـجـعـ الشـدـيدـ ، فـقـيلـ لـهـ : إـنـاـ لـنـقـمـ لـكـ مـنـ بـعـضـ مـاـ نـزـىـ ، فـقـالـ لـاـ تـفـعـلـوـاـ فـوـقـ اللـهـ إـنـ أـحـبـهـ إـلـىـ ، وـقـرـأـ (ومـاـ أـصـابـكـ مـنـ مـصـيـبةـ فـيـهـ كـسـبـتـ يـدـاـيـ) فـهـذـاـ بـمـاـ كـسـبـتـ يـدـاـيـ ، وـسـيـأـتـلـنـىـ عـفـوـرـيـ ، وـقـدـ روـيـ أـبـوـ سـخـلـةـ عـنـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـرـأـ هـذـهـ الـآـيـةـ وـقـالـ : «ـ مـاـ عـنـ اللـهـ عـنـهـ فـوـأـزـرـوـاـ كـرـمـ مـنـ أـنـ يـعـودـ إـلـيـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ ، وـمـاـ عـاقـبـ عـلـيـهـ فـيـ الدـنـيـاـ فـانـ أـكـرـمـ مـنـ أـنـ يـعـيدـ الـعـذـابـ عـلـيـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ » رـوـاهـ الـوـاحـدـيـ فـيـ الـبـيـطـ ، وـقـالـ إـذـاـ كـانـ كـذـلـكـ فـهـذـهـ أـرـجـىـ آـيـةـ فـيـ كـتـابـ اللـهـ لـأـنـ اللـهـ تـعـالـيـ جـعـلـ ذـنـوبـ الـمـؤـمـنـينـ صـنـفـيـنـ : صـنـفـ كـفـرـهـ عـنـمـ بـالـصـابـرـ فـيـ الدـنـيـاـ ، وـصـنـفـ عـفـاـعـهـ عـنـهـ فـيـ الدـنـيـاـ ، وـهـوـ كـرـمـ لـاـ يـرـجـعـ فـيـ عـفـوـهـ ، وـهـذـهـ سـنـةـ اللـهـ مـعـ الـمـؤـمـنـينـ ، وـأـمـاـ الـكـافـرـ فـلـأـهـ لـاـ يـمـجـلـ عـلـيـهـ عـقـوبـةـ ذـنـبـهـ حـتـىـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ .

قوله تعالى : ﴿ وـمـاـ أـتـمـ بـعـجزـينـ فـيـ الـأـرـضـ ﴾ يـقـولـ مـاـ أـتـمـ مـعـشـرـ الـمـشـرـكـينـ بـعـجزـينـ فـيـ الـأـرـضـ ، أـيـ لـاـ تـمـجـزـوـتـ حـيـثـنـاـ كـنـتمـ ، فـلـاـ تـسـبـقـوـتـ بـسـبـبـ هـرـبـكـ فـيـ الـأـرـضـ (وـمـاـ لـكـمـ مـنـ دـونـ اللـهـ مـنـ وـلـيـ وـلـاـ نـصـيرـ) وـالـمـرـادـ بـهـ مـنـ يـعـيدـ الـأـصـنـامـ ، بـيـنـ أـنـهـ لـاـ قـائـمـةـ فـيـهـ الـبـتـةـ ، وـالـنـصـيرـ هـوـ اللـهـ تـعـالـيـ ، فـلـاـ جـرـمـ هـوـ الـذـيـ نـحـسـنـ عـبـادـتـهـ .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾ إِنْ يَسْكُنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلُنَّ  
رَوَادِدَ عَلَى ظَهِيرَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَتِي لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ ﴿٢٥﴾ أَوْ يُوْقِنُ بِمَا  
كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٦﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَاهِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِি�صٍ  
فَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَعَ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَابْقَى لِلَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَيْرًا إِلَيْهِمْ وَالْفَوْحَشُ وَإِذَا مَا  
غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ  
شُورَى بَيْنَهُمْ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ  
يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ » ، إن يسألاً يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره إن في ذلك لآيات للكل صبار شكور ، أو يوقيهن بما كسبوا ويفع عن كثير . ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من حيص ، فما أوتيتم من شيء فناع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجاوا للربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شوري بينهم وعما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ». وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (الجواري) باء في الوصل والوقف ، فإيات اليماء على الأصل وحذفها للتخفيف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجواري ، يعني السفن الجواري ، حذف الموصوف لعدم الالتباس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضاً هذه السفن العظيمة التي تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح ، واعلم أن المقصود من ذكره أمران (أحد هما) أن يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثانى) أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة التي تعالى على العباد (أما الوجه الأول) فقد اتفقا على أن المراد بالأعلام الجبال ، قالت الحنساء في مرئية أخيها :

وإن صخراً لتأتى المداة به كأنه علم في رأسه نار

ونقل أن النبي ﷺ استند قصيدها هذه فلما وصل الرأوى إلى هذا البيت ، قال «فأنا لها الله مارضيت بتشبيها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً» ، إذا عرفت هذا فنقول : هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجه ، وعند سكون هذه الرياح توقف ، وقد يبينا بالدليل في سورة النحل ، أن عرك الرياح ومسكناها هو الله تعالى ، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكيتها ، وذلك يدل على وجود الإله القادر ، وأيضاً أن السفينة تكون في غاية التقل ، ثم إنها مع تقلها بقيت على وجه الماء ، وهو أيضاً دلالة أخرى ( وأما الوجه الثان ) وهو معرفة ما فيها من المنافع ، فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الامتنعة ، وإذا نقل متاع هذا الجايات إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة في التجارة ، فلمذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة .

قوله تعالى : «إن يشاً يسكن الريح فيظلن رواً كد على ظهره» فرأى أبو عمرو والجمهور : بهمزة ( إن يشاً ) لأن سكون المهمزة علامة للجزم ، وعن ورش عن نافع بلا همزة ، وقرأ نافع وجده ( يسكن الريح ) على الجمع ، والباقيون ( الريح ) على الواحد ، قال صاحب الكشاف : فرى ( بظلن ) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل ، وقوله تعالى ( رواً كد ) أي روابط ، أي لا تجرى على ظهره ، أي على ظهر البحر ( إن في ذلك لآيات لكل صبار ) على بلاد الله ( شكور ) لم يائه ، والمقصود التنبية ، على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله البتة ، لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء وإما في الآلام ، فإن كان في البلاء كان من الصابرين « وإن كان في النهاه كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين .

قوله تعالى : «أو يوبقهن مما كسبوا» يعني أو يهلكون ، يقال أوبقه ، أي أهلكك ، ويقال للمجرم أوبقه ذنبه ، أي أهلكته ، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابْتلى المسافرين في البحر بإحدى بلities : إما أن يسكن الريح فتركت الجواري على متن البحر وتوقف ، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير قوله ( أو يوبقهن ) معظوف على قوله ( يسكن ) لأن التقدير ( إن يشاً يسكن الريح ) غير كدن ، أو يعصفها فيغرقون بعصفها ، وقوله ( ويغدو عن كثير ) معناه إن يشاً يهلك ناساً وينج ناساً عن طريق العفو عنهم ، فإن قيل فما معنى إدخال المغدو في حكم الإياب حيث جعل بجزءاً منه ، فلنا معناه إن يشاً يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم ، وأما من قرأ ( ويغدو ) فقد استأنف الكلام .

ثم قال ( ويم الذين يجادلون في آياتنا ملهم من حيcis ) قرأ نافع وابن عامر : يعلم بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الباقيون بالنعت ، فالقراءة بالرفع على الاستئناف ، وأما بالنصب فالمعنون على

تعليل محنوف تقديره لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون في آياتنا) والمعنف على التعليل المحنوف غير عزيز في القرآن . ومنه قوله تعالى (ولنعمله آية الناس ) وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) قال صاحب الكشاف : ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكانه قال أو إن يشا ، يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ، ونجاة قوم ، وتحذير آخرين . إذا عرفت هذا فتقول معنى الآية (ويعلم الذين يجادلون) أي ينذرون على وجه التكذيب ، أن لا يخاص لهم إذا وقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح فيصير ذلك سبيلاً لاعترافهم بأن الإله النافع الصارليس إلا الله .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتفسير عن الدنيا وتحقيق شأنها ، لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه ، فإذا صارت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها ، خيانته ينتفع بذكر الدلائل ، فقال (فما أتيتم من شيء فتاع الحياة الدنيا) وسماء متعاماً تباهياً على قلته وحقارته ، لأن الحسن شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريعاً الانفراط والانقضاض .

ثم قال تعالى (وما عند الله خير وأبقى) والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، وبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، وبه على انفراطها بأن جعلها من الدنيا . وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ، ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات :

(الصفة الأولى) أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى (الذين آمنوا) .

(الصفة الثانية) أن يكون من المتكلمين على فضل الله ، بدليل قوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب ، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله ، فلا يدخل تحت الآية .

(الصفة الثالثة) أن يكونوا مجتدين لكتاب الإمام والفواحش ، عن ابن عباس : كبير الإمام ، هو الشرك ، نقله صاحب الكشاف وهو عندي بعيد ، لأن شرط الإيمان مذكور أولاً وهو ينقى عن عدم الشرك ، وقيل المراد بكبار الإمام ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات ، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية ، وبقوله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ما يتعلق بالقدرة الغنثبية ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ، لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ومقاومة صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

(الصفة الرابعة) قوله تعالى (والذين استجابوا لله) والمراد منه تمام الانقياد ، فإن قالوا أليس أنه لما جعل الإيمان شرطاً فيه فقد دخل في الإيمان إجابة الله ؟ قلنا الأقرب عندي أن يحمل هذا على الرضا بهقضاء الله من صميم القلب ، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور . ولما ذكر هذا الشرط قال (وأقاموا الصلاة) والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة ، لأن هذا هو الفخر الرازي - ج ٢٧ م ١٢

وَبَرَأْتُمْ أَسَيْئَةَ سَيْئَةٍ مِثْلَهَا فَنَّ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ  
 الظَّالِمِينَ (٣٤) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٣٥) إِنَّمَا  
 السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ

الشرط في حصول الثواب .

وأما قوله تعالى (أمرهم شوري بينهم) فقيل كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأقى الله عليهم ، أى لا ينفردون برأى بل مالم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه ، وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ، والشوري مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، ومعنى قوله (وأمرهم شوري بينهم ) أى ذو شورى .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) والمعنى أن ينتصروا في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه ، وعن النخعي أنه كان إذا فرأها قال كانوا يكرهون أن يذلوها أنفسهم فيجري ، عليهم السفهاء ، فإن قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الأول) أنه لما ذكر قبله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري بجرى الصد له وهو قوله (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) ؟ (الثاني) وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى ( وأن تغفوا أقرب للنحو ) وقال ( وإذا مروا بالغدو مروا كراماً ) وقال ( خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وقال وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لطه خير للصابرين ) فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) أن العفو على قسمين (أحداهما) أن يكون العفو سبيلاً لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنائيته (والثانية) أن يصير العفو سبيلاً لزبد جرارة الجاني ولقوة غيظه وغضبه ، والآيات في العفو محولة على القسم الأول ، وهذه الآية محولة على القسم الثاني ، وحيثند زبول التناقض والله أعلم ، لأنترى أن العفوب عن المجرم يكون كالإغراء له ولغيره ، فلو أن رجلاً وجد عبده بغير بمحاربته وهو مصر فلوعف عنه ~~كان~~ مذموماً ، وروى أن زينب أقبلت على عائشة فشتمنها فتهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبي ﷺ « دونك فاتصرى » وأيضاً إنه تعالى لم يرحب في الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ، ثم بين بعده أن شرعه مشروع برعاية المائنة ، ثم بين أن العفو أولى بقوله (فن عفا وأصلح فأجره على الله) فزال السؤال واقله أعلم .

قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فن عفا وأصلح فأجره على الله إنَّه لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، ولَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٣٥) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ

لَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٢﴾ وَمَنْ صَرَرَ وَغَرَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأَمْوَارِ ﴿٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَقَالَهُ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَّا مَرَدٌ مِنْ سَبِيلِ ﴿٤﴾ وَتَرَهُمْ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا خَشِعِينَ مِنَ الَّذِلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرِفِ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلِ ﴿٦﴾

الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم ، ومن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور ، ومن يضل الله فالله من ولی من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وترام يعرضون عليها خاسعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فالله من سبيل

اعلم أنه تعالى لما قال (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل فإن النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال (وجراء سيئة سيئة مثلها) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول جراء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمى بالسيئة ؟ أجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الأولى وجراوةها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، قال تعالى (ولأن تصفهم سيئة يقولوا هذه من عندك) يريد ما يسوء من المصائب والبلايا ، وأجاب غيره بأنه لما جعل أحد هما في مقاومة الآخر على سبيل المحاجأطلق اسم أحد هما على الآخر ، والحق ما ذكره صاحب الكشاف .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإن مقتضاهما أن تقابل كل جنائية بمثلها وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان ، لأن في طبع كل أحد الظلم والبغى والعدوان ، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه ، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل ، ثم نأى كد هذا النص بنصوص آخر ، كقوله تعالى (ولأن عاقبتهم فعاقبوا بهن ما عوقبتم به) وقوله تعالى (من عمل سيئة فلا يجرى إلا مثلها) وقوله عز وجل (كتب عليكم

القصاص ) في القتل والقصاص عبارة عن المساواة والمائلة وقوله تعالى ( والجروح قصاص ) وقوله تعالى ( ولسمك في القصاص حياة ) فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بهاته . ثم هنا دقيقة : وهي إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة فهنا وقع التعارض بين إلزاق زيادة الضرر بالجاني وبين من المجنى عليه من استيفاء حقه ، فما أولا ؟ فهو هنا محل اجتهد المحتدين ، ويختلف ذلك باختلاف الصور ، وتفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبئها على الباقي .

( المثال الأول ) احتاج الشافعى رضى الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذى وأن الحر لا يقتل بالعبد ، بأن قال المائلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة في هاتين المسألتين ، فوجب أن لا يجرى القصاص بينهما ، أما بيان أن المائلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة ، وكيفية الاستدلال بها أن نقول إما أن نحمل المائلة المذكورة في هذه النصوص على المائلة في كل الأمور إلا ما خصه الدليل أو نحملها على المائلة في أمر معين ، والثانى مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور الآية ، فلو حلت الآية عليها لزم الإجحاف . ولو حللت النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص ، ومعلوم أن دفع الإجحاف أولى من دفع التخصيص ، ثبت أن الآية تقتضي رعاية المائلة في كل الأمور إلا ما خصه دليل العقل ودليل نقل منفصل ، وإذا ثبت هذا فنقول رعاية المائلة في قتل المسلم بالذى ، وفي قتل الحر بالعبد لا تتمكن لأن الإسلام اعتبره الشرع في إيجاب القتل ، لتحصيله عند عدمه كاف في حق الكافر الأصل ، ولا يقانه عند وجوده كاف في حق المرتد وأيضاً الحرية صفة اعتبرها الشرع في حق القضاء والإمامنة والشهادة ، ثبت أن المائلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة هنا فوجب المنع من القصاص .

( المثال الثاني ) احتاج الشافعى رضى الله عنه في أن الأيدي تقطع باليد الواحدة ، فقال لاشك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أو لثلك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه في حق كلهم أو بعضهم قال يإيجابه على الكل ، بقى أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو منوع منه إلا أنا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى وبين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية أولى .

( المثال الثالث ) شريك الأب شرع في حقه القصاص ، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى ( والجروح قصاص ) وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قاتل بالفرق .

( المثال الرابع ) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقتاه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمائه .

( المثال الخامس ) شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا تعمدنا النكذب يلزومهم القصاص لأنهم بذلك الشهادة أهدروا دمه ، فوجب أن يصير دمهم مهدرأ لقوله تعالى ( وجزاء سبعة مثلاها )

(المثال السادس) قال الشافعى رضى الله عنه المكره يجب عليه القود لأنه صدر عن القتل ظلماً فوجب أن يمحى عليه مثله ، أما أنه صدر عن القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلماً فلان المسلمين أجمعوا على أنه مكروه من قبل الله تعالى بأن لا يقتل وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد ، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل به مثله لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال السابع) قال الشافعى رضى الله عنه القتل بالشلل يوجب القدر ، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولد المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنها نذكر هنا وجهاً آخر من البيان ، فنقول إن القاتل اختلف على مالك العبد شيئاً يساوى عشرة دنانير مثلاً فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قاتل بالفرق .

(المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعى رضى الله عنه والدليل عليه أن الغاصب فوت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المنصوب منه .

(المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لأنه لقتل بالعبد لكن هو مساوياً للعبد في المعانى الموجبة للفصاص لقوله (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ولسائر النصوص التي تلونها ثم إن عبه يقتل قصاصاً بعد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساوياً لعبد نفسه في المعانى الموجبة للفصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها ، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساوياً لعبد غيره في المعانى الموجبة للفصاص ، فكان عبد نفسه مثلاً مثل نفسه ، ومثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلاً لنفسه في المعانى الموجبة للفصاص ، ولو قتل الحر بعد غيره لقتل بعد نفسه بالبيان الذى ذكرناه ولا يقتل بعد نفسه فوجب أن لا يقتل بعد غيره ، فقد ذكرنا هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية ، ومنأخذت الفطاحة يده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل والله أعلم ، ثم هنا بحث وهو أن أبا حنيفة رضى الله عنه قال في نفع الأيدي لاشك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلامه أو عن بعضهم إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة ، فوجب أن يق على أصل الحرمة ، فقال الشافعى رضى الله عنه لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يدو واحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حراماً ، لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد تفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة .

فلو كان تقويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة حراماً لكان تقويت عشرة من الفوس لأجل النفس الواحدة مشتملاً على الحرام وكل ما استعمل على الحرام فهو حرام فكان يجب أن يحرم قتل الفوس العشرة في مقابلة النفس الواحدة ، وحيث أجبنا على أنه لا يحرم علينا أن ما ذكرت من استيفاء الزباده غير من نوع منه شرعاً ، والله أعلم .

(المسألة الثالثة) قد بينا أن قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) يقتضي وجوب رعاية المماطلة مطلقاً في كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل ، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه في صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أحسن منه وأخرى بناء على القياس ، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعله البيان والمسكفين يكتفيه أن يتسلك بهذا النص في جميع المطالب ، قال مجاهد والسدى إذا قال له أخزاء الله ، فليقل له أخزاء الله ، أما إذا قذفه فذفوا بوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمر الله به .

ثم قال تعالى (فَنَعْفَا وَأَصْلَحْ) يعني وبين خصميه بالغفر والإغفاء كما قال تعالى (إِنَّمَا الَّذِي يَنْهَاكُمْ عَنِ الْفَطْرَةِ إِلَّا مَا كُنْتُمْ مُّهْمَلاً) ، (فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) وهو وعد بهم لا يقاس أمره في التعظيم . ثم قال تعالى (إِنَّمَا الَّذِي لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) وفيه قولان (الأول) أن المقصد منه التنبية على أن المجنى عليه لا يجوز له استيفاء الزباده من الظالم لأن الظالم فيها وراء ظله معصوم والانتصار لا يكاد يتومن فيه تجاوز التسوية والتعدى خصوصاً في حال الحرب والنهاب الحمية ، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مَنَادٍ مِّنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلَيْقَمْ» ، قال فيقوم خلقه فيقال لهم ما أجركم على الله؟ فيقولون نحن الذين عفونا عن ظلمنا ، فيقال لهم اذْلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» (الثانى) أنه تعالى لما ساحر دلى العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تقبيله على أنه إذا كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه ، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أولى أن يعقو عنه .

ثم قال تعالى (ولن انتصر بعد ظلمه) أي ظالم الظالم إيه ، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول (فأولئك) يعني المتصرفين (ماعليهم من سبيل) كعقوبة وهو أخذته لأنهم أتوا بما يسمى لهم من الانتصار واحتج الشافعى رضى الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة ، فقال الشرع إنما أن يقال إنه أذن له في القطع مطلقاً أو بشرط أن لا يحصل منه السريان ، وهذا الثاني باطل لأن الأصل في القطع الحرمة فإذا كان تحريره مطلقاً بشرط عدم السريان ، وكان هذا الشرط مجهولاً ووجب أن يتحقق ذلك القطع على أصل الحرمة ، لأن الأصل فيها هو الحرمة ، والحل إنما يحصل مطلقاً على شرط مجهول فوجب أن يتحقق ذلك أصل الحرمة ، وحيث لم يكن كذلك علينا أن الشرع أذن له في القطع كيف كان سواء سرى أو لم يسر ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضموناً لأنه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل .

ثم قال (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلَمُونَ النَّاسَ) أَيْ يَدْأُونَ بِالظُّلْمِ (وَيَغْرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ  
الْحَقِّ أَوْ لِئَكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

ثم قال تعالى (ولم يصبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) والمعنى (ولم يصبر) بأن لا يقتصر (وغفر) وتجاوز (فإن ذلك) الصبر والتتجاوز (من عزم الأمور) يعني أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة وحذف الراجح لأن مفهوم كا حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكي أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن فكان المسوب يكظم ويعرق فبسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن عقلها والله وفيها لما ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى ( ومن يضل الله فـا له من ولـى من بعده ) أى فليس لا من ناصر يتولاه من بعد خذلانه أى من بعد إضلال الله إياه ، وهذا صريح في جواز الإضلال من الله تعالى ، وفي أن المداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى ، قال القاضي المراد من يضل الله عن الجنة فـا له من ولـى من بعده ينصره ( والجواب ) أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل ، وأيضاً فالله تعالى ما أصلـه عن الجنة على قولكم بل هو أصلـ نفسه عن الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرْدَنْ سَبِيلٍ ﴾ بِالْمَرَادِ أَهْمَمُ  
يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ، ثم ذكر حاهم عند عرض النار عليهم  
فقال ( وتراءهم يعرضون عليها خاسعين من الذل ) أى حال كونهم خاسعين حقيرين مهانين بسبب  
ما لحقهم من الذل ، ثم قال ( ينظرون من طرف خفي ) أى يبتدىء نظرهم من تحريك لأ Jiang فائهم ضعيف  
خفى بمسارقة كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أحفانه  
عليه ويملا عينيه منه كما يفعل في نظره إلى الحبوبات ، فان قيل أليس أنه تعالى قال في صفة الـكفار  
إنهم يخسرون عيـاً فكيف قال هنا إنهم ينظرون من طرف خـي ؟ فلنا لهم يكونون في الابداء  
مكدا ، ثم يجعلون عيـاً أو لعل هذا في قوم ، وذلك في قوم آخرين ، ولما وصف الله تعالى حال  
الـكفار حتى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال ( وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ  
وَآهَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) قال صاحب الكشاف ( يوم القيمة ) إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول  
المؤمنين واقعاً في الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال أى يقولون يوم القيمة إذا رأوه على تلك الصفة  
ثم قال ( أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ) أى دائم قال القاضي ، وهذا يدل على أن الـكافر  
والفاـقـيـدـوـمـعـذـبـهـمـ ( والجواب ) أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالـكـافـرـ قال تعالى  
( وَالْكَافَّرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ) والـذـىـ يـوـكـدـهـذـاـ أـنـ تـعـالـىـ قـالـ بـعـدـ هـذـهـ الآـيـةـ ( وـمـاـكـانـ هـمـ مـنـ أـوـلـيـاءـ  
يـنـصـرـوـهـمـ مـنـ اللهـ ) وـالـمعـنىـ أـنـ الـأـصـنـامـ الـتـىـ كـانـواـ يـعـبـدـوـنـهـاـ لـأـجـلـ أـنـ تـشـفـعـ لـهـمـ عـنـ اللهـ تـعـالـىـ  
مـاـأـتـوـاـ بـتـلـكـ الشـفـاعـةـ وـمـعـلـومـ أـنـ هـذـاـ لـأـيـلـيقـ إـلـاـ بـالـكـافـرـ ثـمـ قـالـ ( وـمـنـ يـضـلـلـ اللهـ فـاـلـهـ مـنـ سـبـيلـ )  
وـذـلـكـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـمـضـلـ وـالـهـادـيـ هـوـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ مـاـ هـوـ قـولـنـاـ وـمـذـهـبـنـاـ وـالـلهـ أـعـلـمـ .

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا " لَامِرَدَهُ مِنَ الَّهِ مَالَكُم مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ  
وَمَا لَكُم مِنْ نَكِيرٍ ﴿٧﴾ فَإِنَّ أَعْرَضُوا فَقَاءِ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنَّ عَلَيْكَ  
إِلَّا الْبَلْغُ وَإِنَّ إِذَا أَذْقَنَا إِلَيْنَاهُ مِنَ النَّارِ حَمَةً فَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصْبِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ  
قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ إِلَيْنَاهُ كُفُورُ ﴿٨﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ  
مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهَا وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الَّذِي كُوَرَ ﴿٩﴾ أَوْ يُزْوِجُهُمْ  
ذُخْرًا إِنَّا وَإِنَّا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْمٌ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : «استجيبوا للربكم من قبل أن يأتي يوم لامرد له من الله مالكم من ملجاً يومئذ ومالكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإن إذا أذقنا الإنسان مnarحة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمنا لهم فإن الإنسان كافر ، الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهبط لمن يشاء إناثاً ويهبط لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قادر »

اعلم أنه تعالى لما أطرب في الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال (استجيبوا للربكم من قبل أن يأتي يوم لامرد له من الله ) وقوله (من الله) يجوز أن يكون صلة لقوله (لامرد له) يعني لا يرد الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله ( يأتي ) أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده ، واختلفوا في المراد بذلك اليوم قليل يوم ورود الموت ، وقيل يوم القيمة لأن الله وصف ذلك اليوم ( بأنه لا مرد له ) وهذا الوصف موجود في كلا اليومين ، ويحمل أن يكون معنى قوله (لامرد له) أنه لا يقبل التقديم والتأخير أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي .

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم ( مالكم من ملجاً ) ينفع في التخلص من العذاب ( وما لكم من نكير ) من ينكرون ذلك حتى يتغير حالتكم بسبب ذلك المنكر ، ويجوز أن يكون المراد من النكير الإنكار أي لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه من الأعمال ( فان أعرضوا ) أي هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة أي لم يقبلوا هذا الأمر ( فما أرسلناك عليهم حفيظاً ) بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ( إن عليك إلا البلاغ ) وذلك تسلية من الله تعالى ، ثم إنه تعالى بين السبب في

إصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمعطالب الدنيا يفيده الغرور والفجور والتكبر وعدم الانتقاد للحق فقال ( وإنما إذا أذقنا الإنسان من رحمة فرح بها ) ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سماها ذوقاً في حين تعالي أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها وبعظام غروره بسببيها وبقع في العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المي ووصل إلى أقصى السعادات ، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة ، وهذه الطريقة مختلفة لطريقة المؤمن الذي لا يبعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة ، ثم بين أنه متى أصابتهم ( سية ) أي شيء يسوم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله ( فإن الإنسان كافر ) والكافر الذي يكون مبالغًا في الكفران ، ولم يقل فإنه كافر ، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبهما الرجل بالأداب التي أرشد الله إليها ، ولما ذكر الله إذاً الله الإنسان الرحمة وأصابته بعدها أتبع ذلك بقوله ( الله ملك السموات والأرض ) والمقصود منه أن لا يفتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك الله وملوكه ، وأنه إنما حصل بذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به خيرته يصير بذلك حاملاً على مزيد الطاعة والخدمة ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم ، إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغروراً بنفسه مغرضاً عن طاعة الله تعالى ، ثم ذكر من أقسام اتصرف الله في العالم أنه يخص البعض بالأولاد الإناث والبعض بالذكور والبعض بما والبعض بأن يجعله محرومًا من الكل ، وهو المراد من قوله ( ويجعل من يشاء عقيباً ) .

واعلم أن أهل الطبائع يقولون السبب في حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكرة استيلاء الحرارة ، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة ، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام في سورة النحل ، وأبطلناه بالدلائل اليقينية ، وظاهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنهم والأفلاك وفي الآية سؤالات :

( السؤال الأول ) أنه قدم الإناث في الذكر على الذكور فقال ( يهُبْ لِمَ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهُبْ لِمَ يَشَاءُ الذِّكْرُ ) ثم في الآية الثانية قدم الذكور على الإناث فقال ( أو يزوجهم ذكراناً و إناثاً ) فما السبب في هذا التقديم والتأخير ؟ .

( السؤال الثاني ) أنه ذكر الإناث على سبيل التكير فقال ( يهُبْ لِمَ يَشَاءُ إِنَّا ) وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال ( وَيَهُبْ لِمَ يَشَاءُ الذِّكْرُ ) فما السبب في هذا الفرق ؟ .

( السؤال الثالث ) لم قال في إعطاء الإناث وحدهن ، وفي إعطاء الذكور وحدهم بلفظ المبة فقال ( يهُبْ لِمَ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهُبْ لِمَ يَشَاءُ الذِّكْرُ ) وقال في إعطاء الصنفين معاً ( أو يزوجهم ذكراناً و إناثاً ) .

**{السؤال الرابع}** لما كان حصول الولد هبة من الله فيكون في عدم حصوله أن لا يحب فأى حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول (ويجعل من يشاء عقيما) ؟ .

**{السؤال الخامس}** هل المراد من هذا الحكم جم معيينون أو المراد الحكم على الإنسان المطلق ؟  
**{والجواب}** عن السؤال الأول من وجوه (الأول) أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فإذا وهب الولد الآتى أو لا ثم أعطاه الذكر بهذه فكان أنه نقله من الغم إلى الفرح وهذا غاية الكرم ، أما إذا أعطى الولد أو لا ثم أعطى الآتى ثانية فكان أنه نقله من الفرح إلى الغم فذكر تعالى هبة الولد الآتى أو لا ثانية هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم (الوجه الثاني) أنه إذا أعطى الولد الآتى أو لا علم أنه لا اعتراف له على الله تعالى فيرضي بذلك فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه فيزيد شكره وطاعته ، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم (والوجه الثالث) قال بعض المذكرين الآتى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبئاً على أنه كلما كان العجز وال الحاجة أتت كانت عنابة الله به أكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى ، فإذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة وبعد عن موجبات الطعن والذم ، فهذه المعاف هي التي لا جلها وقع ذكر الإناث مقدماً على ذكر الذكور وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكر أكمل وأفضل من الآتى والأفضل الأكمل مقدم على الأئم الأرذل ، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكراً أو آتى يتضمن تقديم ذكر الذكر على ذكر الآتى ، إنما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الآتى على ذكر الذكر ، فلما حصل المتنبى للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى والله أعلم .

**{وأما السؤال الثاني}** وهو قوله لم عبد عن الإناث بلفظ التكبير ، وعن الذكور بلفظ التعريف ؟ بغير أنه المقصود منه التنبئ على كون الذكر أفضل من الآتى .

**{وأما السؤال الثالث}** وهو قوله لم قال تعالى في إعطاء الصنفين (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) ؟  
 بحسبه أن كل شئين يقرن أحدهما بالآخر فيما ذُو جان ، وكل واحد منها يقال له زوج والكنية  
 في (يزوجهم) عائنة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى ، وللمعنى يقرن الإناث والذكور  
 فيجعلهم أزواجاً .

**{وأما السؤال الرابع}** بحسبه أن العقيم هو الذي لا يولد له ، يقال رجل عقيم لا يلد ، وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ، ومنه قيل الملك عقيم لأنه يقطع فيه الإرثام بالقتل والعقوبة .

**{وأما السؤال الخامس}** بحسبه قال ابن عباس (رب لم يشاء إناثاً) يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام لم يكن لها إلا البنات (ويجب لم يشاء الذكور) يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِيْ جَهَابٍ أَوْ يُرِسَّلَ رَسُولًا  
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ  
أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَنْتَرِي مَا أَنْتِ كَتَبْ وَلَا أَلْيَمَنْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهِيْدِي بِهِ مَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطٌ اللَّهُ الَّذِي  
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝

الآية الذكور (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) يزيد محمدًا صلوات الله عليه كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر  
وعبد الله وإبراهيم ، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (وبجعل من يشاء عقيماً)  
يريد عيسى ويحيى ، وقال الآباء كثرون من المفسرين هذا الحكم عام في حق كل الناس ، لأن المقصود  
بيان قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء ، وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله أعلم . ثم ختم  
الآية بقوله (إنه علیم قادر) قال ابن عباس عليهما خلق قادر على ما يشاء أن يخلقه والله أعلم .

قوله تعالى : **﴿وَمَا كَانَ لَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حَجَابٍ أَوْ يُرِسَّلَ رَسُولًا  
وَلَا أَلْيَمَانْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهِيْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
صِرَاطٌ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾**

اعلم أنه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه بيان أنه كيف يخنس أنبيائه بوحيه وكلامه  
وفي الآية مسائل :

**﴿الْمُسَأَلَةُ الْأُولَى﴾** (وما كان لبشر) وماصح لأحد من البشر (أن يكلمه الله) إلا على أحد  
ثلاثة أوجه ، إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى  
وابراهيم عليه السلام في ذبح ولده ، وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في  
صدره ، وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ ، وهذا أيضاً وحي بدليل أنه تعالى أسمع  
موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيًا ، قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وإما على أن  
يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري طريق الحصر  
أن يقال وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة  
مبلغ ، وإذا كان الأول وهو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فهو إما أن يقال إنه

لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه ، أما الأول وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله (إلا وحياً) وأما الثاني وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله (أو من وراء حجاب) وأما الثالث وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله (أو يرسل رسوله فيوحي بيادنه ما يشاء) .

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحى ، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي ، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعه فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى وهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض .

**﴿المسألة الثانية﴾** القائلون بأن الله في مكان احتجوا بقوله (أو من وراء حجاب) وذلك لأن التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه (أحددها) أن يكون الله من وراء حجاب ، وإنما يصح ذلك لو كان مختصاً بمكان معين وجهة معينة (والجواب) أن ظاهر اللفظ وإن أومم ما ذكرتم إلا أنه دلت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة ، فوجب حل هذا اللفظ على التأويل ، والمعنى أن الرجل إذا سمع كلاماً مع أنه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شيئاً بما إذا تكلم من وراء حجاب ، والتشابه سبب لجوء المجاز .

**﴿المسألة الثالثة﴾** قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يرى ، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ميراه العبد ، في恁ذ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة ، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله) إلا على هذه الأوجه الثلاثة (والجواب) تزيد في اللفظ قيداً فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله في الدنيا إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة وحيئنذا لا يلزم ما ذكرتموه ، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يحب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيمة والله أعلم .

**﴿المسألة الرابعة﴾** أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات .

**﴿أما الفريق الأول﴾** وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الخنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أحسن من أن يذكروا في ذمرة العقلاه ، واتفق أني قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالى والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيده هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالى ، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف .

المتوالية كلام الله تعالى ، والثاني باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة ، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا أن نقر ونمر ، يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه فتعجبت من سلامه قلب ذلك القائل ، وأما المقللة من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كانتة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة ، أولاً يقال ذلك ، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى ، واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يختلفها في جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثاني قول المعتزلة ، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقا على أن قوله (أو من وراء حجاب ) هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحرف والصوت من وراء حجاب ، قالوا وكذا لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز فأى بعد في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفًا ولا صوتاً ؟ وزعم أبو منصور المازريي السمرقندى أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسمومة ، وإنما المسنون حروف وأصوات يختلفها الله تعالى في الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القاضى هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه : (الأول) أن قوله تعالى (أن يكلمه الله) يدل عليه لأن كلمة أن مع المضارع تقيد الاستقبال (الثاني) أنه وصف الكلام بأنه وحى لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجه (الثالث) أن قوله (أو يرسل رسولاً فيوحي يا ذنه ما يشاء) يقتضى أن يكون الكلام الذى يبلغه الملك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذى سمعه من الله والذى يبلغه إلى الرسول البشرى حادث ، فلما كان الكلام الذى سمعه من الله ماثلاً لهذا الذى يبلغه إلى الرسول البشرى ، وهذا الذى يبلغه إلى الرسول البشرى حادث ومثل الحادث حادث ، وجب أن يقال إن الكلام الذى سمعه من الله حادث (الرابع) أن قوله (أو يرسل رسولاً فيوحي) يقتضى كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال ، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً (والجواب) أنا نصرف جلة هذه الوجوه إلى ذكر نعمتها إلى الحروف والأصوات وننترف بأنها حادثة كانتة بعد أن لم تكن وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك ، فأى حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذى علمت صحته بديهية العقل وبظواهر القرآن ؟ والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ثبت أن الوحي من الله تعالى ، إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر ، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر ، وإلا لزم إما التسلسل ولما الدرر ، وهو محالان ، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر ، ثم هنا أبحاث : (البحث الأول) أن الشخص الأول الذى سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر كيف

يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله ؟ فإن فلنا إنه سمع تلك الصفة القدية المترفة عن كونها حرفًا وصوتًا ، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد ، أما إن فلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلام الله تعالى ، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى .

(البحث الثاني) أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ يملك موصوم لاشيطان مضل ؟ الحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك موصوم لاشيطان خبيث ، وعلى هذا التقدير ، فالوحى من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات :

(المربة الأولى) أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى ، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

(المربة الثانية) أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لا بد له أيضًا من معجزة .

(المربة الثالثة) أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلا بد له أيضًا من معجزة ، ثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع نثلاث مراتب في المعجزات .

(البحث الثالث) أنه لا شك أن ملائكة قد سمعوا الوحي من الله تعالى ابتداء ، فذلك الملك هو جبريل ، ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر ، فالكل محتمل ولو بألف واسطة ، ولم يوجد ما يدل على القطع بوحد من هذه الوجوه .

(البحث الرابع) هل في البشر من سمع وحى الله تعالى من غير واسطة ؟ المشهور أن «وسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة ، بدليل قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وقيل إن محمد عليه سمعه أيضًا لقوله تعالى (فأوحى إله عبده ما أوحى) .

(البحث الخامس) أن الملائكة يقدرون على أن يظروا أنفسهم على أشكال مختلفة ، فبتقدير أن يراه الرسول عليه السلام في كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة ، ليرى أن هذا الذي رأه في هذه المرة عين ما رأه في المرة الأولى ، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى ، لاحتمال أنه حصل الاشتباه في الصوت ، إلا أن الإشكال في أن الحاجة إلى إظهار المعجزة في كل مرّة لم يقل به أحد .

﴿ المسألة السابعة ﴾ دلت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة ، فذلك هل يسمى وحى من الله تعالى إلى إبليس أم لا ، الأظهر منعه ، ولا بد في هذا الموضوع من بحث شامل .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قرأ نافع (أو يرسل رسولاً) بفتح اللام ، فيوحي بسكون الياء وعلمه رفع على تقديره ، وهو يرسل فيوحي ، والباقيون بالنسب على تأويل المصدر ، كأنه قيل ما كان ليشر

أن يكلمه الله إلا وحيأً أو إسماعاً لكلامه من وراء حجاب أو يرسل ، لكن فيه إشكال لأن قوله وحياً أو إسماعاً اسم و قوله (أو يرسل) فعل ، وعطف الفعل على الاسم قبيح ، فأجيب عنه بأن التقدير : وما كان ليشر أن يكلمه إلا أن يوحى إليه وحياً أو يسمع إسماعاً من وراء حجاب أو يرسل رسولاً .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحيح عند أهل الحق أن عندما يبلغ الملك الوحي إلى الرسول ، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي ، وقال بعضهم : يجوز ذلك لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبأ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) وقالوا الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم ، تلك الغرائط العلى منها الشفاعة ترجح ، وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمة الله ، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة ، باطل من وجهين آخرين (الأول) أن النبي ﷺ قال « من رأى في المنام فقد رآني » ، فإن الشيطان لا يتمثل بصورةي « فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول ، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى ؟ (والثاني) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما سلك عمر بجراً إلا وسلك الشيطان بجراً آخر » فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد ، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى ؟ .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قوله تعالى (فيوحي ياذه ما يشاء) يعني فيوحي ذلك الملك ياذن الله ما يشاء الله ، وهذا يقتضي أن الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه ، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه ، بل الله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص ، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله (ما يشاء) والله أعلم .

ثم قال تعالى في آخر الآية (إنه على حكم) يعني أنه على عن صفات المخلوقين (حكيم) يجري أفعاله على موجب الحكمة ، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام ، وأخرى بإسماع الكلام ، وثالثاً بتوصیط الملائكة الكرام : ولما بين الله تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال (وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا) والمراد به القرآن وسماء روحًا ، لانه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر .

قوله تعالى : ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ واحتلَّ العلماء في هذه الآية مع الإجماع ، على أنه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحي على السُّكْفَرِ ، وذُكروا في الجواب وجوهها (الأول) (ما كنت تدرى ما الكتاب) أي القرآن (ولا الإيمان) أي الصلاة ، لقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم (الثاني) أن يحمل هذا على حذف المضاف ، أي (ما كنت تدرى ما الكتاب) ومن أهل الإيمان ، يعني من الذي يؤمن ، ومن الذي لا يؤمن (الثالث) (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) حين كنت طفلاً في المهد (الرابع)

( الإيمان ) عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وإنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى ، بل إنه كان عارفاً بالله تعالى ، وذلك لا ينافي ما ذكرناه ( الخامس ) صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية . فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة .

ثم قال تعالى ( ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ) واختلفوا في الضمير في قوله ( ولكن جعلناه ) منهم من قال إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان لأن الله هو الذي يعرف به الأحكام ، فلا جرم شبه بالنور الذي يهدي به ، ومنهم من قال إنه راجع إلىهما معاً ، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى ( وإذا رأوا تجارة أو هوا انفضوا إليها ) .

ثم قال ( نهدى به من نشاء من عبادنا ) وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه في نفسه هدى كما قال ( هدى للتيقين ) فإنه قد يهدى به البعض دون البعض وهذه المداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة لأن الله تعالى قال في صفة محمد ﷺ ( وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ) وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل وقوله ( نهدى به من نشاء من عبادنا ) يفيد الخصوص فثبت أن المداية بمعنى الدعوة عامة والمداية في قوله ( نهدى به من نشاء من عبادنا ) خاصة والمداية الخاصة غير المداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله ( نهدى به من نشاء من عبادنا ) أمراً مغایراً الإظهار الدلائل وإزالة الأعذار ، ولا يجوز أيضاً أن يكون عبارة عن المداية إلى طريق الجنة لأن الله تعالى قال ( ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ) أي جعلنا القرآن نوراً نهدى به من نشاء ، وهذا لا يليق إلا بالمداية التي تحصل في الدنيا ، وأيضاً فالهداية إلى الجنة عندكم في حق البعض واجب ، وفي حق الآخرين محظوظ ، وعلى التقديرين فلا يفيق لقوله ( من نشاء من عبادنا ) فائدة ، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه .

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ ( وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ) وبين تعالى أنه كما أن القرآن يهدي فكذلك الرسول يهدي ، وبين أنه ( يهدي إلى صراط مستقيم ) وبين أن ذلك الصراط هو ( صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ) به بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يبعد غير الله .

ثم قال ( ألا إلَى اللَّهِ تُصْبَرُ الْأُمُورُ ) وذلك كالوعيد والإجر ، وبين أن أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله تعالى ، أي إلى حيث لا حاكم سواه فيجازى كل منهم بما يستحقه من نواب أو عقاب .

( قال رضى الله عنه ) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاثة وستمائة ، يا مدبر الأمور ، يا مدهر الدهور يا معطى كل خير وسرور ، يا دافع البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور ، في ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

(٤٤) سُورَةُ الْخَرْفَ عِكْرَيْهِ  
وَأَنِّي أَنْهَا شَيْئَهُ وَشَهَادَهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌّ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ  
وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلَّ حَكِيمٌ أَفَضَرَبْ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ  
كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا  
كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضِيَ مُثْلُ الْأَوَّلِينَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌّ ، والكتاب المبين ، إننا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلمكم تعقولون ، وإنه في أُمِّ الكتاب لدينا على حكيم ، أفترض رب عنكم الذكر صفحًا أن كنتم قومًا مسرفين ، وكم أرسلنا من نبى في الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين .  
اعلم أن قوله ( حم ، والكتاب المبين ) يتحمل وجهاً ( الأول ) أن يكون التقدير هذه ( حم )  
والكتاب المبين ) فيكون القسم وأقاماً على أن هذه السورة هي سورة ( حم ) ويكون قوله ( إننا  
جعلناه قرآنًا عربيًّا ) ابتداء لكلام آخر ( الثاني ) أن يكون التقدير هذه ( حم ) .

ثم قال ( والكتاب المبين ، إننا جعلناه قرآنًا عربيًّا ) فيكون المقصود عليه هو قوله ( إننا جعلناه  
قرآنًا عربيًّا ) وفي المراد بالكتاب قوله ( أحد ما ) أن المراد به القرآن ، وعلى هذا التقدير فقد  
أقسم بالقرآن أنه جعله عربيًّا ( الثاني ) أن المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسام بالكتابة لكثره  
ما فيها من المنافع ، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط فإن المتقدم إذا استتبط علمًا وأنبهه في  
كتاب ، وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد ، فبهذا الطريق تكاثرت  
الفوائد واتهت إلى الغايات العظيمة ، وفي وصف الكتاب بكونه مبيناً من وجوه ( الأول ) أنه المبين

المذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم (والثاني) المبين هو الذي أبان طريق المدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة .

واعلم أن وصفه بكل منه مبيناً بمحاجز لأن المبين هو الله تعالى وسمى القرآن بذلك توسيعاً من حيث إنه حصل البيان عنده .

أما قوله ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الفائزون بحدوث القرآن احتجروا بهذه الآية من وجوه (الأول) أن الآية تدل على أن القرآن بمحاجز ، والمحاجز هو المصنوع المخلوق ، فإن قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماء عربية ؟ قلنا هذا مدفوع من وجهين (الأول) أنه لو كان المراد بالجعل هذا الوجب أن من سماء عجيبة أن يصير عجيميا وإن كان بلغة العرب وعلمون أنه باطل (الثاني) أنه لو صرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية بمحولة ، والتسمية أيضاً كلام الله ، وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه ، وإذا صحت ذلك في البعض صح في الكل (الثالث) أنه وصفه بكل منه قرآنًا ، وهو إنما سمي قرآنًا لأنه جعل بعضه مقوينا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولاً (الثالث) أنه وصفه بكل منه عربية ، وهو إنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بسمياتهم بوضع العرب وأصطلاحاتهم ، وذلك يدل على كونه معمولاً ومحولاً (والرابع) أن القسم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين ، وتأكد هذا أيضاً بما روى أنه عليه السلام كان يقول يارب طه ويس ويأرب القرآن العظيم (والجواب) أن هذا الذي ذكر تمته حق ، وذلك لأنكم إنما استدلتم بهذه الوجه على كون هذه الحروف المتواترة والكلمات المتباقة محدثة مخلوقة ، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينazuكم فيه ، بل كان كلامكم يرجع خاصله إلى إقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة .

﴿المسألة الثانية﴾ كلمة لعل للمعنى والترجي وهو لا يليق بين كان عالماً بعواقب الأمور ، فكان المراد منها هنا : كي أى أنزلناه قرآنًا عربياً لكن تقلعوا معناه ، وتحيطوا بمحاجزه ، قال المعتزله فصار حاصل الكلام (إنما أنزلناه قرآنًا عربياً) لأجل أن تحيطوا بمعناه ، وهذا يفيد أمرين (أحد هما) أن أفعال الله تعالى ممللة بالأغراض والدواعي (والثاني) أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدى به الناس ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل المداية والمعرفة ، خلاف قول من يقول إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض ، واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور ، وأجبتنا عنه مشهورة ، فلا فائدة في الإعادة والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (لعلكم تقلعون) يدل على أن القرآن معلوم وليس فيه شيء مجهول خلافاً لمن يقول بعضه معلوم وبعضه مجهول .

نعم قال تعالى (ولأنه في ألم الكتاب لدينا لعل حكيم) وفيه مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ قرأ حمزة والكسان (أُمُ الْكِتَابَ) بـكسر الألف والياءون بالضم .  
 ﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ الضمير في قوله وإنه عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في (أُمُ الْكِتَابَ لِدِينَا) واختلفوا في المراد بأُمِ الْكِتَابَ على قولين : (فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ) إِنَّ الْلَّوْحَ الْمَحْفُوظَ لِقَوْلِهِ (بل هو فِرْقَانٌ مُجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) .

واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة هبنا كلها صفات اللوح المحفوظ .  
 ﴿الصَّفَةُ الْأُولَى﴾ أنه (أُمِ الْكِتَابَ) والسبب فيه أن أصل كل شيء في القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، ثم نقل إلى سماء الدنيا ، ثم أُنزل حالاً بحسب المصلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلْمَ، فَأَمْرَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا يَرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ» . فالكتاب عند الله فان قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان ؟ فلذا إنما تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب ، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه .

﴿الصَّفَةُ الثَّانِيَةُ﴾ من صفات اللوح المحفوظ قوله (لِدِينَا) مكذا ذكره ابن عباس ، وإنما خصة الله تعالى بهذا التشيريف لكونه كتاباً جامعاً لأحوال جميع المخلوقات ، فكانه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكته ، فلا جرم حصل لهذا التشيريف ، قال الواحدى ، وبختمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لديننا في أُمِ الْكِتَابَ .

﴿الصَّفَةُ الثَّالِثَةُ﴾ كونه (عَلِيًّا) والمعنى كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عالياً على جميع الكتب بسبب كونه ممجزاً باقياً على وجه الدهر .

﴿الصَّفَةُ الرَّابِعَةُ﴾ كونه (حَكِيمًا) أي حكماء أبواب البلاغة والفصاحة . وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة ، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه (وَالْقَوْلُ الثَّانِي) في تفسير أُمِ الْكِتَابَ أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ مِنْ آيَاتٍ حُكَمٍ مِّنْ أُمِ الْكِتَابَ) ومعنى أن سورة حم وافعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم .

قوله تعالى : ﴿أَفْنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ وفيه مسائل :  
 ﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ فرأى حمزة والكسان (إِنْ كُنْتُمْ) بـكسر الألف تقديره : إن كنتم مسرفين لا نضر بعنكم الذكر صفحأ ، وقيل إن بمعنى إذ كفوله تعالى (وَذَرُوا مَا تَقَرَّبُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وباجملة فأجلزاهم مقدم على الشرط ، وفروا اليائون بفتح الألف على التعليل أى لأنكم مسرفين .

﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ قال الفراء والزجاج يقول ضربت عنه وأضررت عنه أى تركته وأمسكت عنه وقوله (صَفْحًا) أى إعراضنا والأصل فيه أنك تو ليت بصفحة عنفك وعلى هذا فقوله (أَفْنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا) تقديره : أَفْنَضْرِبُ عَنْكُمْ إِعْرَاضَنَا أو تقديره أَنْصَفْحَ عَنْكُمْ صفحأ ، واختلفوا

وَلَئِن سَأَلْتُهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ  
 ۖ إِنَّمَا الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ  
 ۖ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَإِنْشَرَنَا بِهِ بَلْدَةً مِنْتَأْمِنًا كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ  
 ۖ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُبُونَ  
 ۖ لِتَسْتَوُا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي

فِي مَعْنَى الذِّكْرِ فَقَبِيلُ مَعْنَاهُ أَفْرَدُ عَنْكُمْ ذِكْرُ عِذَابِ اللَّهِ ، وَقَبِيلُ أَفْرَدُ عَنْكُمِ النِّصَانُ وَالْمَوَاعِظُ ، وَقَبِيلُ أَفْرَدُ عَنْكُمُ الْقُرْآنُ ، وَهَذَا اسْتَهْمَامُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ ، يَعْنِي إِنَّا لَا نَتَرَكُ هَذَا الإِعْذَارَ إِلَيْهِ بِسَبِيلِ كُونُكُمْ مُسْرِفِينَ ، قَالَ قَاتَادَةُ : لَوْ أَنْ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ وَرَدَهُ أَوْ أَتَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ هَلْ سَكَوَتُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ كَرَرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عَشْرِينَ سَنَةً إِذَا عَرَفُتُمْ هَذَا فَنَقُولُ هَذَا الْكَلَامُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنَ : (الْأُولُّ) الرَّحْمَةُ يَعْنِي أَنَّا لَا نَتَرَكُكُمْ مَعْ سُوءِ اخْتِيَارِكُمْ بَلْ نَذْكُرُكُمْ وَنُنَظِّمُكُمْ إِلَى أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى الطَّرِيقِ الْحَقِّ (الثَّانِي) الْمُبَالَغَةُ فِي التَّغْلِيظِ يَعْنِي أَنْظَنُونَ أَنْ تَرَكُوْنَ أَمْ تَرِيدُونَ ، كَلَّا بَلْ نَلْزِمُكُمُ الْعَلْمَ وَنَدْعُوكُمْ إِلَى الدِّينِ وَنَنْوَهُوكُمْ مَعْ أَخْلَانِنَا بِالْوَاجِبِ وَأَقْدَمْنَا عَلَى الْقَبِيحِ .  
 ﴿الْمَسَأَةُ الْثَالِثَةُ﴾ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ (أَنْتَرِبُ) لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفِ تَقْدِيرِهِ أَهْمَلْكُمْ فَتَرَبُّ عَنْكُمُ الذِّكْرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (وَكُمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ) وَالْمَعْنَى أَنْ هَادِةُ الْأُمَّمَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ هُوَ التَّكْذِيبُ وَالْأَسْتِزَاءُ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَنَادِيَ مِنْ قَوْمٍ بِسَبِيلِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْأَسْتِزَاءِ لَأَنَّ الْمُصِيَّةَ إِذَا عَمِتْ خَفَتْ .  
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّهُمْ بِطْشًا) يَعْنِي أَنَّ أَوْلَئِكَ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ كَانُوا أَشَدَّ بِطْشًا مِنْ فَرِيشَ يَعْنِي أَكْثَرَ عَدْدًا وَجَلَدًا ، ثُمَّ قَالَ (وَمُضِيَ مِثْلُ الْأَوَّلِينَ) وَالْمَعْنَى أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ سَلَكُوا فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مُسَالِكَ مِنْ كَانَ قَبْلَهُمْ فَلَيَحْذِرُوْنَا أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْخَزَى مِثْلَ مَا نَزَلَ بِهِمْ فَقَدْ ضَرَبَنَا لَهُمْ مَثَلَّهُمْ كَمَا قَالَ (وَكَلَّا ضَرَبَنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) وَكَفَوْلَهُ (وَسَكَتَنَ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) إِلَى قَوْلِهِ (وَضَرَبَنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتُهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَإِنْشَرَنَا بِهِ بَلْدَةً مِنْتَأْمِنًا كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ ، وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُبُونَ ،

**سَخْرَلَّا هَذَا وَمَا كَانُوا مُقْرِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا الْمُنْقَلِبُونَ ﴿٢٧﴾**

لستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوينتم عليه وتقربوا سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنما إلى ربنا لمنقلبون ۝ .

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضاً ذكر الأنبياء قوله (ولأن سأله) يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء ، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار لأن الأقرب رجوعه إلى الكفار ، فيبين تعالى أنهم مقررون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم ، والمقصود أنهم مع كونهم مقررين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث ، وقد تقدم الإثبات عنهم ، ثم إنما تعالى ابتدأ دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال (الذي جعل لكم الأرض مهدأً) ولو كان هذا من حلة كلام الكفار لو جب أن يقولوا : الذي جعل لنا الأرض مهدأً ، ولأن قوله في أثناء الكلام (فأشعرنا به بلدة ميتاً) لا يتعلق إلا بكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلاً يقول الذي بني هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كان ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حبيبة فوق ما تعرفه فأزيد في وصفه . فيكون النutan جعياً من رجلين لرجل واحد . إذا عرفت كيفية النظم في الآية فتقول إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى .

(الصفة الأولى) كونه خالقاً للسموات والأرض والمتكلمون يبنوا أن أول العلم بالله العلم يكونه محدثاً للعلم فاعلاً له ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقاً ، وهذا إنما يتم إذا فسراً الخلق بالإحداث والإبداع .

(الصفة الثانية) العزيز وهو الغالب وما لا جله يحصل المكنته من الغلة هو القدرة وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة :

(الصفة الثالثة) العليم وهو إشارة إلى كمال العلم ، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادرًا على خلق جميع المكنفات ، فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفاً بـ اثنين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل .

(الصفة الرابعة) قوله (الذي جعل لكم الأرض مهدأً) وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الأرض مهدأً إنما حصل لأنجل كونها واقفة ساكنة لأنجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية وفي كونها سازرة لعيوب الأحياء والأموات ، ولما كان المهد موضع الراحة للنبي جعل الأرض مهدأً لكثرتها ما فيها من الراحات .

(الصفة الخامسة) قوله (وجعل لكم فيها سبلًا) والمقصود أن الانتفاع الناس إنما يكمل

إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، ولو لا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة وإلا لما حصل هذا الارتفاع .

ثم قال تعالى ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنته من الامتداد ، والثاني المعنى لتهدوا إلى الحق في الدين .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله تعالى (والذى نزل من السماء ما بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً) وهنا مباحث (أحدها) أن ظاهر هذه الآية يقتضى أن الماء ينزل من السماء ، فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب وسي نازلاً من السماء لأن كل ماساك فهو سماء ؟ وهذا البحث قد من ذكره بالاستقصاء (وثانها) قوله (بقدر) أي إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح وغير قدر حتى أغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشاً لكم ولأنتم (وثالثها) قوله (فأنشرنا به بلدة ميتاً) أي خالية من النبات فأحييتما وهو الإشارة .

ثم قال ﴿ كذلك تخرجون ﴾ يعني أن هذا الدليل كا يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيمة ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإمامة كهذه الأرض التي أنشرت بعد ما كانت بيئة ، وقال بعضهم بل وجه التشبيه أن يبعدم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله تعالى (والذى خلق الأزواج كلها) قال ابن عباس الأَزْوَاج الضروب والأَنْواع كالمحلو والمحمض والأبيض والأسود والذكور والإناث ، وقال بعض المحققين كل ماسوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقادم والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف ، وكونها أزواجاً يدل على كونها ممكنة الوجود في ذاتها محدثة مسبوقة بالعدم ، فاما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الصندوق والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواج كلها) أي كل ما هو زوج فهو مختلف ، فدلل هنا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية ، وأقول أيضاً العلماء بعلم الحساب يبنوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه (الأول) أن أقل الأزواج هو الإثنان وهو لا يوجد إلا عند حصول وحدتين فالزوج يحتاج إلى الفرد والفرد وهو الوحيدة غنية عن الزوج والذى أفضل من المحتاج (الثانى) أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساوين والفرد هو الذى لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج (الثالث) أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجاً والثانى فرداً فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معاً ، وأما العدد الزوج فلا بد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجاً والمشتمل على القسمين أفضل من الذى

لا يكون كذلك (الرابع) أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلاً للقسم الآخر في الذات والصفات والمقدار ، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فشله حاصل لغيره لم يكن هو كاملاً على الإطلاق ، أما الفرد فالفردية كانت له خاصة لا لغيره ولا مثله فكذلك حاصل له لا لغيره فكان أفضل (الخامس) أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركاً للقسم الآخر في بعض الأمور ومتبايناً له في أمور أخرى وما به المخالفة فكل زوجين فيما يمسكنا الوجود لذاتهما وكل مسكن فهو محتاج فثبت أن الزوجية منشأ الفقر وال الحاجة ، وأما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات ، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غني عن ذلك العدد ، فثبت أن الأزواج مسكنات ومعدنات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقبل بنفسه الغي عن كل ما سواه ، فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواجا كلها) .

(الصفة الثامنة) قوله (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما ترکبون) وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر ، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة ، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام وهذا سؤال :

(السؤال الأول) لم يقل على ظهورها ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ما ترکبون (الثاني) قال الفراء أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى البعد بمنزل الجيش والجند ، ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) أن هذا التأنيث ليس تأنيثاً حقيقياً فإذا اختلف اللفظ فيه كما يقال عندي من النساء من يوافقك .

(السؤال الثاني) يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال ترکبون ؟ (والجراب) غلب المتدى بغير واسطة لقوته على المتدى بواسطة .

ثم قال تعالى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) ومعنى ذكر نعمة الله ، أن يذكروها في قلوبهم ، ولذلك الذكر هو أن يمرف أن الله تعالى خلق وجه البحر ، وخلق الرياح ، وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد ، فإذا ذكروا أن خلق البحر ، وخلق الرياح ، وخلق السفينة على هذه الوجه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكه ليس من تدبير ذلك الإنسان ، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير ، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى ، فيحمله ذلك على الإنقياد والطاعة له تعالى ، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمة التي لا نهاية لها .

ثم قال تعالى (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقربين) .

واعلم أنه تعالى عين ذكرآ معيناً لرکوب السفينة ، وهو قوله (بسم الله مجرها ومرسها) وذكر آخر لرکوب الأنعام ، وهو قوله (سبحان الذي سخر لنا هذا) وذكر عند دخول المنازل

ذكر آخر ، وهو قوله (رب أزرني منزلا مباركا وأنت خير المزلين) وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الإنسان ، لا بد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهدىها إلى طاعة الإنسان ، ولذلك سبحانه خلق تلك الهميمة على وجوه مخصوصة في خلقها للظاهر ، وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر : لأنها تمشي على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ، فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للإنسان ومسخرة له ، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب وخاص بعقله في بحث هذه الأسرار ، عظم توجيهه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية ، فلا بد وأن يقول (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال أبو عبيدة : فلان مقرن لفلان ، أي ضابط له . قال الواحدى : وكان اشتقاء من قوله ضرب له قرنا ، ومعنى أنا قرن لفلان ، أي مثاله في الشدة ، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفالك وأن نضبطها ، فسبحان من سخر لها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته ، روى صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال « بسم الله ، فإذا استوى على الدابة ، قال الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ، إلى قوله لنقبلون » وروى القاضى في تفسيره عن أبي مخلد أن الحسن بن علي عليهما السلام : رأى رجل ركب دابة ، فقال سبحان الذي سخر لنا هذا ، قال له ما بهدا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم يقول : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وروى أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سافر وركب راحلته ، كبر ثلاثة ، ثم يقول : سبحان الذي سخر لنا هذا ، ثم قال : اللهم إني أسألك في سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى ، اللهم هون علينا السفر واطوعنا بعد الأرض ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة على الأهل ، اللهم احببنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلهنا » وكان إذا رجع إلى أهله يقول « آييون تائبون ، لربنا حامدون » قال صاحب الكشاف : دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (لستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم) فذكره بلام كى ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل ، وهذا يدل على بطلان قولهم إنه تعالى أراد السكير منه ، وأراد الإصرار على الإنكار (الثانى) أن قوله (لستوا) يدل على أن فعله معلم بالأغراض (الثالث) أنه تعالى بين أن خلق هذه الحيوانات على هذه الطبانع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد ، فلو كان فعل العبد فعلاً لله تعالى ، لكن معنى الآية إن خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله في لسان العبد ، وهذا باطل ، لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوسایط .

واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم ، فلا فائدة في الإعادة .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكَفُورٌ مِّينُ ۝ أَمْ أَخْذَ مِنْ  
يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنُكُمْ بِالْبَيْنَ ۝ وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِرَحْمَنِ مَثَلًا  
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوْ مَنْ يُنَشُّوْنَ فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ  
غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ  
سَتُكَتَّبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ۝

تم قال تعالى ( وإنما إلى ربنا من قبلون ) وأعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك في خطر الملاك ، فإنه كثيراً ما تكسر السفينة ويملك الإنسان وراكب الدابة أيضاً كذلك لأن الدابة قد يتافق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب ، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك ، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت ، وأن يقطع أنه هالك لا حال ، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضاياه وقدره ، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطن نفسه على الموت .

قوله تعالى : ( وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكافور مبين ، أم اخذ ما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحم مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ في الخلية وهو في الخصم غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنانا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ) .

أعلم أنه تعالى لما قال ( ولئن سأله من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) بين أنهم مع إقرارهم بذلك ، جعلوا له من عباده جزءاً ، والمقصود منه التنبية على قلة عقولهم وبخافة عقولهم . وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر : جزء بعض الواي والهمزة في كل القرآن وما لفتن ، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال جزاً بفتح الزاي بلا همزة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المراد من قوله ( وجعلوا له من عباده جزءاً ) قوله : ( الأول ) وهو المشهور أن المراد أنهم أنبتوه ولداً ، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه ، قال عليه السلام « قاطمة بضعة مني » لأن المقبول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، ثم يتربى ذلك الجزء ويتوارد منه شخص مثل ذلك الاصل ، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه ،

قوله (وجعلواه من عباده جزماً) معنى جعلوا حكموا وأثروا وقلوا به ، والمعنى أنهم أثروا الله جزماً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده .

واعلم أنه لو قال وجعلوا العباد منه جزماً ، أفاد ذلك أنهم أثروا أنه حصل جزء من أحراشه في بعض عباده وذلك هو الولد ، فكذا قوله (وجعلواه من عباده جزماً) معناه وأثروا الله جزماً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده ، والحاصل أنهم أثروا الله ولداً ، وذكره وفي تقرير هذا القول وجوهها أخرى ، فقالوا الجزء هو الأخرى في لغة العرب ، واحتجوا في إثبات هذه اللغة بيتين فالاول

قوله : إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب قد تجزى الحرة المذكاة أحياناً

وقوله : زوجتها من بنات الاوس مجنة للعوسر اللدن في آياتها غزل

وزعم الزجاج والأزهري وصاحب السكشاف : أن هذه اللغة خاسدة ، وأن هذه الآيات مصنوعة (والقول الثاني) في تفسير الآية أن المراد من قوله (وجعلواه من عباده جزماً) إثبات الشركاء لله ، وذلك لأنهم لما أثروا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله ، بل بعضها لله ، وبعضها لغير الله ، فهم ما جعلوا الله من عباده كلهم ، بل جعلوا الله منهم بعضًا وجزماً منهم ، قالوا والذى يدل على أن هذا القول أولى من الأول ، أنا إذا حلنا هذه الآية على إنكار الشركاء لله ، وحلنا الآية التي بعدها على إنكار الولد لله ، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين .

قوله تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَدْ مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكِمْ بَالْبَنِينَ﴾ .

واعلم أنه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجه ، وذلك لأنه تعالى بين أن إثبات الولد لله محال ، وبتقدير أن يثبت الولد فحمله بنتاً أيضاً محال ، أما بيان أن إثبات الولد لله محال ، فلأن الولد لا بد وأن يكون جزماً من الولد ، وما كان له جزء كان مرتكباً ، وكل مركب مسكن ، وأيضاً ما كان كذلك فإنه يقبل الانصال والانقصال والاجتماع والافتراق ، وما كان كذلك فهو عبد محظوظ ، فلا يكون إلهاً قد ياماً أزلياً .

(وأما المقام الثاني) وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتاً ، وذلك لأن الإناث أفضل من البنات ، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده ، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله ، وذلك مدفوع في بديهيته العقل ، يقول أصفيت فلاناً بهذا ، أى آثرته به بإشاراً حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك ، وهو قوله (الأصفاكِمْ ربكم بالبنين) ثم بين نقصان البنات من وجوه (الأول) قوله (وإذا بشر احدم بما ضرب للرحم مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) والمعنى أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعقل إثباته لله تعالى أو عن بعض العرب أن أمراته وضعفت اثنى ، فهو جزء البيت الذي فيه المرأة ، فقالت :

مَا لَابِي حَزَّةً لَا بَاتِنَا بَلْ فِي الْبَيْتِ الَّذِي بَلَّنَا غَضِيبَانَ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَيْنَا  
لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِنَا وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطَيْنَا

وقوله ( ظال ) أى صار ، كا يستعمل أكثر الأفعال الناقصة ، قال صاحب الكشاف : قرى مسود ومسود ، والتقدير وهو مسود ، فتفع هذه الجملة موقع الخبر ( والثاني ) قوله ( أو من ينشأ في الخلية وهو في الخصم غير مبين ) وفيه مسائل :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ قرأ حزة والكسان ومحفظ عن عاصم ينشئ بضم الياء وفتح التون وتشديد الشين على مالم يسم فاعله ، أى يربى ، والباقيون ينشأ ، بضم الياء وسكون التون وفتح الشين ، قال صاحب الكشاف : وقرى ، ينشأ ، قال ونظير المنشأة بمعنى الإنشاء ، المغالاة بمعنى الإغلاه .  
﴿الْمَسَأَةُ الْثَّانِيَةُ﴾ المراد من قوله ( أو من ينشأ في الخلية ) التنبية على نقصانها ، وهو أن الذي يربى في الخلية يكون ناقص الذات ، لأنه لو لا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالخلية ، ثم بين نقصان حالها بطريق آخر ، وهو قوله ( وهو في الخصم غير مبين ) يعني أنها إذا احتاجت الخاصة والمناظعة مجبرت وكانت غير مبين ، وذلك أضعف لسانها وقلة عقلها وبلاهة طبعها ، ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بمحاجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها ، فهذه الوجوه دالة على كمال نقصانها ، فكيف يجوز إضاقتها بال ولدية إليه .

﴿الْمَسَأَةُ الْثَّالِثَةُ﴾ دلت الآية على أن التحليل مباح للنساء ، وأنه حرام للرجال ، لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان ، وإفدام الرجل عليه يكون إلقاء نفسه في الذل وذلك حرام ، لقوله عليه السلام « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله ، والغرين بزينة التقوى ، قال الشافعى :

تدرعت يوماً للقتوع حصينة أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا  
ولم أحذر الدهر الحتون وإنما قصاراه أن يربى في الموت والفقرا  
فأعددت الموت الإله وعفوه وأعددت الفقر التجلد والصبرا

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَهَا﴾ وفيه مسائل :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ المراد بقوله : جعلوا ، أى حكموا به ، ثم قال ( أشهدوا خلقهم ) وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعني أنهم لم يشهدوا خلقهم ، وهذا ما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية ، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرغة على إثبات النبوة ، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة ، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية ، ثبتت لهم ذكرها هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ، ثم إنه تعالى هدم ف قال ( ستكتب شهادتهم ويسألون ) وهذا يدل على ان القول بغير دليل منكرا ، وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد . قال أهل

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الْرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ  
 أَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمِسُوكُونَ (١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا  
 إِبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ إِشْرِهِمْ مُهَتَّدُونَ (٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ  
 فِي قَرِيرَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفِّهَا إِنَّا وَجَدْنَا إِبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ إِشْرِهِمْ

التحقيق : هؤلا . الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه (أولها) إثبات الولد لله تعالى (وثانيها) أن ذلك الولد بنت (وثالثها) الحسم على الملائكة بالأنوثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : عند الرحمن بالنون ، وهو اختيار أبي حاتم واحتاج عليه بوجوه (الأول) أنه يوافق قوله (إن الذين عند ربك ) و قوله (ومن عنده) (والثاني) أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) أن التقدير أن الملائكة يكرتون عند الرحمن ، لا عند هؤلا . الكفار ، فكيف عرفوا كونهم إناثاً ؟ وأما الباقون فقرأوا عباد جمع عبد وقيل جمع عبد ، كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونیام ، وهي قراءة ابن عباس ، واختيار أبي عبيد ، قال لأنه تعالى رد عليهم قولهم : إنهم بنات الله ، وأخبر أنهم عبد ، وبؤيد هذه القراءة قوله ( بل عباد مكرمون ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ نافع وحده : (أشهدوا) بهمة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة ، أي [أ] أحضروا خلقهم ، وعن نافع غير محدود على مالم يسم فاعله ، والباقيون : أشهدوا ، بفتح الألف ، من [أشهدوا ، أي أحضروا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتاج من قال بتفصيل الملائكة على البشر بهذه الآية ، فقال أما قراءة عند بالنون ، فهذه العندية لا شك أنها عنديه الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ، وللفظة (م) توجب الحصر ، والمفهوم أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم ، فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر ، وأما من قرأ عباد جمع العبد ، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص في القرآن بالمؤمنين ف قوله (م عباد الرحمن ) يفيد حصر العبودية فيهم ، فإذا كان اللفظ الدال على العبودية دالاً على الفضل والشرف ، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالاً على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم . وذلك يوجب كونهم أفضل من غيرهم والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، أَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمِسُوكُونَ ، بل قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آنَارَهُمْ مُهَتَّدُونَ ،

**مُقْتَدُونَ ﴿٢﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ إِبَاهَ كُمْ قَالُوا إِنَّا إِيمَانَ**

**أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣﴾ فَإِنْ قَمَّنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٤﴾**

وكذاك ما أرسينا من قبلك في فريدة من نذير إلا قال متزوفها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون ، قال ألو جئتم بأهدي ما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فاتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين .

اعلم أنه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، وهو أنهم قالوا لوشاء الرحمن ما عبدنام ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في أن كفر الكافر يقع بارادة الله من وجهين (الأول) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدنام) وهذا صريح قول المجبرة ، ثم إنه تعالى أبطله بقوله (ما لهم بذلك من علم إن هم لا يخربون) فثبت أنه حكى مذهب المجبرة ، ثم أردفه بالإبطال والإفساد ، ثبت أن هذا المذهب باطل ، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام (سيقول الدين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا) إلى قوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الأظن وإن أنتم إلا تخربون) ، (والوجه الثاني) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم (فأولها) قوله (وجعلوا له من عباده جزماً) ، (وثانيها) قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ، (وما ثالثها) قوله تعالى (وقالوا لوشاء الرحمن ما عبدنام) فلما حكى هذه الأفوار بليل الثلاثة بعضها على إثر بعض ، وثبت أن القولين الأولين كفر محض . فكذلك هذا القول الثالث يحجب أن يكون كفرا ، واعلم أن الواحدى أجاب في البسيط عنه من وجهين (الأول) ما ذكره الزجاج : وهو أن قوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) عائد إلى قوله لهم الملائكة إناث وإلى قوله لهم الملائكة بنات الله (والثانى) أنهم أرادوا بقولهم (لو شاء الرحمن ما عبدنام) أنه أمرنا بذلك ، وأنه رضى بذلك ، وأقرنا عليه ، فأنكر ذلك عليهم ، فهذا ما ذكره الواحدى في الجواب ، وعندى هذان الوجهان ضعيفان (أما الأولى) فالأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين ، وبين وجه بطلانهما ، ثم حكى بعده مذهبا ثالثاً في مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين ، ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الإبطال عن هذا الذى ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجبني عنه في غاية بعد (أما الوجه الثانى) فهو أيضاً ضعيف ، لأن قوله (لو شاء الرحمن ما عبدنام) ليس فيه بيان متعلق بتلك المشينة ، والإجمال خلاف الدليل ، فوجب أن يكون التقدير لو شاء الله ألا نعدهم ما عبدنام ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لا تتفاءل غيره ، فهذا يدل على أنه لم توجد مشينة الله لعدم عبادتهم ، وهذا عين مذهب المجبرة ، بالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا

المعنى ، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية ، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم ، وأجاب صاحب *الكتشاف* عنه من وجهين (الأول) أنه ليس في اللفظ ما يدل على أنهم قالوا مستهزئين ، وادعاء مala دليل عليه باطل (الثاني) أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهي : أنهم (جعلوا الله من عباده جزماً) وأنهم جعلوا الملائكة إناناً ، وأنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدنام) فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد ، وجب أن يكون الحال في حكاية القولين الأولين كذلك ، فلهم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ، ومعهم أنهم كفر ، وأما القول بأن الطعن في القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول ، وفي التزول الثالث لاعلي نفسه بل على إرادته على سبيل الاستهزاء ، فهذا بوجب تشویش الداعم ، وإنه لا يجوز في كلام الله .

واعلم أن الجواب الحق عندى عن هذا الكلام ما ذكرناه في سورة الأنعام ، وهو أن القوم إنما ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بهشية الله تعالى للنكر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين ، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا بذلك عذابهم إن الله يريد الكفر من الكافر بل لأجل أنهم قالوا لما أرادوا الكفر من الكافر وجب أن يصبح منه أمر الكافر بالإيمان ، وإذا صرفا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المغزلة بهذه الآية ، وتمام التقرير مذكور في سورة الأنعام والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال (ما لهم بذلك من علم إن م لا يخرون) وتقريره كأنه قيل إن القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقع منه أن يأمره بالإيمان لأن مثل هذا التكليف قبيح في الشاهد فيكون قبيحاً في الغائب فقال تعالى (ما لهم بذلك من علم) أي ما لهم بصحة هذا القياس من علم، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمقاصد لأجل أن كل ماسوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضرر بحصول المفاسد، فلا جرم أن صريحة طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينفعه شيء ولا يضره شيء فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبني أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) أي ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد في هذا الباب علم.

ثم قال (إن م لا يخرصون) أي كالم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع  
كونهم كذلكين غرائبين في ذلك القياس لأن قياس المزه عن النفع والضر من كل الوجوه على  
المحتاج المنفع المتضرر قياس باطل في بدئية العقل .

ثم قال (أم آتیناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) يعني أن القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل ، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله (ما هم بذلك من علم إن م إلا يخرون) وأما إثباته بالنقل فهو أيضاً باطل لقوله (أم آتیناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) والضمير في قوله من قبله للقرآن أو الرسول ، والمعنى أنهم [هل] وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار ، ولما ثبت أنه لم يبدل عليه لدليل عقل ولا دليل نقل وجب أن يكون القول به باطلاً .

ثم قال تعالى (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مقتدون) والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول بتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحسن ، ثم بين أن تمسلك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلاً من قديم الدهر فقال (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من ذيير إلا قال مترفونها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مقتدون) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف قرئ. (عل إمة) بالكسر وكلتاها من الأم وهوقصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد كالرحلة للبرحول إليه ، والإمة الحالة التي يكون عليها الأم وهو القاصد .

• المسألة الثانية ) لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكتفت في إبطال القول بالتقليد وذلك لأن الله تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكون في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقل ولا بدليل نقل ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والألاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعانى في معرض الدэм والتهجىن ، وذلك بدل على أن القول بالتقليد باطل ، وإنما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين الحق وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قرور من المقلدة فكذلك حصل لآخرين أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيعنه حقاً و معلوم أن ذلك باطل .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنَّه تعالى بينَ أَنَّ الداعي إِلَى القول بالتقليد والحاصل عليه ، إنما هُوَ حُبُّ النعم في طيبات الدُّنيا وحبُّ المكسل والبطالة ويفضُّل تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله (إلا) قال مترفُّوها إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) والمترفون هُمُ الَّذِينَ أَرْفَقُوكُمُ النعمة أَيْ أَبْطَرُوكُمْ فَلَا يَحْبُّونَ إِلَّا الشَّهْوَاتُ وَالْمَلَاهِي وَيَغْضُبُونَ تَحْمِلُّ الشَّاقِقَ فِي طَلَبِ الْحَقِّ ، وَإِذَا عَرَفْتُمْ هَذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ رَأْسَ جَمِيعِ الْآفَاتِ حُبُّ الدُّنيا وَاللَّذَّاتِ الْجَسَانِيَّةِ وَرَأْسَ جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ هُوَ حُبُّ اللَّهِ وَالْدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَلَهُذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « حُبُّ الدُّنيا رَأْسُ كُلِّ خَطْيَةٍ » .

ثم قال تعالى لرسوله (قال ألو جنتكم بأهدي بما وجدتم عليه آباءكم) أى بدين أهدي من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا تنفك عنه وإن جئتنا بما

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمَهُ إِنِّي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِ  
فَإِنَّهُ سَيَهِدِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَنْتَعَ  
هَتُولَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا  
**هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ لَكَفِرُونَ ﴿٣٠﴾**

هو أهدى ( فإنما بما أرسلت به كافرون ) وإن كان أهدى مما كنا عليه ، فعند هذا لم يرق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى ( فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ) والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم .

قوله تعالى : **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمَهُ إِنِّي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَ فِيْنَهُ سَيَهِدِينَ ،**  
وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، بَلْ مَنْتَعَ هَتُولَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ،  
وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ لَكَفِرُونَ .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أنه ليس لا ولئك الكفار داع يدعونهم إلى تلك الأفوايل الباطلة إلا تقليد الآباء والآسلاف ، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين : ( الأول ) أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول : إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان حرماً أو جائزًا ، فإن كان حرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزًا فعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لأنهم ليس لهم خلق ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك تقليد هذا الآب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء ، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء ، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد ، وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول برجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلًا ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلًا ، فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية . ( الوجه الثاني ) في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين ، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لا يعدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل لا لاجرم بعمل الله دينه ومذهبته باتياً في عقبه إلى يوم القيمة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، ثبت أن الرجوع

إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خير ولا أثر ، فثبتت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية ، ولرجوع إلى تفسير الفاظ الآية .

أما قوله (إنى برأ ما تعبدون) فقال الكسائي والفراء والمبرد والزجاج (برا). مصدر لايئى ولا يجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب إنما البراءة متك والخلاء متك ونحن البراءة متك والخلاء. ولا يقولون البر آن ولا البراون لأن المعنى ذوا البراءة ذووا البراءة فان قلت برى. وخلني ثبت وجئت . ثم استثنى حالقه من البراءة فقال (إلا الذي فطرك) والمعنى أنا أترأ بما تعبدون إلا من الله عز وجل ، ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذي فطرك فإنه ميهدين أي سيرشدف لدينه ويوفقني لطاعته .

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنه قال (الذي خلقني فهو يهدين) وحكى عنه هنا أنه قال (سيهدين) فأجمع بينهما وقد كأنه قال : فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار المداية في الحال والاستقبال (و جعلها ) أى وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله (إنى برأ ما تعبدون) جاريًّا مجرّى (لإله) و قوله (إلا الذي فطرك) جاريًّا مجرّى قوله (إلا الله) فكان مجموع قوله (إنى برأ ما تعبدون إلا الذي فطرك) جاريًّا مجرّى قوله (لإله إلا الله) ثم بين تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في عقبه أى في ذريته فلا يزال فيما من يوحد الله ويدعوه إلى توحيد (لهم يرجعون) أى لعل من أشرك منهم يرجع بدعاه من وحدتهم ، وقيل وجعلها الله ، وقرىء الكلمة على التخفيف وفي عقيبه .

ثم قال تعالى (بل متعت هؤلا وآباءهم) يعني أهل مكة وهم عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورسول مبين) بين الرسالة وأوضحتها بما معه من الآيات والبيانات فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحرًا وكفروا به ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة اغتروا بطول الإمامـالـوـامـتـاعـالـهـ إـيـاـمـ بـنـعـيمـ الدـنـيـاـ فأـعـرـضـواـ عـنـ الـحـقـ ، قال صاحب الكشاف إن قيل ما واجه قرامة من قرأ متعت بفتح التاء ؟ فلذا كان الله سبحانه اعترض على ذاته في قوله (و جعلها كلمة باقية في عقبه لعلمهم يرجعون) فقال بل متعتم بما متعتم به من طول العمر والسعادة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك المبالغة في تعيرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد لأن يشركوا به ويحملوا له أنداداً ، فثاره أن يشكوا الرجل إسامه من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعرفتك وإحسانك إليه ، وغضبه بهذا الكلام توبيخ المسيء لاتقبيح فعل نفسه .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ أَهْمَ  
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسْمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا  
بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيَاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ  
مَا يَجْمِعُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٍ ، أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكُمْ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مُّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَرَقْ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ لِّيَنْهَاذِدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرَيَا وَرَحْمَةَ رَبِّكُمْ خَيْرٌ مَا يَحْمَلُونَ ﴾ .

اعلم أن هذا هو ( النوع الرابع ) من كفرياتهم التي حكاما الله تعالى عنهم في هذه السورة ، و هؤلا المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق إلا بـ رجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهي أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثيـر المال والجاه و محمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب بـ رجل عظيم الجاه كثيـر المال في إحدى القرىتين وهي مكة والطائف ، قال المفسرون والذي يمـكـه هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي ، ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهـين ( الأول ) قوله ( أم يقسمون رحمـت ربـك ) و تقرير هذا الجواب من وجـوهـ ( أحدهـا ) أنا أوـقـنـنا التفاوتـ في مناصـبـ الدينـاـ وـلـمـ يـقـدـرـ أحـدـ منـ الخـلـقـ عـلـىـ تـغـيـيرـ فـالـتـفـاوـتـ الذـيـ أوـقـنـاهـ فـيـ منـاصـبـ الدينـ وـالـنـبـوـةـ بـأـنـ لـاـ يـقـدـرـواـ عـلـىـ التـصـرـفـ فـيـهـ كـانـ أـوـلـيـ ( وـثـانـيـهاـ ) أـنـ يـكـونـ المرـادـ أـنـ اخـتـصـاـصـ ذـكـرـ الـقـيـيـسـ بـذـكـرـ الـمـالـ الـكـثـيرـ إـنـاـكـانـ لـأـجـلـ حـكـمـاـ وـفـضـلـاـ إـنـاسـتـاـ إـلـيـهـ ، فـكـيفـ يـليـقـ بـالـعـقـلـ أـنـ نـجـعـلـ إـحـسانـتـاـ إـلـيـهـ بـكـثـرـةـ الـمـالـ حـجـةـ عـلـيـنـاـ فـلـمـ لـاـ يـحـوزـ أـيـضاـ أـنـ نـوـقـعـ التـفـاوـتـ فـيـ الإـحـسانـ التـفـاوـتـ فـيـ الإـحـسانـ بـمـنـاصـبـ الدينـاـ لـالـسـبـبـ سـابـقـ ؟ فـهـذـاـ تـقـرـيرـ الـجـوابـ ، وـنـرـجـعـ إـلـىـ تـفـسـيرـ الـأـلـفـاظـ فـنـقـولـ بـمـنـاصـبـ الدينـ وـالـنـبـوـةـ لـالـسـبـبـ سـابـقـ ؟ فـهـذـاـ تـقـرـيرـ الـجـوابـ ، وـنـرـجـعـ إـلـىـ تـفـسـيرـ الـأـلـفـاظـ فـنـقـولـ الـهـمـزـةـ فـوـلـهـ ( أمـ يـقـسـمـونـ رـحـمـتـ ربـكـ ) لـلـانـكـارـ الـدـالـ عـلـىـ التـجـهـيلـ وـالتـعـجـبـ مـنـ إـعـراضـهـ وـتـحـكـمـهـ وـأـنـ يـكـرـنـواـهـ الـمـدـبـرـينـ لـأـمـ النـبـوـةـ ، ثـمـ ضـرـبـ هـذـاـ مـثـالـاـ فـقـالـ ( نـحـنـ قـسـمـنـاـ بـيـنـهـمـ مـعـيشـهـنـ فـيـ الـحـيـاةـ الـدـيـنـاـ وـرـفـنـاـ بـعـضـهـمـ فـوـقـ بـعـضـ درـجـاتـ ) وـفـيـهـ مـسـائـلـ :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا أوقتنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والخداة والبلاء والشربة والخنزول ، وإنما فعلنا ذلك لأننا لو سوينا بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالْرَّحْمَنِ لِبِيُوتِهِمْ سُقْفًا  
مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٧) وَلِبِيُوتِهِمْ أَبُوبَا وَسُرُّا عَلَيْهَا يَتَكُونُ  
وَزَخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَقِينَ (٣٨)  
وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٩) وَلَأَنَّهُمْ لَيَصُدُونَهُمْ  
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ (٤٠) حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَاقَلَ يَلْكِتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ  
بُعْدَ الْمَشْرِقِينَ فَيُنَسِّ الْقَرِينُ (٤١) وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمُ أَنْكُرِي  
الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٤٢)

أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره وحيثئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ،  
ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضايانا ، فإن عجزوا عن  
الإعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناتها ، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا  
وقضايانا في تحصيص العباد بنصب النبوة والرسالة ؟ .

﴿المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) يقتضي أن تكون  
كل أقسام معيشتهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره ، وهذا يقتضي أن يكون الرزق الحرام والحلال  
كله من الله تعالى (والوجه الثاني) في الجواب ما هو المراد من قوله (ورحمت ربك خير ما  
يجمعون ) ؟ ، وتقريه أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين  
فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها لأن الدين على شرف الانهضاء والانفراط وفضل الله  
ورحمته تبقى أبداً للأبد .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالْرَّحْمَنِ لِبِيُوتِهِمْ سُقْفًا  
وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبِيُوتِهِمْ أَبُوبَا وَسُرُّا عَلَيْهَا يَتَكُونُ  
وَزَخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَقِينَ ،  
وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٩) وَلَأَنَّهُمْ لَيَصُدُونَهُمْ  
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ (٤٠) حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَاقَلَ يَلْكِتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ  
بُعْدَ الْمَشْرِقِينَ فَيُنَسِّ الْقَرِينُ (٤١) وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمُ أَنْكُرِي  
الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٤٢)﴾ وفي الآية مسائل :

﴿الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ أعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغنى على القدير بوجه ثالث وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطبياتها حقيقة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله (ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة) والمعنى لو لا أن يرغب الناس في الكفر (إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لاعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتشم (أحدها) أن يكون سفههم من فضة (وثانها) معارج أيضاً من فضة عليها يظرون (وثالثها) أن يحصل لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً أيضاً من فضة عليها يتكتشون .

ثم قال (وزخرفاً) وله تفسيران (أحدهما) أنه الذهب (والثانى) أنه الزينة ، بدليل قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزيزنت) فعل التقدير الأول يكون المعنى ونجمل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً ، وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ، ثم بين تعالى أن كل ذلك ماتع الحياة الدنيا ، وإنما سباه ماتعا لأن الإنسان يستمتع به قليلاً ثم ينقضى في الحال ، وأما الآخرة فهي باقية دائمة ، وهي عند الله تعالى وفي حكمه للستين عن حب الدنيا المقلبين على حب المولى ، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغنى أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره ، في حين تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله ، وأنهما على شرف الروح والخصوص لعلما لا يغدو حصول الشرف والله أعلم .

﴿الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ستقاً) بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس ، كافي قوله (غير عليهم السقف من فوقهم) والباقيون ستقاً على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف ، كرهن ورهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لها ، وقيل السقف جمع سقوف ، كرهن ورهن وزبر وذبور ، فهو جمع الجمع .

﴿الْمَسْأَلَةُ الْثَّالِثَةُ﴾ قوله (من يكفر بالرحمن لبيوتهم) فقوله (لبيوتهم) بذلك اشتغال من قوله (من يكفر) قال صاحب الكشاف : قرى ، معارج ومعارج ، والمعارج جمع معراج ، أو اسم جمع لمعراج ، وهي المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلام عليها يظرون ، أى على تلك المearاج يظرون ، وفي نصب قوله (وزخرفاً) قوله : قيل جعلنا لبيوتهم ستقاً من فضة ، وجعلنا لهم زخرفاً وقيل من فضة وزخرف ، فلما حذف الخاضن اتصف . وأما قوله (وإن كل ذلك لما ماتع الحياة الدنيا) قرأ عاصم ومحنة (لما) بتضديد الميم ، والباءون بالتحفيف ، وأما فرامة محنة بالتشدد فإنه جعل لما في معنى إلا ، وحتى سيويه : نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، وبقوى هذه القراءة أن في حرف أي ، وما ذلك إلا ماتع الحياة الدنيا ، وهذا يدل على أن لما بمعنى إلا ، وأما القراءة بالتحفيف ، فقال الواحد لفظة مالغو ، والتقدير لما ماتع الحياة الدنيا ، قال أبو الحسن : الوجه التخفيف ، لأن لما بمعنى إلا لا تعرف ، وحتى عن السكساني أنه قال : لا أعرف وجده التشكيل .

ثم قال تعالى ( ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ) والمراد منه التنبية على آفات الدنيا ، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضللين ، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، قال صاحب الكشاف : فرى ( ومن يعيش ) بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي ، وإذا نظر نظر الشئ ولا آفة به ، قيل عشي ونظيره عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الحطيبة :

نمی تانه تعشو إلى ضوه ناره

أى تنظر إليها نظر العشى ، لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، وقرىء . يعشوا على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارئ . أن يرفع (نقيف) ومعنى القراءة بالفتح ، ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، لقوله (صم بكم عنى) وأما القراءة بالضم فعندها ومن يتمام عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتتجاهل ويتعمى ، كقوله تعالى (وجحدوا بهوا واستيقنها أنفسهم ) ، (ونقيف له شيطاناً) قال مقاتل : نضم إلية شيطاناً ( فهو له قرن ) .

ثم قال (ولهم ليصドونهم عن السبيل) يعني وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكنية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجم، لأن قوله (ومن يعيش عن ذكر الرحمن فليس له شيطاناً) يفيد الجم، وإن كان اللفظ على الواحد (ويحسبون أنهم مهتدون) يعني الشياطين يصدرون الكفار عن السبيل، والكفار يحسبون أنهم مهتدون، ثم عاد إلى لفظ الواحد، فقال (حتى إذا

جاءنا ) يعني الكافر ، وقرىء جاءانا ، يعنى الكافر وشيطانه ، روى أن الكافر إذا بعث يوم القيمة من قبره أخذ شيطانه بيده ، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار ، فذلك حيث يقول ( يا يلت يبنى وينتك بعد المشرقين ) والمراد يلت حصل بيني وبينك بعد على أعظم الوجوه ، واختلفوا في تفسير قوله ( بعد المشرقين ) وذكروا فيه وجوهاً ( الأول ) قال الأكثرون : المراد بعد المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قرائنا والنجوم الطوال

يريد الشمس والقمر، ويقولون للكوفة والبصرة: البستان، وللغاية والمصر: المطران، وللأبي بكر وعمر: العمران، وللهاد والغير: الأسودان (الثاني) أن أهل النجاشي يقولون: الحركة التي تكون من الشرق إلى المغرب، هي حركة الغلاك الأعظم، والحركة التي من المغرب إلى الشرق، هي حركة الكواكب الثابتة، وحركة الأفلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر، وإذا كان كذلك فالشرق والمغرب كل واحد منها مشرق بالنسبة إلى شيء آخر، فثبتت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهات حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف وشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم، وهذا بعيد عندي، لأن المقصود من قوله (يا بيت بيتي وبينك بعد المشرقين) المبالغة في حصول البعد، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بعد لا يمكن وجوده بعد آخر أزيد منه، وبالبعد بين مشرق الصيف وشرق الشتاء ليس كذلك، فيبعد حل اللفظ عليه (الرابع) وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلع الشمس من الشرق إلى المغرب، وأما القمر فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب الشرق، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالشرق هو مشرق الشمس، ولكنه مغرب القمر، وأما الجانب المسمى بالمغرب، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس، وبهذا القدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالشرين، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه، والله أعلم.

ثم قال تعالى (فَبِئْسُ الْقَرِينُ) أى الكافر يقول لذلك الشيطان (يا ليت يبني وينزل بعده المشرقين فبئس القرین) أنت ، فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ ، والمقصود من هذا الكلام تحفيز الدنيا وبيان مافي المال والجاه من المصادر العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأشهى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل المدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيمة ، وبمحالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيمة بحيث يقول إلكافر (يا ليت يبني وينزل بعد المشرقين فبئس القرین) أنت فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كالنقسان والحرمان في الدين والدنيا ، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا لا نزل هذا القرآن على رجل من القربيتين عظيم ، قالوا كلاماً

نَذَهَبَنَّ إِلَكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنْتَقِمُونَ ﴿٥﴾ أَوْ نُرِينَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٦﴾ فَاسْتَمِسْكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْقٌ تُسْأَلُونَ ﴿٨﴾ وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ ﴿٩﴾

فاسداً وشبهاً باطلة.

نَمْ قال تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) فقوله (أنكم) في محل الرفع على الفاعلية يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركون في العذاب والسبب فيه أن الناس يقولون المصيبة إذا عمت طابت ، وقالت الخنساء في هذا المعنى :

ولولا كثرة البأكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي  
ولا يكون مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسی

في حين تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا والسبب فيه وجوه (الأول) أن ذلك العذاب شديد فاشتمال كل واحد بنفسه يذهبه عن حال الآخر ، فلا جرم الشركة لا تفيد الحفة (الثاني) أن قوماً إذا اشتركون في العذاب أعن كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسيمه بعض التخفيف وهذا المعنى متذر في القيامة (الثالث) أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعاً كثيرة من السلامة .

في حين تعالى أن الشيطان وإن كان قريباً إلا أن مجاسته في القيامة لأن وجوب السلامة وخففة العقوبة وفي كتاب ابن ماجه عن ابن عامر قرأ (إذ ظلمتم إنكم) بكسر الألف وقرأ الآفون إنكم بفتح الألف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، فإذا نذهبن بك فإذا منهم منتقمون ، أو نرئنك الذي وعدناهم فإذا عليهم مقتدون ، فاستمسك بالذي أوحى إليك إإنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، وسائل من أرسلنا من قبلك من رسالتنا أجعلنا من دون الرحمن آلة يعبدون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشى وصفهم في هذه الآية بالصم والمعى

وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعيشه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت في علوم المقل أن كثرة الانسال توجب حصول الملائكة الراحلة فتنتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعمى فإذا واظب على تلك الحالة أيام أخرى انتقل من كونه أعمى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين القوية ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في دعاء قوته وهم لا يزيدون إلا تصميئاً على الكفر وتماديأً في الفتن ، فقال تعالى (أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمْ أَوْ تَهْدِي الْعَمَىْ) يعني أنهم بلغوا في الغرفة عنك وعن دينك إلى حيث إذا سمعتهم القرآن كانوا كالآصم ، وإذا أربتهم المعجزات كانوا كالأعمى ، ثم بين تعالى أن صميمهم وعاصم إيمانها كان بسبب كونهم في ضلال مبين .

ولما بين تعالى أن دعورته لا تؤثر في قلوبهم قال (فِيمَا تَذَهَّبُنَّ بِكُمْ) يريد حصول الموت قبل نزول النقمـة بهـم (فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) بذلك أو زربـتكـ في حـياتـكـ ما وـعـدـنـاـمـ منـ الذـلـ وـالـقـتـلـ فـإـنـاـ مـقـتـدـرـوـنـ عـلـىـ ذـلـكـ ، وـاعـلـمـ أـنـ هـذـاـ كـلـامـ يـفـيدـ كـالـتـسـلـيـةـ لـرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ لـأـنـهـ تـعـالـيـ بـيـنـ أـنـهـ لـاـ تـؤـثـرـ فـيـهـ دـعـوـتـهـ وـالـيـأسـ إـلـىـ الـراـحـتـيـنـ ، ثـمـ بـيـنـ أـنـهـ لـاـ بـدـ وـأـنـ يـنـتـقـمـ لـأـجـلـهـ مـنـهـ لـمـ حـالـ حـيـاتـهـ أـوـ بـعـدـ فـانـهـ ، وـذـلـكـ أـيـضاـ يـوـجـبـ التـسـلـيـةـ ، فـبـعـدـ هـذـاـ أـمـرـهـ أـنـ يـسـتـمـسـكـ بـاـمـرـهـ تـعـالـيـ ، قـالـ (فـاسـتـمـسـكـ بـالـذـىـ أـرـحـىـ لـيـكـ) بـأـنـ تـنـقـدـ أـنـ هـذـاـ حـقـ وـبـأـنـ تـعـمـلـ بـعـوـجـهـ فـإـنـهـ الـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ الـذـىـ لـاـ يـمـيلـ عـنـهـ إـلـاـ ضـالـ فـيـ الدـيـنـ .

ولما بين تأثير الفسـكـ بهذا الدين في منافع الدين بين أيضاً تأثيرـهـ في منافع الدنيا فقال (وـإـنـهـ لـذـكـرـ لـكـ وـلـقـوـمـكـ) أـيـ إـنـهـ يـوـجـبـ الشـرـفـ الـعـظـيمـ لـكـ وـلـقـوـمـكـ حيثـ يـقـالـ إـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ الـعـظـيمـ أـنـرـهـ اللهـ عـلـىـ رـجـلـ مـنـ قـوـمـ هـؤـلـاءـ ، وـاعـلـمـ أـنـ هـذـهـ الـآـيـةـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـ الإـنـسـانـ لـاـ بـدـ وـأـنـ يـكـونـ عـظـيمـ الرـغـبـةـ فـيـ الثـنـاءـ الـحـسـنـ وـالـذـكـرـ الـجـبـيلـ ، وـلـوـ يـكـنـ الـذـكـرـ الـجـبـيلـ أـمـرـاـ مـرـغـوـبـاـ فـيـهـ لـمـ اـمـنـ أـنـهـ بـعـلـىـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ حيثـ قـالـ (وـإـنـهـ لـذـكـرـ لـكـ وـلـقـوـمـكـ) ولـمـ طـلـبـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ حيثـ قـالـ (وـاجـعـلـ لـيـ لـسـانـ صـدـقـ فـالـآـخـرـيـنـ) وـلـأـنـ الـذـكـرـ الـجـبـيلـ قـاتـمـ مقـامـ الـعـيـاةـ الشـرـيفـةـ ، بـلـ الـذـكـرـ أـنـفـضـلـ مـنـ الـحـيـاةـ لـأـنـ الـحـيـاةـ لـاـ يـحـصـلـ إـلـاـ فـمـسـكـ ذـلـكـ الـحـيـ ، أـمـاـ أـنـ الـذـكـرـ الـجـبـيلـ فـإـنـهـ يـحـصـلـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـفـيـ كـلـ زـمـانـ .

ثم قال تعالى (وـسـوـفـ تـسـأـلـونـ) وـفـيـ وـجـوهـ (الـأـوـلـ) قال الكلـيـ تـسـأـلـونـ هـلـ أـدـيـتمـ شـكـرـ إـنـعـامـنـاـ عـلـيـكـ بـهـذـاـ الـذـكـرـ الـجـبـيلـ (الـثـانـيـ) قال مـقـاتـلـ المـرـادـ أـنـ مـنـ كـذـبـ بـهـ يـسـأـلـ لـمـ كـذـبـهـ ، فـيـسـأـلـ سـؤـالـ توـبـيـخـ (الـثـالـثـ) تـسـأـلـونـ هـلـ عـلـمـ بـمـاـ دـلـ عـلـيـهـ مـنـ التـكـالـيفـ ، وـاعـلـمـ أـنـ السـبـبـ الـأـقـوىـ فـإـنـكـارـ الـكـفـارـ لـرـسـالـةـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـلـبـعـضـهـمـ لـهـ أـنـ كـانـ يـنـكـرـ عـبـادـةـ الـأـسـتـانـ ، فـيـنـ تـعـالـيـ أـنـ إـنـكـارـ عـبـادـةـ الـأـسـنـانـ لـيـسـ مـنـ خـواـصـ دـيـنـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، بـلـ كـلـ الـأـنـيـاءـ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِعَائِنَتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكِهِ قَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِعَائِنَتِنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِمْ  
مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا  
يَا يَاهُ الْسَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمْهَتُدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا  
عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۝ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَقْتُومْ  
إِلَيْسَ لِي مَلْكُ مِصْرٍ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تَبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا خَيْرٌ

والرسل كانوا مطبقين على إنسكاره فقال ( وأسائل من أرسلنا من قبلك من رسالنا أجعلنا من دون الرحمن آلة يعبدون ) وفيه أقوال ( الأول ) معناه وأسائل مؤمني أهل الكتاب أى أهل التوراة والإنجيل فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام ، وإذا كان هذا الأمر متفقاً عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سبباً لبعض محمد صلى الله عليه وسلم

( والقول الثاني ) قال عطاء عن ابن عباس « لما أسرى به جبل طور إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده ، فأذن جبريل ثم أقام فقال : يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه من الصلاة قال له جبريل عليه السلام وأسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسالنا الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم لا أسائل لأنني لست شاكا فيه » .

( والقول الثالث ) أن ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال ، كقول من قال : سل الأرض من شق أنبارك ، وغرس أنبخارك ، وجني نمارك ، فإنها إن لم تجربك جواباً أجابتك اعتباراً ، فهذا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله يمتنع ، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدرك فيها بفهمك والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآياتنا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكِهِ قَالَ إِنِّي رَسُولُ ربِّ الْعَالَمِينَ ، فلما جاءهم بآياتنا إذام منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هي أكبـرـ من أختها وأخذـنـاـمـ بالـعـذـابـ لـعـلـلـهـمـ يـرـجـعـونـ ، وـقـالـواـ يـاـ إـيـاهـاـ السـاحـرـ اـدـعـ لـنـاـ رـبـكـ بـمـاـ عـاهـدـ عـنـدـكـ إـنـاـ لـمـهـتـدـونـ ، فـلـمـاـ كـشـفـنـاـ عـنـهـمـ العـذـابـ إـذـامـ يـنـكـثـونـ ، وـنـادـىـ فـرـعـوـنـ فـيـ قـوـمـهـ قـالـ يـاـ قـوـمـ أـلـيـسـ لـيـ مـلـكـ مـصـرـ وـهـذـهـ الـأـنـهـارـ تـجـرـيـ مـنـ تـحـتـيـ أـفـلـاـ تـبـصـرـونـ ۝ أـمـ أـنـاـ خـيـرـ

مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ ﴿٦﴾ فَلَوْلَا أَتَيْتَهُ أُسْوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ  
أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْرَنِينَ ﴿٧﴾ فَاسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَسِقِينَ ﴿٨﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ بَعْلَمْنَاهُمْ  
سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخَرِينَ ﴿١٠﴾

أُسْوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْرَنِينَ ، فَاسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ بَعْلَمْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخَرِينَ ) وَفِي الْآيَةِ مُسَائِلٌ :  
﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ اعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ إِعَادَةِ قَصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفَرْعَوْنَ فِي هَذَا الْمَقَامِ  
تَقْرِيرُ الْكَلَامِ الَّذِي تَقْدَمَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُفَّارَ قَرِيشَ طَعَنُوا فِي نَبَوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبِّ  
كُونِهِ فَقِيرًا عَدِيمَ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، فَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ أُورِدَ الْمَعْزَاتِ  
الْفَاطِرَةِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي لَا يَشَكُ فِي حَكْمِهَا عَاقِلٌ أُورِدَ فَرْعَوْنَ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّهَيْةِ الَّتِي ذَكَرَهَا كُفَّارُ قَرِيشَ  
فَقَالَ : إِنِّي غَنِيٌّ كَثِيرًا عَنِ الْمَالِ وَالْجَاهِ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حَصَلَ لِي مَلْكُ مَصْرٍ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ  
نَحْنِي ، وَأَمَا مُوسَى فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مَهِينٌ وَلَيْسَ لَهُ بَيْانٌ وَلَيْسَ لَهُ بَلَاغٌ ، وَالرَّجُلُ الْفَقِيرُ كَيْفَ يَكُونُ رَسُولًا مِنْ  
مِنْ عَنْ اللَّهِ إِلَى الْمَلَكِ الْكَبِيرِ الْغَنِيِّ ، فَبَيْتَ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَيْةُ الَّتِي ذَكَرَهَا كُفَّارُهَا كَفَّارَ مَكَّةَ وَهِيَ قَوْلُمُ (لَوْلَا  
نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيَّتِينَ عَظِيمٍ) وَقَدْ أُورِدَهَا بِعِينِهَا فَرْعَوْنُ عَلَى مُوسَى ، ثُمَّ إِنَّا أَنْتَقَمْنَا  
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِبْرَادِ هَذِهِ الْقَصَّةِ تَقْرِيرُ أَمْرِنَا (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْجَهَالَ أَبْدَأُ  
يَعْتَجِرُونَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِهَذِهِ الشَّهَيْةِ الرَّكِكَةِ فَلَا يَبَالُ بَهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا (وَالثَّانِي) أَنَّ فَرْعَوْنَ عَلَى  
غَيْرِ كَالِ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا صَارَ مَقْهُورًا بَاطِلًا ، فَيَكُونُ الْأَمْرُ فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ هَكُذا ، فَبَيْتَ أَنَّهُ لَيْسَ  
الْمَقْصُودُ مِنْ إِعَادَةِ هَذِهِ الْقَصَّةِ عِنْ هَذِهِ الْقَصَّةِ ، بَلْ الْمَقْصُودُ تَقْرِيرُ الْجَوَابِ عَنِ الشَّهَيْةِ الْمَذَكُورَةِ ،  
وَعَلَى هَذَا فَلَا يَكُونُ هَذَا تَقْرِيرًا لِلْقَصَّةِ الْبَتَّةِ وَهَذَا مِنْ نَفَائِسِ الْإِنْجَاتِ وَاللَّهُ عَلِمْ .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ فِي تَقْسِيرِ الْأَلْفَاظِ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ مُوسَى بِآيَاتِهِ وَهِيَ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي  
كَانَتْ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أَيْ قَوْمٍ ، فَقَالَ مُوسَى إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،  
قَلَّا جَاهِمْ بِنَلَكَ الْأَيَّاتِ إِذَا مَا يَضْحَكُونَ ، قَيْلَ إِنَّهُ لَمَّا أَلَقَ عَصَاهُ صَارَ ثَبَانًا ، ثُمَّ أَخْذَهُ فَعَادَ  
عَصَاهُ كَمَا كَانَ ضَحْكُوا ، وَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمْ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ ثُمَّ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ ضَحْكُوا ، فَإِنَّ قَيْلَ كَيْفَ جَازَ  
أَنْ يَجَابَ عَنْ لَمَّا يَأْذَا الَّذِي يَفِيدُ الْمَفَاجَأَةَ ؟ قَلَّا لَأَنَّ فَعْلَ الْمَفَاجَأَةِ مَعَهَا مُقْدَرٌ كَمَا قَيْلَ فَلَمَّا جَاهِمْ  
بِآيَاتِنَا فَاجَأُوا وَقْتَ ضَحْكِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ (وَمَا فِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَخْتَهَا) فَإِنْ قِيلَ ظَاهِرُ الْفَظْلِ يَقْتَضِي كُونَ كُلَّ واحدٍ مِنْهَا أَفْضَلُ مِنَ التَّالِي وَذَلِكُ حَالٌ ، فَلَنَا إِذَا أَرِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي كُونِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ تَلْكَ الأَشْيَاءِ بِالْعَالَمِ إِلَى أَقْصَى الْدَّرَجَاتِ فِي الْفَضْيَلَةِ ، فَقَدْ يُذَكَّرُ هَذَا الْكَلَامُ بِعَنْهِ أَنَّهُ لَا يَعْدُ فِي أَنَّاسٍ يَنْظَرُونَ إِلَيْهَا أَنْ يَقُولُ هَذَا إِنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الثَّانِي ، وَأَنْ يَقُولُ الثَّانِي لَا بِلِّ الثَّالِثِ أَفْضَلُ ، وَأَنْ يَقُولُ الثَّالِثُ لَا بِلِّ الثَّالِثِ أَفْضَلُ ، وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تَلْكَ الْأَشْيَاءِ مُقْوِلاً فِيهِ إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (وَأَخْذَنَا مَعَ الْعَذَابِ لِعِلْمِهِمْ يَرْجِعُونَ) أَيْ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، قَالَتِ الْمُتَزَلِّةُ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ الْإِيمَانَ مِنَ السُّكُلِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَظْهَرَ تَلْكَ الْمُعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةَ لِإِرَادَةِ أَنْ يَرْجِعُوا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ (وَأَخْذَنَا مَعَ الْعَذَابِ) أَيْ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي سَلَطَهَا عَلَيْهَا كَالْطُوقَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقَملُ وَالضَّفَادُعُ وَالدَّمُ وَالْطَّمَسُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَدَتْ لَكَ إِنَّا مُهْتَدُونَ) فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ سَمُوهُ بِالسَّاحِرِ مَعَ قَوْلِهِ (إِنَّا مُهْتَدُونَ) ؟ فَلَنَا فِيهِ وَجْهٌ (الْأُولُو) أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْعَالَمِ الْمَاهِرِ سَاحِرٌ ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْظِمُونَ السُّحُورَ ، وَكَيْقَالَ فِي زَمَانِنَا فِي الْعَالَمِ الْعَجِيبِ الْكَاملِ إِنَّهُ أَنَّ بِالسُّحُورِ (الثَّانِي) (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) فِي زَعْمِ النَّاسِ وَمُتَعَارِفُ قَوْمٌ فَرَعُوْنٌ كَوْلَهُ (يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمُجْنَّونَ) أَيْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فِي اعْتِقَادِهِ وَزَعْمِهِ (الثَّالِثُ ) أَنْ قَوْلُهُ (إِنَّا مُهْتَدُونَ) وَقَدْ كَانُوا عَازِمِينَ عَلَى خَلَافَةِ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ (فَلِمَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا مَا يَنْكِشُونَ) فَقَسَمْتُهُمْ لِيَاهُ بِالسُّحُورِ لَا يَنْفِي قَوْلُهُ (إِنَّا مُهْتَدُونَ) ثُمَّ بَيْنَ أَنْ تَعَالَى أَنْهُ لَا كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ نَكَشُوا ذَلِكَ الْعَهْدَ .

وَلَا حَكِيَ اللَّهُ تَعَالَى مُعَالَةُ فَرَعُوْنَ مَعَ مُوسَى ، حَكِيَ أَيْضًا مُعَالَةُ فَرَعُوْنَ مَعَهُ فَقَالَ (وَنَادَى فَرَعُوْنَ فِي قَوْمِهِ) وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَظْهَرَ هَذَا الْقَوْلَ فَقَالَ (قَالَ يَا قَوْمَ أَلِيُّسْ لِي مَلِكُ مَصْرُ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَبْحَرُ مِنْ تَحْتِي) يَعْنِي الْأَنْهَارُ الَّتِي فَصَلُوهَا مِنَ النَّيلِ وَمُعَظَّمُهَا أَرْبِيعَةُ نَهْرِ الْمَلَكِ وَنَهْرُ طَلْوَنَ وَنَهْرُ دَمِيَاطِ وَنَهْرُ تَيْسِ ، قَبْلَ كَانَتْ تَبْحَرِي تَحْتَ قَصْرِهِ ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّهُ احْتَاجَ بَكْثَرَةً أَمْوَالَهُ وَقُوَّةً جَاهِهِ عَلَى فَضْيَلَةِ نَفْسِهِ .

ثُمَّ قَالَ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مِهْنٌ وَلَا يَكُادُ يُبَيِّنُ) وَعَنِ بَكُونَهِ مِهْنًا كَوْنَهُ فَقِيرًا ضَعِيفُ الْحَالِ ، وَبِقَوْلِهِ (وَلَا يَكُادُ يُبَيِّنُ) حِبْسَةٌ كَانَتْ فِي لِسَانِهِ ، وَأَخْتَلُفُوا فِي مَعْنَى أَمْ هُنْ هُنَّا فَقَالَ أَبُو عَيْدَةَ مَجَازُهَا بَلْ أَنَا خَيْرٌ ، وَعَلَى هَذَا فَقَدَمَ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ (أَفَلَا تَبْصِرُونَ) ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ) بِعَنْيِ بَلْ أَنَا خَيْرٌ ، وَقَالَ الْبَاقُوْنُ أَمْ هَذِهِ مُتَصَّلَةٌ لَأَنَّ الْمَعْنَى (أَفَلَا تَبْصِرُونَ) أَمْ تَبْصِرُونَ إِلَّا أَنَّهُ وَضَعُ قَوْلُهُ (أَنَا خَيْرٌ) مَوْضِعُ تَبْصِرُونَ ، لَأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا لَهُ أَنْتَ خَيْرٌ فَهُمْ عَنْهُ بَصَرَاءُ ، وَقَالَ آخَرُوْنَ إِنَّ تَمَامَ الْكَلَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ (أَمْ) وَقَوْلُهُ (أَنَا خَيْرٌ) ابْتِداَءُ الْكَلَامِ وَالتَّقْدِيرُ (أَفَلَا

تبصرون ) أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لنميرك : أناكل أم ، أي أناكل أم لأنأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إيثاراً للاختصار فكذا هننا ، فإن قيل أليس أن موسى عليه السلام سأله الله تعالى أن يزيل الرته عن لسانه بقوله ( وأحل عقدة من لسانك يفقوها قول ) فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله ( قد أتيت سؤالك يا موسى ) فكيف عابه فرعون بتلك الرته ؟ ( والجواب ) عنه من وجوهين : ( الأول ) أن فرعون أراد بقوله ( ولا يكاد يبيه ) حجته التي تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام ( والثاني ) أنه عابه بما كان عليه أولاً ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زماناً طويلاً وفي لسانه حبطة ، فنسبه فرعون إلى ما عده عليه من الرته لأنهم لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

ثم قال (فلولا ألقى عليه أسرة من ذهب) والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب ، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة ، واحتلما القراء في أسرة فبعضهم قرأ أسرة وآخرون أساورة فأسرة جمع سوار لادنى العدد ، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة ، ومن قرأ أساورة فذاك لأن أساورة جمع أسرار وهو السوار فأساورة تكون الماء عوضاً عن اليماء ، نحو بطريق وبطلاقة وزنديق وزنادة وفرزین وفرازنه فتكون أساورة جمع أسرار ، وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول أنا أكثر مالاً وجاماً ، فوجب أن يكون أفضل منه فيمتع كونه رسولاً من الله ، لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية ، والأخس لا يكون مخدوماً للأشرف ، ثم المقدمة الفاسدة هي قوله من كان أكثر مالاً وجاماً فهو أفضل وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قوله ( لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القرىتين عظيم ) ثم قال ( أو جاء معه الملائكة بقرينين ) يجوز أن يكون المراد بقرينين به ، من قوله فرته به فاقترن وأن يكون من قوله افتروا بمعنى تقارنو ، قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته .

ثم قال تعالى ( فاستخف قومه فأطاعوه ) أي طلب منهم المختنق الإثبات بما كان يأمرهم به فأطاعوه ( إنهم كانوا قوماً فاسقين ) حيث أطاعوا بذلك الجاحد الفاسق ( فلما آسفونا ) أغضبونا ، حكى أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له أتفصب يا أبا خالد ؟ فقال قد غضب الذي خلق الأحلام إن الله يقول ( فلما آسفونا ) أي أغضبونا .

ثم قال تعالى ( انتقمنا منهم ) واعلم أن ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منها من المتشابهات التي يجب أن يصار فيها إلى التأويل ، ومعنى الغضب في حق الله إرادة العقاب ، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق .

ثم قال تعالى ( بغير ناصح سلفاً ومثلاً ) السلف كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضاً من تقدم من آبائك وأقاربك وأحدهم سالف ، ومنه قول طفيل برب قومه .

وَلَمَّا ضُرِبَ أَبْنَى مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٧﴾ وَقَالُوا إِنَّهُمْ  
خَيْرٌ مَّا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ  
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٩﴾ وَلَوْ نَشَاءْ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَكِكَةً  
فِي الْأَرْضِ يَحْلِفُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَزِنْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا يَصِدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٢﴾

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

فمل هذا قال الفراء والزجاج يقول : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ، أى جعلناهم سلفاً لکفار أمة محمد عليه السلام . وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كاذكناه ، وقرأ حزة والكسائي (سلفاً) بالضم وهو جمع سلف ، قال الليث : يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفاً فهو سلف أى متقدم ، قوله (ومثلاً للآخرين) يريد عظة لم يق بعدهم وآية وعبرة ، قال أبو علي الفارسي المثل واحد يراد به الجميع ، ومن ثم عطف على سلف ، والدليل على وقوفه على أكثر من واحد قوله تعالى (ضرب الله مثلاً عبدًا علوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه ) فأدخل تحت المثل شيئاً وله أعلم .

قوله تعالى : **وَلَمَّا ضُرِبَ أَبْنَى مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ  
خَيْرٌ مَّا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ  
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا فِي الْأَرْضِ يَحْلِفُونَ ، وَإِنَّهُ لَعِلمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَزِنْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمٌ ، وَلَا يَصِدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** في الآية مسائل :

**المسألة الأولى** أعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفريائهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادَهُ جِزَاءً) (وثانية) قوله تعالى (وَجَعَلُوا لَهُ شَاهِ الرَّحْمَنَ مَا عَبَدُنَاهُمْ) (ورابعها) قوله (وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِبَيْنِ عَظِيمٍ) (وخامسها) هذه الآية التي نحن الأن في تفسيرها ، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم ، فاما أن ذلك المثل كيف كان ، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة (فالأول) أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون

عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآهتنا خير من عيسى ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة (الثاني) روى أنه لما نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ) قال عبد الله ابن الزبير هذا خاصة لنا ولآهتنا أم جميع الأمم ؟ فقال عليه السلام « بل جميع الأمم » فقال خصمتك ورب الكعبة ، ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نى وتنى عليه خيراً وعلى أمها ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يعبدون ، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نذكرن نحن وآهتنا معهم . فسكت النبي عليه السلام وفرح القرم وضحكوا وضجروا ، فنزل الله تعالى (إن الذين سبقتهم هم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى ، ولما (ضرب) عبد الله بن الزبيري عيسى (ابن مريم مثلاً) وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجداً وضحكاً بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصميين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج ، (وقالوا آهتنا خير أم هو) يعنيون أن آهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آهتنا أهون (الوجه الثالث) في التأويل وهو أن النبي عليه السلام لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهًا لأنفسهم ، قال كفار مكة إن محمدًا يريد أن يجعل لنا إلهًا كما جعل النصارى المسيح إلهًا لأنفسهم ، ثم عند هذا قالوا (آهتنا خير أم هو) يعني آهتنا خير أم محمد ، وذكروا ذلك لاجل أنهم قالوا : إن محمدًا يدعونا إلى عبادة نفسه ، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام ، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى ، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه ، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادة فكان الاستغلال بعبادة الأصنام أولى ، ثم إنه تعالى بين أنما لم نقل إن الاستغلال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل ، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قوله : إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه ، وهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبوبكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو  
قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام والباقيون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس ، واختلفوا فقال  
الكسائي : هنا بمعنى نحو يعرضون ويعرضون ويعکفرون ، ومنهم من فرق ، أما القراءة بالضم فعن  
الصودد ، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه ، وأما بالكسر فعنده يضجون .  
﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ عاصم وحزة والكسائي آهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية بـ هـ وـ لـ والباقيون  
استفهاماً بهمزة وـ مـ كـ ةـ .

ثم قال تعالى (ما ضر بوا لك إلا جدلاً) أي ما ضر بوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغيبة

**وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَبْيَنُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي**

فـ القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل (بل هـ قوم خصون) وبالغون في الخلوة ، وذلك لأنـ قوله (إنـكم وما تبـدون من دون الله) لا يتناول الملائكة وعيسى ، وبيانه من وجوه (الأول) أنـ كلمة مـلا تتناول العـقـلـاءـ الـبـيـتـةـ (والـثـانـيـ) أنـ كـامـةـ ماـ لـيـسـ صـرـيـحةـ فـ الاـسـتـفـارـاـتـ بـدـلـيـلـ أـنـ يـصـحـ إـدـخـالـ لـفـظـيـ الـكـلـ وـبـعـضـ عـلـيـهـ ، فـيـقـالـ إـنـكـمـ وـكـلـ ماـ تـبـعـدـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ ، أوـ إـنـكـمـ وـبـعـضـ ماـ تـبـعـدـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ (الـثـالـثـ) أـنـ قوله (إنـكـمـ وـكـلـ ماـ تـبـعـدـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ أـوـ بـعـضـ ماـ تـبـعـدـونـ خـطـابـ مشـافـهـ فـلـعـلـهـ ماـ كـانـ فـيـهـ أـحـدـ يـعـبدـ مـسـيـحـ وـمـلـائـكـةـ (الـرـابـعـ) أـنـ قوله (إنـكـمـ وـمـاـ تـبـعـدـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ) هـبـ أـنـ هـامـ إـلـاـ أـنـ النـصـوـصـ الدـالـاـلـ عـلـىـ تـعـظـيمـ الـمـلـائـكـةـ وـعـيـسـيـ أـخـصـ مـنـهـ ، وـالـخـاصـ مـقـدـمـ عـلـىـ الـعـامـ .

ـ المسـأـلـةـ الـرـابـعـةـ هـ القـائـلـوـنـ بـنـمـ الـجـدـلـ نـمـسـكـواـ بـهـذـهـ الـآـيـةـ إـلـاـ أـنـ قـدـ ذـكـرـنـاـ فـقـسـيرـ قـوـلـهـ  
ـ تـعـالـىـ (ـ مـاـ يـجـادـلـ فـ آـيـاتـ أـهـ إـلـاـ الـذـينـ كـفـرـاـ) أـنـ الـآـيـاتـ الـكـثـيـرـةـ دـالـةـ عـلـىـ أـنـ الـجـدـلـ مـوـجـبـ  
ـ لـمـدـحـ وـالـثـانـيـ ، وـطـرـيـقـ التـوـفـيقـ أـنـ تـصـرـفـ تـلـكـ الـآـيـاتـ إـلـىـ الـجـدـلـ الـذـيـ يـفـيدـ تـقـرـيرـ الـحـقـ ، وـأـنـ  
ـ تـصـرـفـ هـذـهـ الـآـيـةـ إـلـىـ الـجـدـلـ الـذـيـ يـوـجـبـ تـقـرـيرـ الـبـاطـلـ .

ـ ثـمـ قـالـ تـعـالـىـ (ـ إـنـ هـوـ إـلـاـ عـبـدـ كـسـاـئـرـ الـعـيـدـ أـنـعـمـنـاـ عـلـيـهـ حـيـثـ  
ـ جـعـلـنـاهـ آـيـةـ بـأـنـ خـلـقـنـاهـ مـنـ غـيرـ أـبـ كـاـ خـلـقـنـاـ آـدـمـ وـشـرـفـنـاهـ بـالـنـبـوـةـ وـصـيـرـنـاهـ عـبـرـةـ عـجـيـبـةـ كـاـمـنـلـ السـاـئـرـ  
ـ (ـ وـلـوـ نـشـاءـ بـجـعـلـنـاـ مـنـكـمـ) لـوـلـدـنـاـ مـنـكـمـ يـأـرـجـالـ (ـ مـلـائـكـةـ يـخـلـفـونـكـمـ فـ الـأـرـضـ) كـاـ يـخـلـفـكـمـ أـلـاـدـ كـمـ كـاـ  
ـ وـلـدـنـاـ عـيـسـيـ مـنـ أـنـيـ مـنـ غـيرـ خـلـقـهـ فـلـ تـعـرـفـ رـاـتـيـزـنـاـ بـالـقـدـرـةـ الـبـاهـرـةـ وـلـتـعـرـفـوـاـ أـنـ دـخـولـ التـوـلـيـدـ وـالـتـوـلـدـ  
ـ فـ الـمـلـائـكـةـ أـمـمـكـنـ وـذـاتـ أـللـهـ تـعـالـىـ عـنـ ذـلـكـ (ـ وـإـنـ) أـيـ عـيـسـيـ (ـ لـعـلمـ لـلـسـاعـةـ) شـرـطـ مـنـ  
ـ أـشـرـاطـهـ تـعـلـمـ بـهـ فـسـمـيـ الشـرـطـ الدـالـاـلـ عـلـىـ الشـيـءـ عـلـيـاـ لـحـصـولـ الـعـلـمـ بـهـ ، وـقـرـأـ بـنـ عـبـاسـ : لـعـلمـ . وـهـوـ  
ـ الـلـامـةـ وـقـرـأـ أـبـيـ : لـذـكـرـ ، وـقـدـ الـحـدـيـثـ «ـ أـنـ عـيـسـيـ يـغـزـلـ عـلـىـ ثـنـيـةـ فـ الـأـرـضـ الـمـقـدـسـةـ  
ـ يـقـالـ هـاـ أـفـيـقـ وـيـدـهـ حـرـبـةـ وـبـهـ يـقـشـلـ الـدـجـالـ فـيـانـ بـيـتـ الـقـدـسـ فـ صـلـاـةـ الصـبـحـ وـالـإـلـامـ بـقـمـ  
ـ بـهـمـ فـيـتـأـخـرـ الـإـلـامـ فـيـقـدـمـهـ عـيـسـيـ وـيـصـلـ خـلـفـهـ عـلـىـ شـرـيـعـةـ مـحـمـدـ صـلـاـتـ اللـهـ عـلـىـهـ وـبـرـهـ فـمـ يـقـتـلـ الـخـنـازـيرـ وـيـكـسـلـ الـصـلـيـبـ  
ـ وـيـخـرـبـ الـبـيـعـ وـالـكـنـائـسـ وـيـقـتـلـ الـنـصـارـىـ إـلـاـ مـنـ آـمـنـ بـهـ» (ـ فـلـاـ تـمـرـنـ بـهـ) مـنـ الـمـرـيـةـ وـهـوـ الشـكـ  
ـ (ـ وـاتـبـعـونـ) وـأـنـبـعـواـ هـدـايـ وـشـرـعـيـ (ـ هـذـاـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ) أـيـ هـذـاـذـىـ أـدـعـوـكـمـ إـلـيـهـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ  
ـ (ـ وـلـاـ يـصـدـنـكـمـ الـشـيـطـانـ إـنـ لـكـمـ عـدـوـ مـبـيـنـ) قـدـ بـاـنـتـ عـدـاوـتـهـ لـكـمـ لـأـجـلـ أـنـهـ هـوـ الـذـىـ أـخـرـجـ أـبـاـكـمـ  
ـ مـنـ الـجـنـةـ وـنـزـعـ عـنـهـ لـبـاسـ الـنـورـ .

ـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : هـ وـلـاـ جـاءـ عـيـسـيـ بـالـبـيـنـاتـ قـالـ قـدـ جـتـشـكـمـ بـالـحـكـمـ وـلـاـ يـبـيـنـ لـكـمـ بـعـضـ الـذـىـ  
ـ تـخـتـلـفـ فـيـهـ فـاتـقـوـ أـللـهـ وـأـطـيـعـونـ ، إـنـ أـللـهـ هـوـ بـرـبـيـ وـرـبـكـمـ فـاعـبـدـهـ هـذـاـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ ، فـاـخـتـلـفـ

تَخْنَقُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا  
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَزْرَابُ مِنْ بَنِيهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةُ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ  
الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَقِينَ ﴿٣٠﴾ يَعْبَادُونَ لَا خَوْفٌ  
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُعَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ

الآخراب من ينهم فويل الذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتهم بعنة  
ويم لا يشعرون ) .

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات والشائعات الواضحات (قال قد جئتم بالحكمة) وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله (ولأبين لكم بعض الذي مختلفون فيه) يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء، جاء عيسى ليسين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية ، وباجلة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذي مختلفون فيه معناه فروع الدين ، فإن قيل لم لم يبيّن لهم كل الذي مختلفون فيه ؟ فلنا الأن الناس قد مختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها ، فلا يجب على الرسول بيانها ، ولما بين الأصول والفروع قال (فانقوا الله في الكفر به والإعراض عن دينه (وأطعون) فيما أبلغه إليكم من التكاليف (إن الله هو رب وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم) والمعنى ظاهر (فاختلاف الأحزاب) أي الفرق المتحزبة بعد عيسى ومملكته واليعقوبية والنسطورية ، وقبل اليهود والنصارى (فوويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ) وهو وعد باليوم الأحزاب ، فإن قيل قوله (من يليهم) الضمير فيه إلى من يرجع ؟ فلنا إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله (قد جئتم بالحكمة) وهم قومه .

تم قال (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيم بعثة) فقوله أن تأتيم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فان قالوا قوله (بعثة) يفيد عين ما يفيده قوله (وهم لا يشعرون) فما الفائد فيه ؟ فلنا يجوز أن تأتيم بعثة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه.

قوله تعالى : ﴿الْأَخْلَاءِ يُوْمَنْدُ بِعِصْمِهِمْ لِبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَقِينَ، يَا عَبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تُحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوهُ الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تَحْبِبُونَ، بِطَافِ

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تَحْبِرُونَ ﴿٧٦﴾      يُطَافُ عَلَيْمَ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ  
وَأَكْوَابٌ وَفِيهَا مَا تَسْتَهِيْهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّلَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾      وَتِلْكَ  
الْجَنَّةُ الَّتِي أُرِشِّمُوهَا إِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾      لَكُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا  
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تستهيه الأنفس وتلذل الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون .

اعلم أنه تعالى لما قال ( هل ينظرون إلا الساعة أن تأتهم بعنة ) ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيمة ( فأولها ) قوله تعالى ( الأخلاء يومئذ بعضهم عدو إلا المتقين ) والمعنى ( الأخلاء في الدنيا ) يعني في الآخرة ( بعضهم بعض عدو ) يعني أن الخلة إذا كانت على المذهبية والكفر صارت عداوة يوم القيمة ( إلا المتقين ) يعني الموحدين الذين يخالفون بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى ، فإن خلتهم لا تصير عداوة ، وللحجارة في تفسير هذه الآية طريق حسن ، قالوا إن الحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر ، ففي حصل هذا الاعتقاد حصلت الحبة لا محالة ، ومتى حصل اعتقاد أنه يجب ضرراً حصل البعض والنفرة ، إذا عرفت هذا فنقول : تلك الخيرات التي كان اعتقاد حصورها يجب حصول الحبة ، إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل ، أو لا تكون كذلك ، فإن كان الواقع هو القسم الأول ، يجب أن تبدل تلك الحبة بالنفرة ، لأن تلك الحبة إنما حصلت لا اعتقاد حصول الحب والراحة ، فإذا زال ذلك الاعتقاد ، وحصل عقيبه اعتقاد أن الم hasil هو الضرار والآلام ، يجب أن تبدل تلك الحبة بالبغضة ، لأن تبدل العلة يجب تبدل المعلول ، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للحبة ، خيرات باقية أبدية ، غير قابلة للتبدل والتغير ، كانت تلك الحبة أيضاً حبة باقية آمنة من التغير ، إذا عرفت هذا الأصل فنقول : الذين حصلت بينهم حبة ومودة في الدنيا ، إن كانت تلك الحبة لأجل طلب الدنيا وطبيعتها ولذتها ، فهذه المطالب لا تتحقق في القيمة ، بل يصير طلب الدنيا سبباً لحصول الآلام والأفات في يوم القيمة ، فلا جرم تقلب هذه الحبة الدنيوية ببغضة ونفرة في القيمة ، أما إن كان الموجب لحصول الحبة في الدنيا الاشتراك في حبة الله وفي خدمته وطاعته ، فهذا السبب غير قابل للنحو والتغير ، فللاجرم كانت هذه الحبة باقية في القيمة ، بل كانها تصير أقوى وأضيق وأكل وأفضل من كانت في الدنيا ، وهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى ( الأخلاء يومئذ بعضهم بعض عدو إلا الفخر الرازي - ج ٢٧ م ١٥

**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**

(الحكم الثاني) ، (الحكم الثالث) من أحكام يوم القيمة ، قوله تعالى (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقد ذكرنا مراراً أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد ، بالمؤمنين المطهرين المتنقين ، قوله (يا عباد) كلام الله تعالى ، فكان الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وفيه أنواع كثيرة لما يوجب الفرح (أولها) أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانية) أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا تشريف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدًا صلوات الله عليه وآله وسلامه ليلة المراجعة ، قال (سبحان الذي أسرى بيده) (وثالثها) قوله (لا خوف عليكم اليوم) فما زال عنهم الخوف في يوم القيمة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم (ورابعها) قوله (ولا أنتم تحزنون) ففي عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية .

ثم قال تعالى (الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين ) قيل (الذين آمنوا) مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير يقال لهم : أدخلوا الجنة ، ويجعل أن يكون المعنى أعني الذين آمنوا ، قال مقائل : إذا وقع الخوف يوم القيمة ، نادى مناد (يا عباد لا خوف عليكم اليوم) فإذا سمعوا النداء رفع الحالات ره وسمهم ، فيقال (الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين ) فتنكس أهل الأديان الباطلة وذوسمهم (الحكم الثالث) من وقائع القيمة ، أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن ، وجب أن يمر حسابهم على أسمى الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال لهم (أدخلوا الجنة أنت وأزواجكم تحبرون) والخبرة المبالغة في الإكرام فيها وصف بالجميل ، يعني يكرمون إكراماً على سبيل المبالغة ، وهذا مما سبق تفسيره في سورة الروم .

ثم قال هـ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب هـ قال الفراء : الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له ، قوله (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) إشارة إلى المطعم ، قوله (وأكواب) إشارة إلى المشروب ، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بياناً كلياً ، فقال (فيها ماتشتته الأفns وتلذ الآعين وأنت فيها خالدون) .

ثم قال هـ و تلك الجنة التي أورتموها بما كنتم تعملون هـ وقد ذكرنا في وراثة الجنة وجهين في قوله (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس) ولما ذكر الطعام والشراب فيما قدم ، ذكر هنا حال الفاكهة ، فقال (لكم فيها فاكهة منها تأكلون) .

واعلم أنه تعالى بعث محمدًا صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى العرب أولاً ، ثم إلى العالمين ثانياً ، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المأكل والشرب والفاكهه ، فلهذا السبب قفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مررة بعد أخرى ، تكميلاً لرغبتهم وتقربة لدعائهم .

قوله تعالى : **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ، لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾**

وَمَا ظلَّنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَنَادَوْا يَمَالِكَ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ  
إِنَّكُمْ مَنْكُشُونَ ﴿١٨﴾ لَقَدْ جِئْنَكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ أَبْرَمْتُ  
أَمْ أَفْلَانَا مُبْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرْهُمْ وَنَجْوَنَهُمْ بَلَى وَرَسُلُنَا لَدَهُمْ  
يَكْتُبُونَ ﴿٢١﴾

وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقضى علينا ربكم قال إنكم ما كثون ، لقد  
جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، أم أبرموا أمراً فلانا مبرمون ، أم يحسبون أنا لا نسمع  
سرهم ونحوهم بل ورسلنا لديهم يكتبون .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد ، أردفه بالوعيد على الترتيب المستتر في القرآن ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتاج القاضي على القطع بوعيد الفساق بقوله ( إن الجرمين في عذاب  
جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ) ولفظ الجرم يتناول الكافر والفاقد ، فرجب كون  
الكل في عذاب جهنم ، و قوله ( خالدون ) يدل على الخلود ، و قوله أيضاً ( لا يفتر عنهم ) يدل على  
الخلود والدوام أيضاً ( والجواب ) أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من لفظ  
( الجرمين ) ه هنا الكفار ، أما ما قبل هذه الآية فكانه قال ( يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أتم  
تحزونون ، الذين آمنوا بأياتنا و كانوا مسلمين ) وهذا يدل على أن كل من آمن بأيات الله و كانوا مسلمين ،  
فإنهم يدخلون تحت قوله ( يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أتم تحزونون ، الذين آمنوا بأياتنا  
و كانوا مسلمين ) والفاقد من أهل الصلاة آمن باقه تعالى وبآياته وأسلم ، فوجب أن يكون داخلا  
تحت ذلك الوعد ، ووجب أن يكون خارجاً عن هذا الوعيد ، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله  
( جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ) ول المراد ( بالحق ) ه هنا إما الإسلام وإما القرآن ،  
والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن ، ثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن  
المراد من الجرمين الكفار ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى وصف عذاب جهنم في حق الجرمين بصفات ثلاثة ( أحدهما )  
الخلود ، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام ( وثانية ) قوله  
( لا يفتر عنهم ) أي لا يخفف ولا ينقص من قوله ثرت عنه الحمى إذا سكنت و تقص حرمها ( وثالثها )  
 قوله ( وم فيه مبلسون ) والمبلس اليائس الساكت سكت يائس من فرج ، عن الضحاك يحمل  
الجرم في تابوت من نار ، ثم يقل عليه فيق فيه خالدا لا يرى ، قال صاحب الكشاف وقرىء  
( ورم فيها ) أي ورم في النار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتاج القاضي بقوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا مِنَ الظالمين) فقال إن كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار ما الذي نفاه بقوله (وما ظلمناهم) وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه ؟ أو ليس لو أثبتناه ظليماً لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم ، فإن قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عن وجل فقط ، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معاً ، فلم يكن ذلك ظليماً من الله . قلنا : عندكم أن القدرة على الفعل موجبة للظلم ، وحالق تلك القدرة هو الله تعالى ، فكانه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالماً لهم ، وذلك حال لأن من يكون ظالماً في فعل ، فإذا فعل معه ما يجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق ، فيقال للقاضي قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متباعدة لأحد الطرفين ؟ فإن كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجح إن وقع لا لمرجع لوم نفي الصانع ، وإن افتقر إلى مرجع عاد التقسيم الأول فيه ، ولا بد وأن يقتبس إلى داعية مرجة بخلافها الله في العبد ، وإن كانت متباعدة لأحد الطرفين فيكتذبازمل مَا أورده علينا .

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال في ذكره ، إنما الرجل الذي ينظر فيها قبل الكلام وفيها بيده ، فإن رأه وارداً على مذهبه بعينه لم يذكره والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فرأى ابن مسعود (ياماً) بحذف الكاف للتترحيم قبيل لابن عباس إن ابن مسعود فرأى ونادوا ياماً فقال : ما أشغل أهل النار عن هذا الترجم ؟ وأجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترجم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروها من الكلمة إلا بعضها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلفوا في أن قوله (يامالك ليقض علينا ربك) على أي وجه طلبوا فقال بعضهم على التبني ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، والإفهام عالون بأنه لا يخلاص لهم عن ذلك العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال لهم لشدة ما مِنْ العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب . ثم إنه تعالى بين أن مالك يقول لهم (إنكم ما كثون) وليس في القرآن متى أجابهم ، هل أجابهم في الحال أو بعدة طويلة ، وإن كان بعد ذلك قيل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بعدة طويلة ، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافاً بهم وزبادة في غمهم ، فمن عبد الله بن عمر بعد أربعين سنة ، وعن غيره بعد مائة سنة ، وعن ابن عباس بعد ألف سنة والله أعلم بذلك المقدار .

ثم بين تعالى أن مالك لما أجابهم بقوله (إنكم ما كثون) ذكر بعده ماهو كالغلة لذلك الجواب فقال (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والمراد تقوتهم هنّ مهد وحنّ القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق ، فإن قيل كيف قال (ونادوا ياماً) بعد ما وصفهم بالإblas ؟ قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب متعددة ، فتحتختلف بهم الأحوال فيسكتون أو قاتلهم الأبالس عليهم ويستغيثون أو قاتلوا لشدة ما بهم ، روى أنه باقى على أهل النار الجموع حتى يعدل بهم

قُلْ إِنَّ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَزِيزِينَ (١٠٣) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصْنُونَ (١٠٤) فَذَرْهُمْ يَخْرُصُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقَوُا  
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (١٠٥) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ  
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (١٠٦) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
وَعِنْهُمْ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٠٧) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ  
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِيقَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٠٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقُوكُمْ  
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّمَا يُؤْفَكُونَ (١٠٩) وَقِيلَ لَهُ يَسْرِيْتَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (١١٠)

فيه من العذاب ، فيقولون ادعوا مالكا فيدعون (يا مالك ليقض علينا ربك) ولما ذكر الله تعالى كافية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرم وفساد باطنهم في الدنيا فقال (أم أبرموا أمرًا فانما يبررون) والمعنى أم أبرموا أي مشركون مكةً أمرًا من كيدهم ومكرم برسول الله ، فإنما يبررون كيدهنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى (أم يريدون كيداً فالذين كفروا من المكيدون) قال مقاتل : نزلت في تدبرهم في المكر به في دار الندوة ، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى (واذ يذكر بك الذين كفروا) وقد ذكرنا القصة .

ثم قال (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونحوهم) السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال ، والنحوى ما تكلموا به فيما بينهم (بلى) نسمعها ونطلع عليها (ورسلنا) يريد الحفظة (يكتبون) عليهم تلك الأحوال ، وعن ... يحيى بن معاذ من ستر من الناس ذنبه وأبداهما للذى لا يخفى عليه شىء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ، سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ  
الْعَرْشِ عَمَّا يَصْنُونَ ، فَذَرْهُمْ يَخْرُصُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقَوُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، وَهُوَ الَّذِي فِي  
السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ، وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
وَعِنْهُمْ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقُوكُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّمَا يُؤْفَكُونَ ، وَقِيلَ لَهُ يَسْرِيْتَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ،

**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾**

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون )، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فرأى حزرة والكسانى (ولد) بضم الواو وإسكان اللام<sup>١</sup> والباقيون بفتحهما (فأنا أول العبادين) فرأى نافع (فأنا) بفتحة طربة على التون والباقيون بلا طربيل .

﴿المسألة الثانية﴾ أعلم أن الناس ظنوا أن قوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العبادين) لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد للرحمى ، وذلك ع الحال فلا جرم اتفروا إلى تأويل الآية ، وعندى أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب المدول عن الظاهر ، وتقريره أن قوله (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العبادين) قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبرتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزا ، خصل بمجموعهما قضية واحدة ، ومثاله هذه الآية فإن قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العبادين) قضية مركبة من قضيتين : (إحداهما) قوله (إن كان الرحمن ولد) ، (والثانية) قوله (فأنا أول العبادين) ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة إن على القضية الأولى وحرف الجزا وهو الفاء على القضية الثانية خصل من بمجموعهما قضية الأولى واحدة ، وهو القضية الشرطية ، إذا عرفت هنا فنقول القضية الشرطية لا تقييد إلا كرق الشرط مستلزمًا للجزاء ، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقيقة أو باطلًا أو يكون الجزا حقيقة أو باطلًا ، بل تقول القضية الشرطية الحقيقة قد تكون من مركبة من قضيتين حقيقتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاً حقيقة أو من شرط حقيقة وجزاً باطل ، فاما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقيقة مركبة من شرط حقيقة وجزاً باطل فهذا الحال . ولنبين أمثل هذه الأقسام الأربعـة ، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيوراناً فالإنسان جسم فهو شرطية حقيقة وهي مركبة من قضيتين حقيقتين ، إحداهما قولنا الإنسان حيوران ، والثانية قولنا الإنسان جسم ، وإذا قلنا إن كانت الخنسة زوجاً كانت منقسمة بمتناوبين فهذه شرطية حقيقة لكنها مركبة من قولنا الخنسة زوج ، ومن قولنا الخنسة منقسمة بمتناوبين وما باطلان ، وكثيرهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزم أحدهما للأخر حقيقة ، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تقييد إلا مجرد الاستلزم ، وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، فهذا أيضًا حقيقة لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر ، ومن جزء حقيقة وهو قولنا الإنسان جسم ، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حقيقة ، فانا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسماً فهذا شرط باطل يستلزم جزءاً حقيقة .

(وأما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقيقة من شرط حقيقة وجزاً باطل ، فيبتدا

حال ، لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزمًا للباطل وذلك حال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزمًا للحق وذلك ليس بحال ، إذا عرفت هذا الأصل فلترجع إلى الآية فنقول قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لأن قولنا كان الرحمن ولد باطل ، وقولنا (أنا أول العابدين) لذلك الولد باطل أيضًا إلا أنها يتنا أن كون كل واحد منها باطلًا لا يمنع من أن يكون استلزم أحدهما الآخر خاتمًا ضربنا من المثال في قولنا إن كانت الحسنة زوجًا كانت منقسمة بمتساوين ، ثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره ، ويكون المراد منه أنه إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد ، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده ، وقد يتبنا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بآيات ولد أم لا .

وما يقرب من هذا الباب قوله (لو كان فيما آلة إلا الله لفسدتا) فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا (فيما آلة) والجزاء هو قولنا (فسدتا) فالشرط في نفسه باطل والجزاء أيضًا باطل لأن الحق أنه ليس فيما آلة ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء بانتفاء غيره لأنهما مافسدة ثم مع كون الشرط باطلًا وكون الجزاء باطلًا كان استلزم ذلك الشرط لهذا الجزاء حقيقة فكذا هنا ، فإن قالوا الفرق أن هنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو قال (لو كان فيما آلة) وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء بانتفاء غيره ، وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء بانتفاء غيره ، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا ، وحصول هذا الشك لرسول غير ممكن ، فلنا الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءها صادقين أو كاذبين على ما قررناه أما قوله إن لفظة إن تقييد حصول الشرط هل حصل أم لا ، فلنا هذا منزع فإن حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيده إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء ، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الواقع أو مشكوك الواقع ، فال فقط لادلة فيه عليه البتة ، فظهور من المباحث التي تخصناها أن الكلام مهتمًا ببيان الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه للبتة إلى التأويل ، والمعنى أنه تعالى قال (قل) يا محمد (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) لذلك الولد وأنا أول الخادمين له ، والمقصود من هذا الكلام بيان أن لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرباً به معترضاً بوجوب خدمته إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يتم الدليل على ثبوته البتة ، فكيف أقول به قبل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف أعرف بوجرده ؟ وهذا الكلام ظاهر كايل للاحاجة به البتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر ، وهذا ما عندى في هذا الموضوع ونقل عن السدي ون المفسرين أنه كان يقول حل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل ، والقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي

قاله هو الحق ، أما القائلون بأنه لابد من التأويل فقد ذكروا وجوماً (الأول) قال الواحدى كثرت الوجوه في تفسير هذه الآية ، والأقوى أن يقال المعنى إن كان الرحمن ولد في رحمك (فأنا أول العبادين) أى الموحدين لله المذكرين لقولهم باضافة الولد إليه ، ولقائل أن يقول إما أن يكون قدير الكلام : إن يثبت الرحمن ولد في نفس الأمر فاما أول المنكري له أو يكون التقدير إن يثبت لكم ادعاه أن الرحمن ولدأنا أولاً المنكري له ، والأول باطل لأن ثبوته الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكراً له ، لأن قوله إن كان الشيء ثابتاً في نفسه فأننا أول المنكري يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول ، والثاني أيضاً باطل لأنهم سواه أثبتوا له ولذاً أو لم يثبتوا له فالرسول منكراً لذلك الولد ، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً في كون الرسول منكراً للولد .

(الوجه الثاني) قالوا معناه (إن كان الرحمن ولد فأننا أول العبادين) الآتيفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتدت أفقته فهو عبد وعابد ، وقرأ بعضهم عبادين .

واعلم أن السؤال المذكور قائم هنا لأنه إن كان المراد إن كان الرحمن ولد في نفس الأمر فأننا أول الآتيفين من الإقرار به ، فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب ، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد في زرحمكم واعتقادكم فأننا أول الآتيفين ، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الآية حاصلة سواه حصل ذلك الرعم والاعتقاد أولاً يحصل ، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً .

(والوجه الثالث) قال بعضهم إن كلمة إن هنا هي النافية والتقدير ما كان الرحمن ولد فأننا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة ، وقد يبين أنه لا ضرورة البتة فلم يحوز المصير إليها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سبحان رب السموات والارض رب للعرش حما يصفون به ولهم المعنى أن الله العالم يحب أن يكون واجب الوجود ذاته ، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزءاً بوجه من الوجوه ، والولد بحارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أحواذه فهو ولد عن ذلك الجزء شخص مثله ، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزئ ، والتبعيـن ، وإذا كان ذلك حالاً في حق الله العالم امتنع إثبات الولد له ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ) والمقصود منه التهديد ، يعني قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا لهم لينتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرين في طلب الماليـو الجاه والريـاسة فتركتهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وعدوا فيه بما وعدوا ، والمقصود منه التهديد .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى في السماء إله وفي الأرض إله به وفيه أحـاث :

(البحث الأول) قال أبو علي نظرت فيما يرتفع به إله فوجدت ارتفاعه يصلح بأن يكون خبر مبتدأ مخزوف والتقدير وهو الذي في السماء هو إله .

(والبحث الثاني) هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء ، لأنه تعالى بين بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إله الأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إله السماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها ، فإن قيل وأى تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى ؟ فلما تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض كونه لا يكون من غير واسطة النطفة والأب ، فكانه قيل إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولدأ الله سبحانه ، لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك . ثم قال تعالى ( وهو الحكيم العليم ) وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيمها عليها بنافي حصول الولد له .

ثم قال (وببارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنه علم الساعة وإليه ترجعون) واعلم أن قوله (بارك) إما أن يكون مشتقاً من الثبات والبقاء ، وإما أن يُكون مشتقاً من كثرة الخير ، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافي كون عيسى عليه السلام ولداً لله تعالى ، لأن إن كان المراد منه الثبات والبقاء ، فيحيى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوم ، لأن حدث بعد أن لم يكن ، ثم عند النصارى أنه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباق الدائم الأزلي مجانية ومشابهة ، فامتنع كونه ولداً له ، وإن كان المراد بالبركة كثرة الحيرات مثل كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان يحتاجاً إلى الطعام وعند النصارى أنه كان خافقاً من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوا ، فالذي هذا صفتة كيف يكون ولداً لمن كان خالقاً للسموات والأرض وما بينهما .

وأما قوله (وعنه علم الساعة) فالمقصود منه إنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه ، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة على الحد الذي شرحته امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى .

ولما أطرب الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشرك . فقال (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ومعلمون) ذكر المفسرون في هذه الآية قوله (أحد هما) أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزم ، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزم لا يشفعون إلا من شهد بالحق ، روى أن النضر بن الحarith ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فأنزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد ثم استئن فقال (إلا من شهد بالحق) والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون إلا من شهد بالحق ، فأضرر اللام أو يقال التقدير إلا شفاعة من شهد بالحق لخزف المضاف ، وهذا على لغة من

يعدى الشفاعة بغير لام ، فيقول شفعت فلاناً بمعنى شفعته له كما تقول كلمته وکامت له ونصحته ونصحت له ( والقول الثاني ) أن الذين يدعون من دونه كل معبد من دون الله ، قوله ( إلا من شهد بالحق ) الملائكة وعيسى وعزير ، المعنى أن الأشياء التي عبدها الكفار لا يمكنون الشفاعة إلا من شهد بالحق ، ومم الملائكة وعيسى وعزير فإن لهم شفاعة عند الله ومنزلة ، ومعنى من شهد بالحق من شهد أنه لا إله إلا الله .

ثم قال تعالى ( وَمَمْ يَعْلَمُونَ ) وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لانفاس البة ، واحتاج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع البة بهذه الآية ، فقالوا بين الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل منها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شكل صاحبه فيه لم يتشكل ، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل ، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع البة .

قوله تعالى : هُوَ لَئِنْ سأَلْتُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنِّي تَوْفِكُونَ وَفِيهِ مَسَأَلَاتٍ :

﴿الْمَسَأَلَةُ الْأُولَى﴾ ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، قال الجبائي وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا لا إله لهم غيره ، وقوم إبراهيم قالوا ( وإنما نحن شركاء ما تدعونا إليه ) فيقال لهم لأنتم أنتم فرعون كانوا منكريين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى ( وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظَلَّاً ) وقال موسى لفرعون ( لقد علمت ما أنزلت مِنْ لِاءً إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَارِ ) فالقراءة بفتح التاء في علمت تدل على أن فرعون كان هارباً منه ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا ( وإنما نحن شركاء ما تدعونا إليه ) فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوة .

﴿الْمَسَأَلَةُ الثَّانِيَةُ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخلق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خبيثة لانضر ولا تنفع ، بل هي جادات محضة .

وأما قوله ( فَأَنِّي تَوْفِكُونَ ) منه لم تكن بذنبهم على الله فتقولون إن الله أمرنا بعبادة الأصنام ، وقد احتاج بعض أصحابنا به على أن إفکهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله ( فَأَنِّي تَوْفِكُونَ ) وأصحاب الفاضلي بأن من يصل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له أين يذهب بك ، والمراد أين تذهب ، وأصحاب الأصحاب بأن قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على أن ذاهباً آخر ذهب به ، فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر ، وأيضاً فإن الذي ذهب به هو الذي شغل تلك الداعية في قلبه ، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى .

قوله تعالى : هُوَ لَئِنْ هُوَ لَاءٌ فَوْمَ لَأَبْوَمُونَ وَفِيهِ مَبَاحِثٌ :

(الأول) قرأ الأكثرون ( وقيله ) بفتح اللام وقرأ عاصم ومحزنة بكسر اللام ، قال الواحدى وقرأ آناس من غير السبعة بالرفع ، أما الذين قرروا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قوله

(أحدما) أنه نسب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فاتتصب قيله بإضمار قال (والثاني) أنه عطف على ما تقدم من قوله (أنا لا نسمع سرّم ونحوه ... وقيله) وذكر الزجاج فيه وجهاً (ثالثاً) فقال إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله (وعنه علم الساعة) معناه أنه علم الساعة ، والتقدير علم الساعة ، وقيله ، ونظيره قوله عجبت من ضرب زيد وعمرأ ، وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج إنه معطوف على الساعة ، أى عنه علم الساعة ، وعلم قيله بارب ، قال المبرد العطف على المتصوب حسن وإن تباعد المطرف من المطرف عليه لانه يجوز أن يفصل بين المتصوب وعامله والجبرور يجوز ذلك فيه على قبح ، وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الأول) أن يكون وقيله مبتدأ وخبره ما بعده (والثاني) أن يكون معظراً على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنه علم الساعة وعلم قيله ، قال صاحب الكشاف هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لاسيما وقوع الفصل بين المطرف والمطرف عليه بحالاً يحسن اعتراضها ، ثم ذكر وجهاً آخر وزعم أنه أقوى مما سبق ، وهو أن يكون النصب والجبر على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قوله أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ، يكون قوله (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقوله يارب أو وقوله يارب قسم ، وأقول هذا الذي ذكره صاحب الكشاف مختلف أيضاً وهنا إضمار أملاً القرآن منه وهو إضمار اذكر ، والتقدير واذكر قيله بارب ، وأما القراءة بالجر ، فالتقدير واذكر وقت قيله بارب ، وإذا وجب التزام الإضمار فلأنه يضرم شيئاً جبرت العادة في القرآن بإضماره أولى من غيره ، وعن ابن حباس أنه قال في تفسير قوله (وقيله بارب) المراد وقبل بارب والباء زيادة .

(البحث الثاني) القيل مصدر كالقول ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «نهى عن قيل وقال» قال الليث يقول العرب كثريه القيل والقال ، وروى ثور عن أبي زيد بقال ما أحسن قيلك وقولك وقالك ومقاتلك خمسة أوجه .

(البحث الثالث) الصيير في قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(البحث الرابع) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ضجر منهم وعرف إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال (رب إنهم عصو واتبعوا من لم يرده ماله وولده إلا خساراً) .

ثم إنه تعالى قال له (فاصفح عنهم) فأمره بأن يصفح عنهم وفي ضمه منه من أن يدعو عليهم بالعذاب ، والصفح هو الإعراض .

ثم قال (وكل سلام) قال سيبويه إنما معناه المبارك ، ونظيره قوله إبراهيم لآية (سلام عليك سأستغفر لك رب) وكفوله (سلام عليكم لا ينتهي الجاملين) .

فربه **فوسف** تعلوهم **والمتصود منه التهديد** . وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فرأى نافع وابن حارث تعلمون بالتأهيل الخطاب ، والباقيون بالباء كناية عن قوم لا يؤمنون .

﴿المسألة الثانية﴾ احتاج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر ، وأقول إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصر على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن سلام عليكم . والمقصود التنبية على النية التي تذكر المسلم والكافر .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال ابن عباس قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) منسوخ آية السيف ، وعندي أن الزمام النسخ في أمثال هذه الموضع مشكل ، لأن الأمر لا يقيد الفعل إلا مرة واحدة فإذا أُقِيِّدَ به مرة واحدة فقد سقطت دلالة الفظ ، فأى حاجة فيه إلى الزمام النسخ ، وأيضاً ذكره بين الفور مشهور رد عند الفقهاء وهي دالة على أن الفظ قد ينقيد بحسب قرينة العرف ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى الزمام النسخ وأله أعلم بالصواب .

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضاوان : تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة ثلاثة وستمائة والحمد لله أولاً وآخرأ وباطناً وظاهرأ ، والصلوة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصاً على محمد صلى الله عليه وسلم وأله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الراهنين .

(٤) سُورَةُ الْذَّهَانِ مِكْتَبَتِنَا  
وَآتَيْنَا هَمَاسَتْعَ وَخَشِقَتْ

خسون وتسع آيات مكية إلا قوله إننا كاشفوا العذاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ  
۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أُمَّةٍ حَكِيمٌ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً  
مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ  
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمْبَتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَاءِكُمُ الْأَوَّلِينَ  
۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ ۝

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ، والكتاب المبين ، إننا أنزلناه في ليلة مباركة إننا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ،  
أمرًا من عندنا إننا كنا مرسلين ، رحمة من ربكم إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض  
وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آباءكم الأولين ، بل م في شك  
يلعبون ﴾ ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (حم ، والكتاب المبين) وجوه من الإحتمالات (أولها) أن  
يكون التقدير : هذه (حم ، والكتاب المبين) كقولك هذا زيد والله (وثانية) أن يكون الكلام  
قد تم عند قوله (حم) ثم يقال (والكتاب المبين ، إننا أنزلناه) ، (وثالثا) أن يكون التقدير :  
وحم ، والكتاب المبين ، إننا أنزلناه ، فيكون ذلك في التقدير قسمين على شيء واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجهه (الأول) أن قوله (حم)  
تقديره : هذه حم ، يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف ، والممؤلف من الحروف المتعاقبة  
حدث (الثاني) أنه ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الأشياء بل ياله هذه الأشياء ، فيكون التقدير

ورب حم ورب الكتاب المبين ، وكل من كان مربوياً فهو محدث (الثالث) أنه وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الجمجم فعنده أنه جمجم المجموع محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث (الرابع) قوله (إنا أنزلناه) والمنزل محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث ، وقد ذكرنا مراراً أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتواالية محدث ، والعلم بذلك ضروري بديهي ، لا ينماز في إلا من كان عذباً العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث . وإذا كان كذلك فكيف ينماز في صحة هذه الدلائل ، إنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ماتركب من هذه الحروف والأصوات .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتب المقدمة إلى أنزلها الله على أنبيائه ، كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ . كما قال (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنه أم الكتاب) وقال (وله في أم الكتاب لدينا) ويجوز أن يكون المراد به القرآن ، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه : أستشفع بك إلينك وأقسم حفتك عليك .

**﴿ المسألة الرابعة ﴾** (المبين) هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة إليه في دينهم ودنياه ، فوصفه بكونه مبيناً ، وإن كانت حقيقة الإبارة لله تعالى ، لأجل أن الإبارة حصلت به ، كما قال تعالى (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل) وقال في آية أخرى (نحن نقص عليك أحسن القصص) وقال (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبارة ، فكانه ذو لسان ينطق ، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى .

**﴿ المسألة الخامسة ﴾** اختلفوا في هذه الليلة المباركة ، فقال الأكثرون : إنها ليلة القدر ، وقال عكرمة وطائفة آخرون : إنها ليلة البراءة ، وهي ليلة النصف من شعبان (أيما الأولون) فقد احتجوا على صحة قولهم بوجهه (أولها) أنه تعالى قال (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ومهمنا قال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر ، لثلا يلزم التناقض (وثانيها) أنه تعالى قال (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وبين أن إزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان ، وقال مهما (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان ، قال إنها ليلة القدر ، ثبتت أنها ليلة القدر (وثالثها) أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر (تنزل الملائكة والروح فيها ياذن ربهم من كل أمر سلام هي) وقال أيضاً مهما (فيها يفرق كل أمر حكيم) وهذا مناسب لقوله (تنزل الملائكة والروح فيها) ومهمنا قال (أمرأ من عندنا) وقال في تلك الآية (ياذن ربهم من كل أمر) وقال مهما (رحمة من ربك) وقال في تلك الآية (سلام هي) وإذا تقارب الأوصاف

وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى (ورايتها) نقل محمد بن جرير الطبرى في تفسيره عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست ليال منه ، والزبور لائنتي عشرة ليلة مضت منه ، والإنجيل لثان عشرة ليلة مضت منه ، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان ، والليلة المباركة هي ليلة القدر (وخامسها) أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم ، لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم ، ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها أسباب ذلك الزمان ، لأن الزمان شئ واحد في الذات والصفات ، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته ، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة ، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا ، وأعلى الأشياء وأشرفها منصباً في الدين هو القرآن ، لأجل أن به ثبتت نبوة محمد عليه السلام ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة ، كما قال في صفتة (وميغنا عليه) وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ، ودرجات أرباب الشقاوات ، فعلى هذا لاشيء إلا والقرآن أعظم قدرأ وأعلى ذكرأ وأعظم منصباً منه فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر ، لكان ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى ، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان ، علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة ، وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية ، هي ليلة النصف من شعبان ، فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه ، وإنما قنعوا فيه بأن نقوله عن بعض الناس ، فإن صبح عن رسول الله عليه السلام فيه كلام فلامزيد عليه ، وإنما فالحق هو الأول ، ثم إن هؤلا القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصدك ، وليلة الرحمة ، وقيل إنما سميت بليلة البراءة ، وليلة الصدك ، لأن البندار إذا استوفى الخراج من أمهله كتب لهم البراءة ، كذلك الله عز وجل يكتب لعياده المؤمنين البراءة في هذه الليلة ، وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال (الأولى) تفرق كل أمر حكيم فيها ، قال تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) (والثانية) فضيلة العبادة فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثة يبشرونها بالجنة ، وثلاثون بؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا ، وعشرة يدفعون عنه مكاييد الشيطان» ، (الخصلة الثالثة) نزول الرحمة ، قال عليه السلام «إن الله يرحم أمني في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب» (والخصلة الرابعة) حصول المغفرة ، قال عليه السلام «إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة ، إلا لكافر ، أو مشاحن ، أو مدمن حمر ، أو عاق للوالدين ، أو مصر على الرزنا» (والخصلة الخامسة) أنه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأله ليلة الثالث عشر من شعبان في أمنه فأعطى الثالث منها ، ثم سأله ليلة الرابع عشر ، فأعطى الثنين ، ثم سأله ليلة الخامس عشر ، فأعطى الجميع إلا من شرد على أقه شزاد البعير ، هذا الفضل نقله من الكشاف ، فإن قيل لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي

تُقدِّرُ ها حرَّكاتُ الْأَفْلَاكَ وَالكَوَا كَبَ ، وَأَنَّهُ فِي ذَاهِنَةِ أَمْرٍ مُتَشَابِهِ لِلْأَجْزَاءِ فَيُمْتَحِنُ كُونَ بَعْضِهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ ، وَالْمَكَانُ عِبَارَةٌ عَنِ الْفَضَاءِ الْمُمْتَدُ وَالْخَلَاءِ. الْخَالِي فَيُمْتَحِنُ كُونَ بَعْضَ أَجْزَائِهِ أَشَرَّفَ مِنَ الْبَعْضِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ تَخْصِيصُ بَعْضِ أَجْزَائِهِ بِمُزِيدِ الشَّرْفِ دُونَ الْبَاقِي تَرْجِيحاً لِأَحَدِ طَرَقِ الْمُمْكِنِ عَلَى الْآخَرِ لَا لِمُرْجِحِ إِنَّهُ مُحَالٌ ، قَلَّا الْقَوْلُ يَا بَنَاتِ حَسَوتِ الْعَالَمِ وَإِنَّهُنَّ أَنْ قَاعِلَهُنَّ مُخْتَارَ بَنَاءً عَلَى هَذَا الْحَرْفِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ مِنَ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ تَخْصِيصٌ وَثُقْتُ مِنْهُنَّ يَا حَادِثَاتِ الْعَالَمِ فِيهِ دُونَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ ، فَإِنْ بَطَّلَ هَذَا الْأَصْلَ فَقَدْ بَطَّلَ حَدِيثُ الْعَالَمِ وَبَطَّلَ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ وَجَبَّنَدَ لَا يَكُونُ الْخَرْصُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَائِدَةً ، وَإِنْ صَحَّ هَذَا الْأَصْلَ فَقَدْ زَالَ مَا ذُكِّرَ نِمَّ مِنَ السُّؤَالِ ، فَهُنَّا هُوَ الْجَوَابُ الْمُعْتَمَدُ ، وَالنَّاسُ قَالُوا لَا يَبْعُدُ أَنْ يَخْصُّ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ الْأَوْقَاتِ بِمُزِيدِ تَشْرِيفٍ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ دَاعِيَّا لِلْمُكْلَفِ إِلَى الْإِفْدَامِ عَلَى الْطَّاعَاتِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَلِهَذَا السَّبِيلُ بَيْنَ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْفَاهُ فِي الْأَوْقَاتِ وَمَاعِيَّتِهِ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا جَوْزُ الْمُكْلَفِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْهُنَّ أَنْ يَكُونُ هُوَ ذَلِكَ الْوَقْتُ الْشَّرِيفُ فَيَصِيرُ ذَلِكَ حَامِلاً لَهُ عَلَى الْمَوَاطِبِ عَلَى الْطَّاعَاتِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ ، وَإِذَا رَفِعَتْ عَلَى هَذَا الْحَرْفِ ظَهَرَ عِنْدَكَ أَنَّ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ إِنَّمَا قَازَا بِالشَّرِيفَاتِ الْزَّائِدَةِ تَبَعَّا لِشَرْفِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ الْأَصْلُ وَكُلُّ مَا سَوَاهُ فَهُوَ تَبَعُّ لَهُ وَأَقْلَمُ .

﴿الْمَسَأَةُ السَّادِسَةُ﴾ رُوِيَ أَنَّ عَطِيَّةَ الْمَرْوُرِيَّ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ قَوْلِهِ (إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وَقَوْلِهِ (إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ) كَيْفَ يَصْحُّ ذَلِكَ مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي جَمِيعِ الشَّهُورِ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : يَا ابْنَ الْأَسْوَدِ لَوْ مُلِكْتَ أَنَا وَوَقَعَ هَذَا فِي نَفْسِكَ وَلَمْ تَمْجُدْ جَوَابَهُ مُلِكْتَ، نَزَلَ الْقُرْآنُ جَلَّهُ مِنَ الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْوُرِ، وَمَوْقِفُ السَّيَّاهِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَنْوَاعِ الْوَقَانِعِ حَالًا خَالَالًا . وَأَقْلَمُ .

﴿الْمَسَأَةُ السَّابِعَةُ﴾ فِي يَانِ نَظَمَ هَذِهِ الْآيَاتِ ، أَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا تَعْظِيمُ الْقُرْآنِ مِنْ تَلَاثَةِ أَوْجَهٍ (أَحَدُهَا) يَبَانُ تَعْظِيمُ الْقُرْآنِ بِحَسْبِ ذَاهِنَةِ (الثَّانِي) يَبَانُ تَعْظِيمُهُ بِسَبِيلِ شَرْفِ الْوَقْتِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ (وَالثَّالِثُ) يَبَانُ تَعْظِيمُهُ بِحَسْبِ شَرْفِ مَنْزِلَتِهِ ، أَمَّا يَبَانُ تَعْظِيمُهُ بِحَسْبِ ذَاهِنَةِ فِي نَزَلَةٍ تَلَاثَةَ أَوْجَهٍ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ تَعَالَى أَفْسَمُ بِهِ وَذَلِكَ يَدْلِلُ عَلَى شَرْفِهِ (وَثَانِيَّهَا) أَنَّهُ تَعَالَى أَفْسَمُ بِهِ عَلَى كُونِهِ نَازِلًا فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْقَسْمَ بِالشَّيْءِ عَلَى حَالَةِ مِنْ أَحْوَالِ نَفْسِهِ يَدْلِلُ عَلَى كُونِهِ فِي غَايَةِ الْشَّرْفِ (وَثَالِثَهَا) أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُ بِكُونِهِ مِنْهَا وَذَلِكَ يَدْلِلُ أَيْضًا عَلَى شَرْفِهِ فِي ذَاهِنَةِ .

(وَأَمَّا النَّرْجُعُ الثَّانِي) وَهُوَ يَبَانُ شَرْفَهُ لِأَجْلِ شَرْفِ الْوَقْتِ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ فَهُوَ قَوْلُهُ (إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ) وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ نَزْوَلَهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ يَقْتَضِي شَرْفَهُ وَجَلَالَهُ ، ثُمَّ نَقُولُ إِنَّ قَوْلَهُ (إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ) يَقْتَضِي أَمْرَيْنِ : (أَحَدُهَا) أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهُ (وَالثَّانِي) كَوْنُ تَلَكَ الْلَّيْلَةِ مَبَارَكَةً فَذَكَرَ تَعَالَى عَقِيبَ هَذِهِ الْكَلْمَةِ مَا يَجْهُرُ بِهِ الْبَيْانُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، أَمَّا يَبَانُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ أَنْزَلْهُ فَهُوَ قَوْلُهُ (إِنَّا كَنَا مُنْذِرِينَ) يَعْنِي الْمُسْكَنُ فِي إِزَالَةِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ إِنْذَارَ الْخُلُقِ لَا يَتِمُّ

إلا به ، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران : (أحد هما) أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم ، و (الثاني) أن سبب الأمر الحكيم مخصوصاً بشرف أنه إنما يظهر من عنده ، وإليه الإشارة بقوله (أمرآ من عندنا) .

(وأما النوع الثالث) فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله (إما كننا مسلين) في حين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى ، ثم بين أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكثيل الرحمة وهو قوله (رحمة من ربك) وكان الواجب أن يقال رحمة إلا أنه وضع الظاهر موضع المضر إيداعاً بأن الربوبية تقضي الرحمة على المربيين ، ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لأن الله تعالى يسمع تضرعاتهم ، ويعلم أنواع حاجاتهم ، فلهذا قال (إنه هو السميع العليم) لهذا ما خطط بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات بعض .

(المسألة الثامنة) في تفسير مفردات هذه الألفاظ ، أما قوله تعالى (إنما أزلناه في ليلة مباركة) فقد قيل فيه إنه تعالى أزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في هذه الليلة ، ثم أزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف ، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبرائيل وكذلك الزلزال والصاعق والخسوف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل<sup>(١)</sup> صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

أما قوله تعالى (فيها يفرق) أي في تلك الليلة المباركة يفرق أي يفصل وبين من قويم فرق الشيء أفرقة فرقاً وفرقاناً ، قال صاحب الكشاف وقرىء يفرق بالتشديد ويفرق على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل ، وقرأ زيد بن علي تفرق بالنون .

أما قوله (كل أمر حكيم) فالحكيم معناه ذو الحكمة ، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزنق والأجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة الله تعالى ، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلما وصفت بكل منها حكمة ، وهذا من الإسناد المجازي ، لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به بجاز ، ثم قال (أمرآ من عندنا) وفي انتساب قوله (أمرآ) وجهان : (الأول) أنه نصب على الاختصاص ، وذلك لأن الله تعالى بين شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكل منها حكمة ، ثم زاد في بيان شرفها بأن قال أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدننا ، وكما اقتضاه علينا وتدبرنا (والثاني) أنه نصب على الحال وفيه ثلاثة أوجه : (الأول) أن يكون حال من أحد الصمرين (في أزلناه) ، إما من ضمير الفاعل أي (إنما أزلناه) أمرين أمراً أو من ضمير المفعول أي (إنما أزلناه) في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل (والثالث) ماحكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمة الله انه حل قوله (أمرآ) على الحال وذو الحال قوله (كل أمر حكيم) وهو نكرة .

(١) مكذا ذ الأصل والمعرف المشهور التواتر أن اسمه إسماعيل .

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّيَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٢﴾  
 رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ أَنَّ هُمُ الْذِكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ  
 مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْ عَنْهُ وَقَالُوا مُعْلَمٌ مَجْنُونٌ ﴿٥﴾ إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ  
 عَâيُونَ ﴿٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكَبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿٧﴾

ثم قال (إنما كنا مرسلين) يعني إنما فعلنا ذلك الإذار لاجل (إنما كنا مرسلين) يعني الآيات .

ثم قال (رحمة من ربك) أي للرحمة فهي نصب على أن يكون مفعولا له .

ثم قال (إنه هو السميع العليم) يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين ، إنما أن يذكروا بالنتهي حاجاتهم ، وإنما أن لا يذكرواها فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلهم فيعرف حاجاتهم ، وإن لم يذكرواها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه (سميعاً عليها) يقتضي أن ينزل رحمته عليهم ثم قال (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم ومحزنة والكساف بكسر الباء من رب عطفاً على قوله (رحمة من ربك) والباقيون بالرفع عطفاً على قوله (هو السميع العليم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من هذه الآية أن المنزل إذا كان موصفاً بهذه الجلالية والكبرياء كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفائدة في قوله (إن كنتم موقنين) من وجوه (الأول) قال أبو مسلم معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا ، كقولهم فلان منجد متهم أى يريد نجداً وتهامة (الثاني) قال صاحب الكشاف كانوا يقررون بأن السموات والأرض رباً وخالفوا فقيلاً لهم إن إرسال الرسل وإزالة الكتب رحمة من رب سبحانه وتعالى ، ثم قيل إن هذا هو السميع العليم الذي أنتم مقررون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم ويقين ، كما تقول هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكتبه إن بلغك حديثه وسمعت قصته ، ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله (بل هم في شك يلمعون) وأن إقرارهم غير صادر عن علم وبهين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزم ولعب والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ غَارْتَهْبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّيَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ، يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابُ الْيَمِّ ، رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ، أَنَّ هُمُ الْذِكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْ عَنْهُ وَقَالُوا مُعْلَمٌ مَجْنُونٌ ، إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ حَايُونَ ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكَبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

اعلم أن المراد بقوله ( فارتقب ) انتظر ويقال ذلك في المكروه ، والمعنى انتظر يا محمد عذابهم بعذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله ( هذا عذاب أليم ) ويجوز أيضاً أن يكون ( يوم تأتي النساء ) مفعول الارتقاب و قوله ( بدخان ) فيه قولان .

( الأول ) أن النبي ﷺ دعا على قومه بهمة لما كذبواه فقال « اللهم اجعل سنיהם كسفي يوسف » فارتقى المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشاً شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف ، فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين النساء كالدخان ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات ومقابل ومجاهد اختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظللة في أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخاناً ، فالحاصل أن هذا الدخان هو الظللة التي في أبصارهم من شدة الجوع ، وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان بهذه الحالة وجوهين ( الأول ) أن في سنة القحط يعظم بيس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكبير ويظلم الماء ، وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الفبراء ( الثاني ) أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقول كان يتنا أمر ارتفع له دخان ، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كالملوءة من الدخان .

( والقول الثاني ) في الدخان أنه دخان يظهر في العالم وهو إحدى علامات القيمة ، قالوا فإذا حصلت هذه الحالة حصل لأهل الإيمان منه حالة تشبّه الزكام ، وحصل لأهل الكفر حالة يصير لأجلها رأسه كرأس الخنزير ، وهذا القول هو المنقول عن علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجهه ( الأول ) أن قوله ( يوم تأتي النساء بدخان ) يقتضي وجود دخان تأتي به النساء وما ذكر تموه من الظللة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أنت به النساء . فكان حل لفظ الآية على هذا الوجه عدولًا عن الظاهر لا للدليل منفصل ، وإنه لا يجوز ( الثاني ) أنه وصف ذلك الدخان بكونه مينا ، والحقيقة التي ذكرت تموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرّض بعض الناس في أدمعتهم ، ومثل هذا لا يوصف بكونها دخاناً ميناً ( الثالث ) أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس ، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم والحال التي ذكرت تموها لا توصّف بأنها تغشى الناس إلا على سبيل المجاز وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا للدليل منفصل ( الرابع ) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول الآيات الدخان وزرول عيسى ابن مريم عليهمما السلام ونار نخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر ، قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلار رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال دخان يملأ ما بين المشرق والمغارب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصييه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودببه » رواه

صاحب الكشاف ، وروى الفاضل عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «بَا كَرُوا بِالْأَعْسَالِ سَتًا ، وَذَكَرَ مِنْهَا طَلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدِّجَالُ وَالدُّخَانُ وَالدَّآبَةُ » ، أما القائلون بالقول الأول ، فلاشك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ، وذلك لايمحوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته يمتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جداً ، فإن قالوا الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (ربنا أكشف عنا العذاب إننا وَمِنُون) وهذا إذا حلناه على القحط الذي وقع عَكَ استقام فإنه نقل أن القحط لما اشتد عَكَ مثى إليه أبو سفيان وناشهه بالله والرحم ووعده أنه إن دعا لهم وأذال الله عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حلناه على أن المراد منه ظهور علامات القيمة لم يصح ذلك ، لأن عند ظهور علامات القيمة لا يسكنهم أن يقولوا (ربنا أكشف عنا العذاب إننا وَمِنُون) ولم يصح أيضاً أن يقال لم (إننا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عاذرون) (والجواب) لم لايمحوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريًّا بجرى ظهور سائر علامات القيمة في أنه لا بوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ، ثم إن الناس يخالفون جداً فيتضرون ، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذا كان هذا محتملاً فقد سقط ما قالوه والله أعلم .

ولنرجع إلى التفسير فنقول قوله تعالى (يُوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مِّنْ) أي ظاهر الحال لا يشك أحد في أنه دخان ينشي الناس أي يشملهم وهو في محل الجر صفة لقوله (بدخان) وفي قوله (هذا عذاب أليم) قوله (الأول) أنه منصوب المحمل بفعل مضمر وهو (يقولون) ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك (الثاني) قال الجرجاني صاحب النظم هذا إشارة إليه وإخبار عن دنوه واقترابه كما يقال لهذا العدو فاستقبله والفرض منه التنبية على القرب .

نعم قال (ربنا أكشف عنا العذاب) فإن غلنا التقدير يقولون (هذا عذاب أليم ربنا أكشف عنا العذاب) فالمفه ظاهر وإن لم يضرم القول هناك أصررتاه هنا والعذاب على القول الأول هو القحط الشديد ، وعلى القول الثاني الدخان المهلك (إننا وَمِنُون) أي بمحمد وبالقرآن ، والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

قوله تعالى : **﴿أَنِّي لَمْ ذَكَرِي﴾** يعني كيف يتذكرون وكيف يتعاظرون بهذه الحالة وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبيانات الباهرة (نم تولوا عنه) ولم يلتقطوا إليه (وقالوا ملِمْ بِجَنَّونَ) وذلك لأن كفار عَكَ كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قوله (إنما يعلم بشر لسان الذي يلحدون إليه أجمعين) وكقوله تعالى الكلمات من بعض الناس لقوله (إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أجمعين) وكقوله تعالى

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنَّ أَدْوَى إِلَيْهِ عِبَادَ اللَّهِ إِذِنٍ  
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ وَأَنَّ لَا تَعْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ إِذِنٍ ۝ إِنَّمَا تَرِكُمُ بُشْرَىٰ مُبِينٍ ۝ وَإِنِّي  
عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُوْنَ ۝ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ وَأَنَّ  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۝ فَأَسْرِي بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ۝ وَأَنْزِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا

( وأعاذه عليه قوم آخرون ) ومنهم من كان يقول إنه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى .

ثم قال تعالى ( إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عاذرون ) أى كما يكشف العذاب عنكم تعودون في الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك ، والمقصود النفيه على أنهم لا يوفون بهم وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال المخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لما هبوا الألاف . ثم قال تعالى ( يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقون ) قال صاحب الكشاف : وقرىء بـ نبطش بضم الطاء ، وفرا الحسن نبطش بضم الدون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يطشووا بهم وبالبطش الآخذ بشدة ، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام المتتابعة ، وفي المراد بهذا اليوم قوله :

( القول الأول ) أنه يوم بدر وهو قوله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبي العالية رضي الله تعالى عنهم ، قالوا إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم الفحش والمحوع عادوا إلى التكذيب فاتقهم الله منهم يوم بدر .

( والقول الثاني ) أنه يوم القيمة روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنه قال قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول هي يوم القيمة ، وهذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيمة لقوله تعالى ( اليوم تجزو كل نفس بما كسبت ) ولأن هذه البطشة لما وصفت بكلها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك ليس إلا في القيمة ولحفظ الانتقام في حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياة والتعجب ، والمعنى معلوم والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ، أَنَّ أَدْوَى إِلَيْهِ عِبَادَ اللَّهِ إِذِنٍ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وَأَنَّ لَا تَعْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ إِذِنٍ ۝ إِنَّمَا تَرِكُمُ بُشْرَىٰ مُبِينٍ ۝ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُوْنَ ۝ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ وَأَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۝ فَأَسْرِي بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ۝ وَأَنْزِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا

لَنْهُمْ بِجُندٍ مَغْرُقُونَ ﴿٢٧﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعِيُونٍ ﴿٢٨﴾ وَزَرْوَعٍ وَمَقَامٍ  
 كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٣٠﴾ كَذَلِكَ وَأَرْثَنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾  
 فَابْكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٣٢﴾

إنكم متبعون ، وازنك البحر رهوأ إنهم جند مغرقون ، كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأرثناها قوما آخرين ، فابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

اعلم أنه تعالى لما بين أن كفار مكة مصرون على كفرهم ، بين أن كثيرا من المقددين أيضا كانوا كذلك ، وبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون ، قال صاحب الكشف قريه ، (ولقد فتنا) بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابنتينا ، وقال الزجاج بلونا ، والمعنى عاملناهم معاملة المخرب يبعث الرسول إليهم (وجاءهم رسول كريم) وهو موسى واختلفوا في معنى الكريم هنا فقال الكلبي كريم على ربه يعني أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام ، وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لأنه قل ما بعث رسول إلا من أشراف قومه وكرامهم .

ثم قال (أن أدوا إلى عباد الله) وفي أن قولان (الأول) أنها أن المفسرة وذلك لأن بجي .  
 الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يحيط بهم إلا بشراً ونذيراً وداعياً إلى الله  
 (الثاني) أنها المخففة من الثقلية ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوات ، وعباد الله مفعول به  
 ومبنوا إسرائيل يقول أدوم إلى وأرسلوه معى وهو كقوله ( فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا  
 تغذبهم ) ويحرز أيضاً أن يكون نداء لهم والتقدير : أدو إلى عباد الله ما هو واجب عليكم من  
 الإيمان ، وقبول دعوق ، واتباع سبيل ، وعلل ذلك بأنه (رسول أبين) تذاقتم الله على وجهه  
 ورسالته وأن لا تملوا أن هذه مثل الأول في وجهها أى لا تكروا على الله ياهانة وحشه ورسوله  
 (إف آتكم بسلطان مبين) بحججه بينة يمترف بصحتها كل عاقل ( وإن عذت بربى وربكم أن ترجون )  
 قيل المراد أن تقتلون وقيل (أن ترجون ) بالقول فتفولوا ساحر كذاب ( وإن لم تؤمنوا إلى ) أى  
 إن لم تصدقون ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتم به من الحجة ، فاللام في لام الأجل (فاعزلون )  
 أى اخلوا سبيل لا لى ولا على .

قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى : إن المعتزلة يتصلفون ويقولون إن لفظ الاعتزال أينما

جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لاعن الحق ، فاتفق حضورى في بعض المخالف ، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية ، وقلت المراد الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لاشك أنه اعززال عن الحق فانقطع الرجل .

ثم قال تعالى ( فَدُعَا رَبِّهِ ) الفاء في دعاء تدل على أنه متصل بمحدث قبله التأويل أنهم كفروا ولم يؤمنوا دعوة موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون ، فإن قالوا الكفر أعظم حال من الجرم ، فما السبب في أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمون حال مأراد المبالغة في ذمهم ؟ قلت لأن الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون مجرماً في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون أخس الناس ، قال صاحب الكشاف قري . إن هؤلاء بالكسر على إضمار القول أي دعوة ربه فقال ( إن هؤلاء قوم مجرمون ) .

ثم قال ( فأَبْسِرْ بِعِبَادِي لِيَلَا ) فرأى ابن كثير ونافع ( فأسر ) موصولة الآلف والباقيون مقطوعة الآلف سرى وأسرى لغتان أي أوحينا إلى موسى أن أسر عبادى ليلا إنكم متبعون ، أي يتبعكم فرعون وقومه ذلك سبباً هلاكاً لهم ( وزرك البحر رهو ) وفي الرهوة قرلان ( أحدهما ) أنه الساكن يقال عيش راه إذا كان خافضاً وادعاً ، وافعل ذلك سهراً رهو أي ساكنًا بغير تشدد ، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضر به بعصاه فينطبق كما كان فاصره الله تعالى بأن يتركه ساكنًا على هيئته قارأ على حاله في انفلات الماء وبقاء الطريق ييسأ حتى تدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبهه الله عليهم ( والثاني ) أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، والمعنى ذا رهو أي ذا فرجة يعني الطريق الذي أظهره الله فيما بين البحر أنهم جند مغرقون ، يعني ازرك الطريق كما كان يدخلوا في فرقوا ، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرم وإذاته .

قوله تعالى : ﴿ كُمْ تَرْكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ وَزَرْوَعٍ وَمَقَامَ كَرِيمٍ ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم ، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام ، وبين تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الحسنة ، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة ، وقيل المنابر التي كانوا يمدون فرعون عليها ( ونسمة كاوا فيها فاكرين ) قال علماء اللغة نسمة العيش ، بفتح النون حسنة ونضارته ، ونسمة الله إحسانه وعطاؤه ، قال صاحب الكشاف النسمة بالفتح من التعم وبالكسر من الإنعام ، وقرى . فاكرين وفكرين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج آخر جنام منها وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير أن الأمر ( كذلك وأورثناها فاما آخرين ) ليسوا منهم فشيء من قرابة ولا دين ولا ولاه ، وم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم فأهللوكهم الله على أيديهم وأورثهم ملوكهم وديارهم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّيَّاهَ وَالْأَرْضَ ﴾ وفيه وجوه : ( الأول ) قال الواحدى في البسيط ، روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مامن عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله ، فإذا مات فقداه وبكيانا عليه » وتلا هذه الآية ، قال وذلك

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٦) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسَرِّفِينَ (٣٧) وَلَقَدْ أَخْرَنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٨) وَإِنَّنَاهُم مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَّوْا مِبْيَنٌ (٣٩) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٤٠) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَئِنَّ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشِرِينَ (٤١) فَأَتُوا بِعَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٢) أُهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبْغِيْهُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَافُرُوا جُحْرِمِينَ (٤٣) وَمَا خَلَقْنَا

لَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنُوا يَعْمَلُونَ عَلَى الْأَرْضِ عَمَلاً صَالِحًا فَتَبَكُّ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَصُدْهُمْ إِلَى السَّيِّءَاتِ كَلَامٌ طَيْبٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ فَتَبَكُّ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا قَوْلٌ أَكْثَرُ الْمُفْسِرِينَ .

(القول الثاني) التقدير : فَابَكَتْ عَلَيْهِمْ أَهْلَ السَّيِّءَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ ، فَخَنَفَ الْمَضَافُ وَالْمَعْنَى مَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ وَلَا الْمُؤْمِنُونَ ، بَلْ كَانُوا بِهِلَاكِهِمْ مَسْرُورِينَ .

(والقول الثالث) أَنْ عَادَةَ النَّاسِ جَرَتْ بِأَنْ يَقُولُوا فِي هَلَّكَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ الشَّانُ : إِنَّهُ اظْلَمَ لِهِ الدِّينَ ، وَكَسَفَتِ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ لِأَجْلِهِ . وَبَكَتِ الرِّيحُ وَالسَّيِّءَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَيَرِيدُونَ الْمُبَالَغَةَ فِي تَهْزِيمِ تَلْكَ الْمَصِيرَةِ لَا نَفْسٌ هُدِيَّ هَذَا الْكَذْبَ . وَنَقْلُ صاحِبِ الْكَشَافِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مَاتَ فِي غَرْبَةٍ غَابَتْ فِيهَا بُوَا كِيْهِ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّيِّءَاتُ وَالْأَرْضُ » .

وقال جرير :

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَ بِكَاسِفَةٍ      تَبَكُّ عَلَيْكَ نَجُومُ الظَّلَلِ وَالقَمَرِ  
وَفِيهِ مَا يُشَبِّهُ السُّخْرِيَّةَ بِهِمْ يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَمْظِمُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَوْ مَاتُوا لَبَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّيِّءَاتُ وَالْأَرْضُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي هَذَا الْحَدَّ ، بَلْ كَانُوا دُونَ ذَلِكَ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَذَكُّرُ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكِمِ .

ثُمَّ قَالَ (وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) أَيْ لَا جَاءَ وَقْتٌ مَلَائِكَهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى وَقْتٍ آخَرَ لِتَوْبَةِ وَتَدَارُكِ وَنَقْصِيرِ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، من فرعون إنْهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسَرِّفِينَ ، وَلَقَدْ أَخْرَنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَّا مِبْيَنٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَئِنَّ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشِرِينَ ، فَأَتُوا بِعَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أُهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبْغِيْهُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا جُحْرِمِينَ ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَنْهَا

**السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿١٧﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا يَالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ**

**لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾**

لا عبین ، ماختقناهم إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ) .

اعلم أنه تعالى لما بين كافية إهلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه .  
واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى بيان دفع الضرر عنهم فقال ( ولقد نجينا  
بني إسرائيل من العذاب المبين ) يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والإيذاء في الأعمال الشاقة .

ثم قال (من فرعون) وفيه وجهان : (الأول) أن يكون التقدير من العذاب المبين الصادر  
من فرعون (الثاني) أن يكون فرعون بدلاً من العذاب المبين كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه  
في تعذيبهم وإهانتهم . قال صاحب الكشاف وقرىء (من عذاب المبين) وعلى هذه القراءة (فالمبين)  
هو فرعون لأنـه كان عظيم السعي في إهانة المحقين . وفي قراءة ابن عباس (من فرعون) وهو يمعن  
الاستفهام وقوله (إنه كان عالياً من المسرفين) جوابـهـ كـانـ التـقـدـيرـ أـنـ يـقـالـ هـلـ تـعـرـفـونـهـ مـنـ هـوـ  
فـعـتـوهـ وـشـيـطـتـهـ ؟ تمـ عـرـفـ حـالـهـ بـقـوـلـهـ (إـنـ كـانـ عـالـيـاـ مـنـ الـمـسـرـفـينـ) أـيـ كـانـ عـالـيـاـ الـدـرـجـةـ فـ طـبـقـةـ  
الـمـسـرـفـينـ ، وـيـحـوـزـ أـنـ يـكـوـنـ الـمـرـادـ (إـنـ كـانـ عـالـيـاـ) لـقـوـلـهـ (إـنـ فـرـعـوـنـ عـلـاـ فـيـ الـأـرـضـ) وـكـانـ  
أـيـضاـ مـسـرـفـاـ وـمـنـ إـسـرـافـهـ أـنـ هـلـ حـقـارـتـهـ وـخـسـتـهـ اـدـعـيـ الإـلـهـيـةـ . وـلـمـ بـيـنـ اللهـ تـعـالـيـ أـنـ كـيفـ دـفـعـ  
الـضـرـرـ عـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ وـبـيـنـ أـنـ كـيفـ أـوـصـلـ إـلـيـهـمـ الـحـيـرـاتـ فـقـالـ (ولـقـدـ اـخـتـرـنـاهـمـ عـلـىـ عـلـمـ عـلـىـ  
الـعـالـمـيـنـ) وـفـيـ بـحـثـانـ :

(البحث الأول) أن قوله على علم في موضع الحال ثم فيه وجهان : (أحدـهاـ) أـيـ عـالـمـيـنـ  
بـكـوـنـهـ مـسـتـحـيـنـ لـأـنـ يـخـتـارـوـاـ وـيـرـجـحـوـاـ عـلـىـ غـيرـهـ (والـثـانـيـ) أـنـ يـكـوـنـ الـمـعـنىـ معـ عـلـمـنـاـ بـأـنـهـ  
قـدـ يـزـيـغـونـ وـيـصـدـرـ عـنـهـمـ الـفـرـطـاتـ فـبـعـضـ الـأـحـوـالـ .

(البحث الثاني) ظاهر قوله (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) يقتضي كونهم أفضل  
من كل العالمين قليل المراد على عالي زمامـهمـ ، وـقـيلـ هـذـاـ عـامـ دـخـلـهـ التـخـصـيـصـ كـقـوـلـهـ (كـنـتـ خـيـرـ  
أـمـةـ أـخـرـجـتـ لـلـنـاسـ) .

قوله تعالى : (وـآتـيـنـاهـمـ مـنـ الـآـيـاتـ) مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ،  
وـغـيرـهـ (مـنـ الـآـيـاتـ) الـقـاـهـرـةـ التـىـ مـاـ أـظـهـرـ اللـهـ مـشـهـداـ عـلـىـ أـحـدـ سـوـاـهـ (بـلـمـ بـيـنـ) أـيـ نـعـمةـ ظـاهـرـةـ ،  
لـأـنـهـ تـعـالـيـ لـمـ سـاـكـانـ يـبـلـوـ بـالـمـخـنـةـ قـدـ يـبـلـوـ أـيـضاـ بـالـنـعـمـةـ اـخـتـيـارـاـ ظـاهـرـاـ ليـتـمـيـزـ الصـدـيقـ عنـ الزـنـدـيقـ ،  
وـهـنـاـ آـخـرـ الـكـلـامـ فـقـصـةـ مـوـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ ثـمـ رـجـعـ إـلـىـ ذـكـرـ كـفـارـ مـكـةـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ الـكـلـامـ  
فـيـهـ حـيـثـ قـالـ (بـلـ هـمـ فـيـ شـكـ يـلـعـبـونـ) أـيـ بـلـ هـمـ فـهـ شـكـ مـنـ الـبـحـثـ وـالـقـيـامـةـ ، ثـمـ بـيـنـ كـيـفـيـةـ

إصرارهم على كفرهم ، ثم بين أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة ، ثم بين أنه كيف أهلتهم وكيف أنم على بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو كون كفار مكة منكرين للبعث ، فقال (إن هؤلاء ليقولون ، إن هي إلا موتنا الأولى وما نحن بمنشرين) فإن قيل القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا : إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ فلنا إنه قيل لهم إنكم تموتون موته تعقبها حياة ، كما أنكم حال كونكم نظماً كنتم أمواتاً وقد تعقبها حياة ، وذلك قوله (وكنتم أمواتاً فاحياً كم ثم يحييكم ثم يحييكم ، فقالوا إن هي إلا موتنا الأولى) يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعييب الحياة لها إلا الموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذاً بين هذا الكلام وبين قوله (إن هي إلا موتنا الأولى) هذا ما ذكره صاحب الكشاف ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر ، فيقال قوله (إن هي إلا موتنا الأولى) يعني أنه لا يأتينا شيء من الأحوال إلا الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتهم الحياة الثانية البتة ، ثم صرحوا بهذا المرمز فقالوا (وما نحن بمنشرين) فلا حاجة إلى التكافف الذي ذكره صاحب الكشاف .

ثم قال تعالى (وما نحن بمنشرين) يقال نشر الله الموى وأنشئوا إذا بهم ، ثم إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا : إن كان البعث والنشور مكناً معقولاً فجعلوا النأحياء من مات من آبائنا بأن تسأوا ربكم ذلك ، حتى يصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في النبوة والبعث في القيمة ، قيل طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعوه الله حتى ينشر قصى بن كلاب ليشاوروه في صحة نبرة محمد ﷺ وفي صحة البعث ، ولما حَكَ الله عنهم ذلك قال (أم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهل كنام إنهم كانوا مجرمين) والمعنى أن كفراً مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنهم أصرروا على الجهل والتقليل في ذلك الإنكار ، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد ، فقال إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ، ثم إن الله تعالى أهلتهم فـ كذلك يـ هؤلاء ، ف قوله تعالى (أم خير أم قوم تبع) استفهام على سبيل الإنكار ، قال أبو عبيدة : ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعاً لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه ، ومرضى تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام وهم الأعظم من ملوك العرب قالت عائشة ، كان تبع رجلاً صالحًا ، وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمه ، قال الكلبي هو أبو كرب أسد ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا تبعاً ، فإنه كان قد أسلم ما أدرى أكان تبع نبياً أو غير نبي » فإن قيل ما معنى قوله (أم خير أم قوم تبع) مع أنه لا خير في الفريقين ؟ فلنا معناه أم خير في القوة والشوكه ، كقوله (أكفاركم خير من أولئكم) بعد ذكر آل فرعون ، ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على القول بالبعث والقيمة ، فقال (وما خلقنا السموات والأرض وما ينهم لاعبين)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ شَيْءٍ وَلَا  
هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ إِنَّ شَجَرَةَ  
الْرَّقْمِ ﴿٤﴾ طَعَامُ الْأَثْيَمِ ﴿٥﴾ كَالْمُهَلِّ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٦﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ  
﴿٧﴾ خُدُودُهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ ثُمَّ صُبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ  
الْحَمِيمِ ﴿٩﴾ ذُقُّ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٠﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ



ولو لم يحصل بذلك لكان هذا الخلق لعنةً علينا ، وقد مر تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء في أول سورة يونس ، وفي آخر سورة (قد أفلح المؤمنون) حيث قال (أحسبتم أنما خلقناكم عبنا) وفي سورة ص حيث قال (وما خلقنا السماء والأرض وما ينهمما باطلًا) .

ثم قال (ما خلقناهم إلا بالحق ولكن أكثراً لا يعلمون) والمراد أهل مكة ، وأما استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما فهو مع جوابه معلوم ، والله أعلم . قوله تعالى : ﴿١﴾ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا م ينصرون ، ﴿٢﴾ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ، إن شجرة الرقم ، طعام الأثيم ، كالمهلك يغلي في البطون ، كغلي الحميم ، خدوره فاعتلوه إلى سواه الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تتركون ﴿٣﴾ .

اعلم أن المقصود من قوله (وما خلقنا السموات والأرض وما ينهمما لاعبين) إثبات القول بالبعث والقيمة ، فلا جرم ذكر حقيقة قوله (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وفي تسمية يوم القيمة يوم الفصل وجوه (الأول) قال الحسن : يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار (الثاني) يفصل في الحكم والقضاء بين عباده (الثالث) أنه في حق المؤمنين يوم الفصل ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يكرهه ، وفي حق الكفار ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يريد له (الرابع) أنه يظهر حال كل أحد كما هو ، فلا يبقى في حالة ريبة ولا شبهة ، فتفصل الحالات والشبهات ، وتتحقق الحقائق والبيانات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى أن يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعين البر والفااجر ، ثم وصف ذلك اليوم فقال (يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً) يريد قریب

عن قريب (ولام ينصرفون) أى ليس لهم ناصر ، والمعنى أن الذى يتوقع منه النصرة إما القريب فى الدين أو فى النسب أو المعتق ، وكل هؤلاء يسمون بالمولى ، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل من سواهم أولى ، وهذه الآية شبهة بقوله تعالى (وأنقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) إلى قوله (ولام ينصرفون) قال الواحدى : والمراد بقوله (مولى عن مولى) الكفار إلا ترى أنه ذكر المؤمن فقال (إلا من رحم الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة .

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيمة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقيبة وعبد الكفار ، ثم بعده وعد الإبراز ، أما وعد الكفار فهو قوله (إن شجرة الزقوم طعام الأئم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : قرئ . (إن شجرة الزقوم) بكسر الشين ، ثم قال وفيها ثلاث لغات : شجرة بفتح الشين وكسرها ، وشيرة بالياء ، وشبرة بالياء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ البحث عن اشتراق لفظ (الزقوم) قد تقدم في سورة والصفات ، فلا فائدة في الإعادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة : الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للأئم ، والأئم هو الذى صدر عنه الإمام ، فيكون هذا الوعيد حاصلاً لل Francois (والجراب) أنا بينما في أصول الفقه أن اللفظ المفرد الذى دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق ، ولا ينفي العموم ، وهو هنا المذكور السابق هو الكافر ، فينصرف إليه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مذهب أبي حنيفة : أن قرامة القرآن بالمعنى جائز ، واحتج عليه بأنه نقل أن ابن مسعود كان يقرئه رجلاً هذه الآية فكان يقول : طعام اللئيم ، فقال قلن طعام الفاجر ، وهذا الدليل في غاية الضعف على ما يبينه في أصول الفقه .

ثم قال (كامل) قرئ . بضم الميم وفتحها وسبق تفسيره في سورة الكهف ، وقد شبه الله تعالى هذا الطعام بالمهل ، وهو دردي الزيت وعكر القطران ومناب النحاس وسائر الفلزات ، وتم الكلام هنا ، ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال (يغل في البطنون) وقرئ بالثاء فمن قرأ بالثاء فلتأنيث الشجرة ، ومن قرأ بالباء حمله على الطعام في قوله (طعام الأئم) لأن الطعام هو [غم] الشجرة في المعنى ، واختار أبو عبيد الباء لأن الإسم المذكور يعني المهل هو الذى بل الفعل فصار التذكير به أولى ، وأعلم أنه لا يجوز أن يحمل الغل على المهل لأن المهل مشبه به ، وإنما يغلى ما يشبه بالمهل كغلى الحريم والماء إذا اشتد غليانه فهو حريم .

ثم قال (خنوه) أى خذوا الأئم (فاعتلوه) قرئ بكسر الثاء ، قال الليث : التل أن تأخذ بمشكك الرجل فتعتله أى تحرره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ، وأخذ فلان بزمام الناقة يعتلها

إِنَّ الْمُتَقِّنَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ ﴿٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ  
وَإِسْتَبْرَقٌ مُتَقَبِّلِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوْجُهُمْ بُحُورٌ عَيْنٌ ﴿٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا  
بِكُلِّ فَكِهَةٍ أَمِينَ ﴿٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ وَقَنْهُمْ  
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦﴾ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧﴾ فَإِنَّمَا يَسِّرَنَا  
بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾ فَارْتَقِبْ لِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٩﴾

وذلك إذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قوداً عنيفاً ، وقال ابن السكري عتلته إلى السجن وأعتله إذا دفعته دفناً عنيفاً ، هذا قول جميع أهل اللغة في العتل ، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرها وهم صحبيحان مثل يعكفون ويغفرون ، ويعرضون ويعرضون .

قوله تعالى (إلى سوء الجحيم) أى إلى وسط الجحيم (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) وكان الأصل أن يقال : ثم صبوا من فوق رأسه الحميم أو يصب من فوق رؤوسهم الحميم إلا أن هذه الاستعارة أكمل في المبالغة كأنه يقول : صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ، ونظيره قوله تعالى (ربنا أفرغ علينا صبراً) و(دق إنك أنت العزيز الكريم) وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أنه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء ، والمراد إنك أنت بالضد منه (والثاني) أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم من فوا الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً (والثالث) أنك كنت تتعز لا بالله فانتظر ما وقعت فيه ، وقرئي . أنك يعني لا نك . ثم قال (إن هذا ما كنتم به تهترون) أى أن هذا العذاب ما كنتم به تهترون أى تشكون ، والمراد منه ما ذكره في أول السورة حيث قال (بل هم في شك يلعبون) .

قوله تعالى : ﴿١﴾ إِنَّ الْمُتَقِّنَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٌ  
متقابلين ، كذلك زوجنام بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا  
الموتة الأولى وقامهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ، فإنما يسرناه بلسانك  
لعلهم يتذكرون ، فارتقب لهم مرتقبون ﴿٩﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعد في هذه الآيات فقال (إن المتقين)  
قال أصحابنا كل من اتق الشرك فقد صدق عليه اسم المتق فوجب أن يدخل الفاسق في هذا الوعد .  
واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعدم أربعة أشياء (أولها) ساكنهم فقال (في مقام أبين)

واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين (أحدهما) أن يكون آمناً عن جميع ما يختلف ويختلط  
وهو المراد من قوله (في مقام أمين) فرأى الجهور في مقام بفتح الميم ، وقرأ نافع وابن عامر بضم  
الميم ، قال صاحب الكشاف المقام بفتح الميم هو موضع القيام ، والمراد المكان وهو من الخاص  
الذى جعل مستعملاً في المعنى العام وبالضم هو موضع الإقامة ، والأمين من قوله أمن الرجل  
أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه  
(والشرط الثاني) لطيب المكان أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهي الجنات والعيون ، فلما  
ذكر تعالى هذين الشرطين في مساكن أهل الجنة فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة .

(والقسم الثاني) من تعميمهم الملبوسات فقال (يلبسون من سندس • استراق) قيل السندس  
مارق من الدجاج ، والإسترق ماغلظ منه ، وهو تعريب استبرك ، فإن قالوا كيف جاز ورود  
الأجنبى في القرآن ؟ فلنا لما عرب فقد صار عربياً .

(والقسم الثالث) فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه امتناع البعض بالبعض ،  
فإن قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلقاً على ما يفعله الآخر ،  
وأيضاً فالذى يقول ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنهى عيشه ، فلنا أحوال الآخرة  
بخلاف أحوال الدنيا .

(والقسم الرابع) أزواجهم فقال (كذلك وزوجنام بحور عين) السكاف فيه وجهان أن  
تكون مرفوعة والتقدير الأمر كذلك أو منصوبة والتقدير آتنياً مثل ذلك ، قال أبو عبيدة :  
جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل أى جعلناهم اثنين ، واختلفوا في أن هذا اللفظ هل  
يدل على حصول عقد التزويج أم لا ؟ ، قال يونس قوله (وزوجنام بحور عين) أى قرنام بين  
فليس من عقد التزويج ، والعرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها ، قال الواحدى رحمة  
الله والتزميل يدل على ما قال يونس وذلك قوله (فليا قضى زيد منها طرآً زوجنا كها) ولو كان  
المراد تزوجت بها زوجناك بها وأيضاً قول القائل زوجته به معناه أنه كان فرداً فزوجته بأخر  
كما يقال شفعته بأخر ، وأما الحور ، فقال الواحدى أصل الحور البياض والتحول البييض ، وقد  
ذكرنا بذلك في تفسير الحواريين ، وعين حوراء إذا اشتد بياضها واشتد سواد سوادها ، ولا  
تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينها بياضاً في لون الجسد . والدليل على أن المراد بالحور  
في هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعين عين والعيس البيض ، وأما العين فجمع عيناً وهي  
التي تكون عظيمة العينين من النساء ، فقال الجبائى رجل أعين إذا كان ضخم العين واسعها والأنثى  
عينها والجمع عين ، ثم اختلفوا في هؤلاء الحور العين ، فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله  
خلفاً آخر ، وقال أبو هريرة إنهن ليسوا من نساء الدنيا .

(والنوع الخامس) من تنعمات أهل الجنة المأكولة فقال (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين)

قالوا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ جَمِيعَ أَنواعِ الْفَاكِهَةِ لِأَجْلِ أَهْمَمِ آمْنَوْنَ مِنَ النَّحْمِ وَالْأَمْرَاضِ .  
وَلَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْوَاعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَيَّاتِ وَالرَّاحَاتِ ، بَينَ أَنْ حَيَّاتِهِمْ دَائِمَةٌ ، قَالَ  
(لَا يَذْوَقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى) وَفِيهِ سُؤَالٌ :

**(السؤال الأول)** أَنْهُمْ مَا ذَافُرُوا الْمَوْتَ الْأُولَى فِي الْجَنَّةِ فَكَيْفَ حِمْنَهَا الْإِسْتِئْنَاءُ ؟ وَأَجِيب  
عَنْهُ مِنْ وَجْهِهِ (الْأُولَى) قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ أَرِيدُ أَنْ يَقُولَ : لَا يَذْوَقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ الْبَيْتَ فَوْضَعَ  
قَوْلَهُ (إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى) مَوْضِعَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَوْتَ الْمَاضِيَّ مَحَالٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ  
بِالْمَحَالِ ، كَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ كَانَتِ الْمَوْتَ الْأُولَى يُمْكِنُ ذُوقُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَإِنْهُمْ يَذْوَقُونَهَا (الثَّالِثُ ) أَنَّ إِلَّا  
يَعْنِي لِكُنْ وَالتَّقْدِيرُ لَا يَذْوَقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ لَكِنَّ الْمَوْتَ الْأُولَى قَدْ ذَاقُوهَا (وَالثَّالِثُ ) أَنَّ الْجَنَّةَ  
حَقِيقَتُهَا ابْنَاجُ النَّفْسِ وَفِيهَا بِعْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبِطَاعَتُهُ وَمُحِبَّتُهُ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ  
الَّذِي فَازَ بِهَذِهِ السُّعَادَةِ فَهُوَ فِي الدُّنْيَا فِي الْجَنَّةِ وَفِي الْآخِرَةِ أَيْضًا فِي الْجَنَّةِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ  
فَقَدْ وَقَعَتِ الْمَوْتَ الْأُولَى حِينَ كَانَ الْإِنْسَانُ فِي الْجَنَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي هِيَ جَنَّةُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَالْحَمْدَ ، فَذَكَرَ  
هَذَا الْإِسْتِئْنَاءُ كَالْتَبَيِّهِ عَلَى قَوْلِنَا إِنَّ الْجَنَّةَ الْحَقِيقَةَ هِيَ حَصُولُ هَذِهِ الْحَالَةِ لَا الْدَارُ الَّتِي هِيَ دَارُ الْأَكْلِ  
وَالشَّرِبِ ، وَلِهَذَا السَّبِبِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « أَنَّيَّا مَاهِنَ اللَّهُ لَا يَمْوِتونَ وَلَكِنْ يَنْقُلوْنَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ »  
(وَالرَّابِعُ ) أَنْ مِنْ جُرْبِ شَيْئًا وَوَقَفَ عَلَيْهِ صَحٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ ذَاكِهُ ، وَإِذَا صَحَ أَنْ يَسْمَعَ الْعِلْمَ بِالذُّوقِ  
صَحَ أَنْ يَسْمَعَ تَذَكِّرَهُ أَيْضًا بِالذُّوقِ فَقُرْلَهُ (لَا يَذْوَقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَ الْأُولَى) يَعْنِي إِلَّا الذُّوقُ  
الْمَحْاصلُ بِسَبِبِ تَذَكِّرِ الْمَوْتَ الْأُولَى .

**(السؤال الثاني)** أَلِيسَ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَيْضًا لَا يَمْوِتونَ فَلِمْ بَشِّرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِهَذَا مِنْ أَنَّ أَهْلَ  
النَّارِ يَشَارِكُونَهُمْ فِيهِ ؟ (وَالجَوابُ ) أَنَّ الْبَشَارَةَ مَا وَقَعَتْ بِدُوَامِ الْحَيَاةِ بَلْ بِدُوَامِ الْحَيَاةِ مَعَ سَابِقَةِ  
حَصُولِ تَلْكَ الْحَيَّاتِ وَالسَّعَادَاتِ نَظَرُهُ الْفَرْقُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (وَوَقَاهُ عَذَابُ الْجَحِيمِ) قَرِئَ وَوَقَاهُمْ بِالْتَّشْدِيدِ ، فَإِنَّ قَالُوا مَقْتَضِيَ الدَّلِيلِ أَنَّ  
يَكُونُ ذَكْرُ الْوَقَايَةِ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ مُتَقدِّمًا عَلَى ذَكْرِ الْفُوزِ بِالْجَنَّةِ لِأَنَّ الَّذِي وَقَى عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ  
قَدْ يَفْوَزُ وَقَدْ لَا يَفْوَزُ ، فَإِذَا ذَكَرَ بَعْدَهُ أَنَّهُ فَازَ بِالْجَنَّةِ حَصُولُ الْفَائِدَةِ ، أَمَّا الَّذِي فَازَ بِخَيْرَاتِ الْجَنَّةِ فَقَدْ  
تَخْلَصَ عَنْ عَقَابِ اللَّهِ لَا حَالَةَ فَلَمْ يَكُنْ ذَكْرُ الْفُوزِ عَنْ عَذَابِ جَهَنَّمِ بَعْدَ الْفُوزِ بِثَوَابِ الْجَنَّةِ مُفِيدًا ،  
فَلَنَا التَّقْدِيرُ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ وَوَقَاهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ .

ثُمَّ قَالَ (فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ) يَعْنِي كُلَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُتَقَوْنُ مِنَ الْخَلَاصِ عَنِ النَّارِ وَالْفُوزِ بِالْجَنَّةِ  
فَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِغَمْلِ اللَّهِ ، وَاحْتَجَ أَحْبَابُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ التَّوَابُ يَحْصُلُ تَفْضِيلًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى  
لَا بِطَرِيقِ الْاسْتِحْقَاقِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْعِدْ أَفْسَامَ ثَوَابِ الْمُتَقَنِّينَ بَيْنَ أَنَّهَا بِأَسْرِهَا إِنَّمَا حَصُولُهُ عَلَى  
سَيِّلِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ الْقَاضِي أَكْثَرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَحْقَوْهُ  
بِعِلْمِهِمْ فَهُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ لَا هُوَ تَعَالَى تَفْضِيلٌ بِالْتَّكْلِيفِ ، وَغَرْضُهُ مِنْهُ أَنْ يَصِيرُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَزْلَةِ فَهُوَ

كُنْ أَعْطِيَ غَيْرُهُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَى مَلِكِ الْحَسِنَاتِ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي تَلْكُ الْفِضْلَةِ إِنَّهَا مِنْ فَضْلِهِ ، قَلَّا مِنْهُ بَهْبَهْ كُنْ أَنْهَا التَّوَابُ حَقٌّ لَازِمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنَّهُ تَعَالَى لَوْأَخْلَى بِهِ لِصَارَ سَفِيهًّا وَلَخَرَجَ بِهِ عَنِ الْإِلَهِيَّةِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ وَصْفُ مِثْلِ هَذَا الشَّيْءِ بِأَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وَاحْتَاجَ أَحْصَابُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنْ التَّفْضِيلَ أَعْلَى درجةً مِنَ التَّوَابِ الْمُسْتَحْقِقِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُ بِكُونِهِ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ثُمَّ وَصَفَ الْفَضْلَ مِنْ اللَّهِ بِكُونِهِ فَوْزًا عَظِيمًا ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ إِذَا أَعْطَى الْأَجْرَ لِهِ ثُمَّ خَلَعَ عَلَى إِنْسَانٍ آخَرَ فَإِنَّ تَلْكَ الْخَلْمَةَ أَعْلَى حَالًا مِنْ إِعْطَاءِ تَلْكَ الْأَجْرَةِ ، وَلِمَا بَيْنَ أَنَّهُ تَعَالَى الدَّلَالَاتِ وَشَرْحِ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ قَالَ (إِنَّمَا يُسْرِنَا نَاهٍ بِلِسَانِكُمْ لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ) وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الْقُرْآنَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ بِكُونِهِ كِتَابًا مِيَّنًا أَى كَثِيرَ الْبَيَانِ وَالْفَائِدَةِ وَذَكْرِ فِي خَانَمَتِهِ مَا يُؤْكِدُ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمَبِينُ ، الْكَثِيرُ الْفَائِدَةُ إِنَّمَا يُسْرِنَا نَاهٍ بِلِسَانِكُمْ ، أَى إِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَرِيَّاً بِلِغْتِكُمْ ، لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قَالَ الْقاضِي وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ مِنَ الْكُلِّ إِلَيْهِ اِنَّ الْمُعْرِفَةَ وَأَنَّهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَحَدٍ الْكُفْرَ وَأَجَابَ أَحْصَابُنَا أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ (لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ) عَادَ إِلَى أَقْوَامٍ مُخْصُوصَيْنَ فَنَحْنُ نَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ (فَارْتَقِبْ) أَى فَاتَّهَرَ مَا يَحْلِلُ بِهِمْ (إِنَّمَا مُرْتَقِبُونَ) مَا يَحْلِلُ بِكُمْ ، مُتَرْبَصُونَ بِكُمُ الدَّوَافِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ الْمَصْنُفُ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : ثُمَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ السُّورَةِ لِلْلَّيْلِ الثَّلَاثَاءِ فِي نَصْفِ الْلَّيْلِ الثَّانِي عَشْرَ مِنْ ذِي الْحِجَةِ سَنَةِ ثَلَاثَ وَسَمِّيَّةَ ، يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ ، يَا قَدِيمَ الْإِحْسَانِ ، شَهَدَ لَكَ إِشْرَاقُ الْعَرْشِ ، وَضُوءُ الْكَرْسِيِّ ، وَمَعَارِجُ السَّمَاوَاتِ ، وَأَنوارُ التَّوَابَاتِ وَالسَّيَارَاتِ ، عَلَى مَنَابِرِهَا ، التَّوَغْلَةُ فِي الطَّوْأَى الْأَعْلَى ، وَمَعَارِجُهَا الْمَقْدَسَةُ عَنْ غَبَارِ عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ، بَأْنَ الْأَوَّلُ الْحَقُّ الْأَزْلَى ، لَا يَنْاسِبُهُ شَيْءٌ مِنْ عَلَاقَتِ الْعُقُولِ ، وَشَوَّافَتِ الْخَرَاطِرِ ، وَمَنَابِسَاتِ الْمَحَدَّثَاتِ ، فَالْقَمَرُ يَسْبِبُ بِحُوَرَةِ مَقْرَبِ النَّقْصَانِ ، وَالشَّمْسُ بِشَهَادَةِ الْمَعَارِجِ بِتَغْيِيرِهِا ، مَعْرِفَةُ الْحَاجَةِ إِلَى تَدْبِيرِ الرَّحْمَنِ ، وَالْطَّبَاعُونُ مَقْهُورَةٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ ، فَأَقْتَلَ فِي غَيَّبَيَاتِ الْمَعَارِجِ الْعَالِيَّةِ ، وَالْمَتَغَيِّرَاتُ شَاهِدَةٌ بَعْدِ تَغْيِيرِهِ ، وَالْمَتَعَاقِبَاتُ نَاطِقَةٌ بِدَوَامِ سَرْمَدِيَّتِهِ ، وَكُلُّ مَا نُوَجَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُضِيٌّ وَسَيَّافٌ فَهُوَ خَالِقُهُ وَأَعْلَى مِنْهُ ، فَبِجُودِهِ الْوَجُودُ وَإِبْحَادُهُ ، وَيَأْعُدُهُمُ الْفَنَاءُ وَالْفَسَادُ ، وَكُلُّ مَا سُواهُ فَهُوَ تَأْنِيَهُ فِي جَبَرُوتِهِ ، تَأْنِيَهُ عَنْدَ طَلَوعِ نُورِ مَلْكُوتِهِ ، وَلَيْسَ عَنْدَ عُقُولِ الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّهُ يُخْلَفُ كُلَّ الْخَلْقِ ، لَهُ الْعَزُّ وَالْجَلَالُ ، وَالْقُدْرَةُ وَالْكَمالُ ، وَالْجُبُودُ وَالْأَفْضَالُ ، وَبِنَا وَرَبِّ مَبَادِيَّنَا إِبِيَّكَ زَرْوَمُ ، وَلَكَ نَصْلٌ وَنَصْوَمُ ، وَعَلَيْكَ الْمَوْلُ ، وَأَنْتَ الْمَبِداُ الْأَوَّلُ ، سَبْحَانَكَ سَبْحَانَكَ .

(٤٥) سُورَةُ الْجَاثِيَّةِ حَكِيمٌ  
وَإِنَّمَا نَسِّبُعُ وَثَلَاثَتَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ لَا يَنْتِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُ مِنْ دَآبَةٍ إِنَّا يَنْتَ لِقَوْمٍ  
يُوقِنُونَ وَأَخْتِلَفُ الَّيلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ إِنَّا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ إِنَّا يَنْتَ اللَّهُ  
تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ يَا لَحْقِي فَإِنِّي حَدَّيْتُ بَعْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا يُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمٌ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَنْتِي لِلْمُؤْمِنِينَ ،  
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُ مِنْ دَآبَةٍ إِنَّا يَنْتَ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، وَأَخْتِلَفُ الَّيلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ  
مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ إِنَّا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، تِلْكَ إِنَّا يَنْتَ اللَّهُ تَنْتَلُوهَا  
عَلَيْكَ يَا لَحْقِي فَإِنِّي حَدَّيْتُ بَعْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَفِيهِ مَسَائِلٌ :

﴿ المَسَالَةُ الْأُولَى ۝ أَعْلَمُ أَنْ قَوْلَهُ ( حَمٌ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ) وَجُوَهًا ( الْأُولَى ) أَنْ يَكُونُ ( حَمٌ )  
مُبِتدًا ( وَتَنْزِيلُ الْكِتَابِ ) خَبْرَهُ وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَلَا بدَ مِنْ حَذْفِ مَضَافِ ، وَالتَّقْدِيرُ تَنْزِيلُ حَمٌ ،  
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ، وَ ( مِنَ اللَّهِ ) صَلَةُ التَّنْزِيلِ ( الثَّانِي ) أَنْ يَكُونُ قَوْلَهُ ( حَمٌ ) فِي تَقْدِيرٍ : هَذِهِ ( حَمٌ )  
ثُمَّ تَقُولُ ( تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ) وَاقِعُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ( الثَّالِثُ ) أَنْ يَكُونُ ( حَمٌ ) قَسِيًّا ( وَتَنْزِيلُ  
الْكِتَابِ ) نَعَنَّاهُ ، وَجَوَابُ الْقُسْمِ ( إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ ) وَالتَّقْدِيرُ : وَحْمُ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ  
أَنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا . ۝

﴿ المَسَالَةُ الثَّانِيَةُ ۝ قَوْلُهُ ( الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) يَجُوزُ جَعْلُهُمَا صَفَةً لِلْكِتَابِ ، وَيَجُوزُ جَعْلُهُمَا  
صَفَةً لَهُ تَعَالَى ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الثَّانِي أَوْلَى ، وَيَدْلِلُ عَلَيْهِ وَجُوهًا ( الْأُولَى ) أَنَا إِذَا جَعَلْنَا هُمَا صَفَةً لَهُ تَعَالَى  
الْفَخْرُ الرَّازِي - ج ٢٧ م ٢٧

كان ذلك حقيقة ، وإذا جعلناها صفة للكتاب كان ذلك بجازأ والحقيقة أولى من المجاز (الثاني) أن زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى البلييل الدلال على أن القرآن حق ، لأن كونه عزيزا يدل على كونه قادرأ على كل الممكنت وكونه (حكيما) يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات ، وبحصل لنا من بمجموع كونه تعالى (عزيزا حكيما) كونه قادرأ على جميع الممكنت ، عالما بجميع المعلومات ، غنيا عن كل الحاجات ، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل ، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق ، فثبتت أنها إذا جعلنا كونه (عزيزا حكيما) صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة ، وأما إذا جعلناها صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة ، فكان الأول أولى والله أعلم .

ثم قال تعالى (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وفيه مباحث :

(البحث الأول) أن قوله (إن في السموات والأرض لآيات) يجوز إجراؤه على ظاهره ، لأنه حصل في ذات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها ، وأيضاً الشمس والقمر والنجم والجبال والبحار موجودة في السموات والأرض وهي آيات ، ويجوز أن يكون المعنى (إن في خلق السموات والأرض) كما صرخ به في سورة البقرة في قوله (إن في خلق السموات والأرض) وهو يدل على وجود القادر المختار في تنفيذه . يرجى قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)

(البحث الثاني) فد ذكرنا الوجه السكثيرة في دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار في تفسير قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) ولا بأس بإعادة بعضها فنقول إنها تدل على وجود الإله من وجوه : (الأول) أنها أجسام لا تخلي عن الحرائق ، وما لا يخلو عن الحرائق فهو حادث فيه أجهزة حادثة وكل حادث فعله حادث (الثاني) أنها مركبة من من الأجزاء وتدرك الأجزاء متماثلة ، لما بيننا أن الأجهزة متماثلة ، وتدرك الأجزاء وقع بعضها في لعمق دون السطح وببعضها في السطح دون العمق فيكون وقع كل جزء في الموضع الذي وقع فيه من الجائزات ، وكل جائز فلا بد له من مرجع وشخص (الثالث) أن الأفلاك والعناصر مع تمايزها في تمام الماهية الجسمانية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطفة والكتامة الفلكية والعنصرية ، فيكون ذلك أمراً جائزأ ولا بد لها من مرجع (الرابع) أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مثل كرودة زحل ، وبياض المشتري ، وبحمرة المريخ ، والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، وبحر القمر ، وأيضاً ببعضها سعيدة ، وببعضها نحسة ، وببعضها نهاري ذكر ، وببعضها ليالي أثني ، وقد بينا أن الأجهزة في ذاتها متماثلة ، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة (الخامس) أن كل ذلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومتخصص بمقدار واحد من السرعة والبطء ، وكل ذلك أيضاً من

الجائزات ، فلا بد من الفاعل المختار (السادس) أن كل ذلك مختص بشيء معين وكل ذلك أيضاً من الجائزات ، فلابد من الفاعل المختار ، وتمام الوجه مذكور في تفسير تلك الآيات .

(البحث الثالث) قوله (لآيات المؤمنين) يقتضى كون هذه الآيات مخصصة بالمؤمنين ، وقالت المعتزلة إنها آيات للؤمن والكافر ، إلا أنه لما اتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى (هدي لله提ين) فإنه هدى لكل الناس كما قال تعالى (هدي للناس) إلا أنه لا اتفع بها المؤمن خاصة لاجرم قبل (هدي لله提ين) فكذا هنا ، وقال الأصحاب الدليل والأية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم ، وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا ينحاب ذلك الدليل ، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلاً في حق المؤمن لافي حق الكافر والله أعلم .

قوله تعالى : « وفي خلقكم وما يبيث من دابة آيات لفروم يوفون به وفيه مباحث :

(البحث الأول) قال صاحب الكشاف قوله (وما يبيث) عطف على الخلق المضاف لاعلى الضمير المضاف إليه ، لأن المضاف ضمير متصل بمجرور والعطف عليه مستقيم ، فلا يقال مررت بك وزيد ، وهذا طعنوا في قراءة حزة (تساءلون به والأرحام) بالجر في قوله (والأرحام) وكذلك إن الذين استقبحوا هذا المطاف ، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد .

(البحث الثاني) قرأ حزة والسكسائي (آيات) بكسر التاء وكذلك الذي بعده (وتصريف الرياح آيات) والباقيون بالرفع فيما ، أما الرفع فن وجهين ذكرهما السبرد والزجاج وأبو علي : (أحدهما) المطاف على موضع إن وما عملت فيه ، لأن موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع ، كما تقول إن زيداً منطلق عمر ، و(أن الله برىء من المشركين ورسوله) لأن معنى قوله (أن الله برىء) أن يقول الله برىء من المشركين ورسوله ، (والوجه الثاني) أن يكون قوله (وفي خلقكم) مستأنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول إن زيداً منطلق عمر وكاتب ، جعلت قوله قرلك وعمرو كاتب كلاماً آخر ، كما تقول زيد في الدار وأخرج غداً إلى بلد كذا ، فإنما حدثت بمحديثين ووصلت أحدهما بالأخر بالواو ، وهذا الوجه هو اختيار ابن الحسن والفراء ، وأما وجہ القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله (إن في السموات) على معنى (وان في خلقكم لآيات) ويقولون هذه القراءة إنها في قراءة أى وعبد الله (آيات) ودخول اللام يدل على أن الكلام محول على إن .

(البحث الثالث) قوله (وفي خلقكم) معناه خلق الإنسان ، وقوله (وما يبيث من دابة) إشارة إلى خلق سائر الحيوانات ، وجده دلائلها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متسلالية فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين ، لابد وأن يكون

بتخصيص القادر المختار ، ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر ، والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم .

ثم قال تعالى (واختلاف الليل والنهار) وهذا الاختلاف يقع على وجوه : (أحدما) تبدل النهار بالليل وبالضد منه (وثانية) أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار ما يزداد في النهار الصيف يزداد في الليل الشتوى (وثالثا) اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة .

ثم قال تعالى (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (أحدما) إنشاء السحاب وإنزال المطر منه (وثانية) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض (وثالثا) تولد الأنواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وثمارها ثم تملأ الثرة منها ما يكون القشر محيطاً باللب كالموز واللوز ، ومنها ما يكون اللب محيطاً بالقشر كاشمش والخوخ ، ومنها ما يكون خالياً عن القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها أو تباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم .

ثم قال (وتصريف الرياح) وهي تقسم إلى أقسام كثيرة بحسب تسميات مختلفة فيها المشرقية والمغاربية والشمالية والجنوبية ، ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال إنها (آيات لقوم يعقلون) .

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب الماسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثانية من الدلائل والتفاوت بين المرضعين من وجوه (الأول) أنه تعالى قال في سورة البقرة (إن في خلق السموات والأرض) وقال هنا (إن في السموات) وال الصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق ، وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيها على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلاً على أن الخلق عين المخلوق (الثاني) أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر هنا ستة أنواع وأهم منها الفلك والسحاب ، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذي هو كالسبب يعني عن ذكرهما (والثالث) أنه جمع الكل وذكر لها مقطعاً واحداً وهنارتبها على ثلاثة مقاطع والفرض التنبئي على أنه لا بد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شاف (الرابع) أنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع (أولها) يؤمنون (وثانية) يوفرون (وثالثا) يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فأنهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنت من طلاب الحق واليقين فأنهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من المؤمنين فلا أقل من أن

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثِيمٍ ﴿٤﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرَ مُسْتَكِبِرًا  
كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبِشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَنْحَذَهَا  
هُنُّ وَأُولَئِكَ هُنْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ مِنْ وَرَاءِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا  
شَيْئًا وَلَا مَا أَنْحَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُنْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ هَذَا هُدَىٰ

تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل ، واعلم أن كثيراً من الفقهاء يقولون إنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه ، وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصاً المكبات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيمة وكل ذلك من علوم الأصوليين ، ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال .

ثم قال تعالى ( تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق ) والمراد من قوله ( بالحق ) هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفاداً من النقل أو العقل والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بآيات الله العالم القادر الحكيم وبيانات النبوة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل ، وإذا كان كذلك كان قوله ( تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق ) من أعظم الدلائل على التراغيب في علم الأصول وتقدير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى ( فَبَأْيٌ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يَؤْمِنُونَ ) يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف وبين أنه يجب على المكافف التأمل في دلائل دين الله ، و قوله ( يَؤْمِنُونَ ) قرآن بالآية والثان ، واختار أبو عبيدة الآية لأن قبله غيبة وهو قوله ( لِقَوْمٍ يَؤْمِنُونَ ، وَلِقَوْمٍ يَغْفِلُونَ ) فإن قيل إن في أول الكلام خطأ بأ وهو قوله ( وفي خلقكم ) قلنا الغيبة التي ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه والأقرب أولى ، ووجه قوله أن قرأ على الخطاب أن قل فيه مقدر أي قل لهم فأي حديث بعد ذلك تؤمنون .

قوله تعالى : « وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثِيمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرَ مُسْتَكِبِرًا كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبِشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَنْحَذَهَا هُنُّ وَأُولَئِكَ هُنْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَاءِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا هَذَا هُدَىٰ »

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ الْمُّ<sup>٦٦</sup>

ولَا يغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا إِنَّمَا لَا يَرَوْنَ مِنْ دُنْلَبِ أَوْلَاهُ وَلَمْ يُعَذَّبُ عَظِيمٌ هَذَا هُدًى  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رِجْزِ أَيْمَانٍ ۝

اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين أنتم بأى حديث بعده يومئذ إذا لم يؤمنوا بها  
مع ظهورها ، أتبّعه بوعيد عظيم لهم فقال (ويل لكل أفّاك أنتم) الأفّاك الكذب والأنّام المبالغ  
في افتراف الأنّام ، واعلم أن هذا الأنّام له مقامان :

(المقام الأول) أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار ، فقال تعالى (يسمع آيات الله تليل عليه ثم يصر) أي يقيم على كفره إقامة بقوه وشدة (مستكراً) عن الإيمان بالآيات معجباً بما عنده ، قيل نزلت في النضر بن الحمرث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة في كل من كان موضوعاً بالصفة المذكورة ، فإن قالوا ما معنى ثم في قوله (ثم يصر مستكراً) ؟ فلنا نظيره قوله تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) إلى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ومعنى أنه تعالى لما كان خالقاً للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له في المعبدية ، كذا هنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض .

قوله تعالى : ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ الاصل كانه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن و محل الجملة النصب على الحال أى يصير مثل غير السامع .

(المقام الثاني) أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء، فقال (إذا علم من آياتنا شيئاً اتخذه هزواً) وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزواً أي اتخاذ ذلك الشيء هزواً إلا أنه تعالى قال (اتخذها) للأشعار بأن هذا الرجل إذا أحسن بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاضن في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد.

قوله تعالى : ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أو لئك إشارة إلى (كل أفالك أنيم) لشموله جميع الآفakin ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال (من ورائهم جهنم) أي من قدامهم جهنم ، قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجمة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بين أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال (ولا يغى عنهم ما كسبوا شيئاً) .

ثم بين أن أصنامهم لا تنفههم فقال (ولما اتخذوا من دون الله أولياء).  
 ثم قال (ولهم عذاب عظيم) فان قالوا إنه قال قبل هذه الآية (لهم عذاب مهين) فما الفائدة  
 في قوله بعده (ولهم عذاب عظيم) فلتكون العذاب مهيناً يدل على حصول الإهانة مع العذاب

اللهُ الَّذِي سَخَرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَسْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِكَيْنَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا زَيَّسِبُونَ ﴿٢٨﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾

وكونه عظيمًا يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات في كونه ضرراً .

ثم قال (هذا هدى) أى كامل في كونه هدى (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى (فأزلنا على الذين ظلوا رجزاً من السماء) وقوله (لأن كشفت عنا الرجز) وقرىء أليم بالجر والرفع ، أما الجر فقد يشير له عذاب من عذاب أليم وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليماً ، ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجل الذي هو التجاة ومعنى التجاة فيه قوله (ويسبق من ماه صدید) وكان المعنى لهم عذاب من تحرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبييناً للعذاب .

قوله تعالى : ﴿٣٠﴾ اللهُ الَّذِي سَخَرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِكَيْنَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا زَيَّسِبُونَ ، مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر و ذلك لا يحصل إلا بسبب تفسير ثلاثة أشياء (أحددها) الرياح التي تجري على وفق المراد (ثانية) خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك (ثالثها) خلق الخشبة على وجه تدق طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه ، وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر ، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى ، وقوله (ولتبغوا من فضله) معناه إما بسبب التجارة ، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، أو لأجل استخراج اللحم الطرى .

ثم قال تعالى (وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ) والمعنى لو لا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض في مقارها وأحيازها لما حصل الافتتاح ، لأن بتقدير كون

الأرض ماءطة أو صاعدة لم يحصل الارتفاع بها ، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الارتفاع ، وكل ذلك قد بنياه ، فان قبل ما معنى منه في قوله ( جيئاً منه ) ؟ فلنا معناه أنها واقعة موقع الحال ، والمعنى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه ، قال صاحب الكشاف فراسة بن مخارب منه على أن يكون منه قاعلاً سخر على الإسناد المجازى أو على أنه خبر مبتدأ مذوف أي بذلك منه أو هو منه .

واعلم أنه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله ( قل الذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ) والمراد بالذين لا يرجون أيام الله السكفار ، واختلفوا في سبب نزول الآية قال ابن عباس ( قل للذين آمنوا ) يعني عمر ( يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ) يعني عبد الله بن أبي ، وذلك أنهم نزلوا في غزوة بن المصطلق على بئر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستق الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ماحبسك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فatzرك أحداً يستنق حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر وملأ مولايه ، فقال عبد الله مامثلنا وممثل هؤلاء إلا كافيل سبن كلبك يا كلبك ، فبلغ قوله عمر فاشتمل بيته يريد التوجيه إليه ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بعكة فهم أن يطش به فأمر الله بالغفو والتجاوز وأنزل هذه الآية .

وروى ميمون بن مهران أن فتحاصل اليهودي لما أنزل قوله ( من ذا الذي يفرض الله قرضاً حسناً ) قال احتاج رب محمد ، فسمع بذلك عمر فاشتمل على بيته وخرج في طلبه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى رده ، وقوله ( للذين لا يرجون أيام الله ) قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الحالية ، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله ( وذكركم بأيام الله ) وأكثر المفسرين يقولون إنه مفسوخ ، وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت القرآن أن لا يقتلو ، فلما أمر الله بهذه المقائلة كان نسخاً ، والأقرب أن يقال إنه محول على ترك المازاغة في المحرمات وعلى التجاوز بما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة .

ثم قال تعالى ( ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ) أي لكي يجازى بالمحفرة قوماً يعملون الخير ، فإن قبل : ما الفائدة في التكبير في قوله ( ليجزي قوماً ) مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله ( قل للذين آمنوا ) ؟ ، فلنا التكبير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قبل : ليجزي قوماً وأى قوم من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجريح المكروه ، وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ، ليجزي الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قبل لهم لا تكافئونه حتى نكافئهم نحن ، ثم ذكر الحكم العام فقال ( من عمل صالحـا

وَلَقَدْ أَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ  
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَتِ مِنَ الْأَمْرِ فَقَاتَلُوكُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاهَهُمُ الْعِلْمُ بِغِيَّارِهِمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يوْمَ  
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا  
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ  
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَقِينَ ﴿٤﴾ هَذَا بَصَارَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى  
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ ﴿٥﴾ أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّعَاتِ أَنْ تَجْعَلَهُمْ  
كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحِيَّهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦﴾

فلنفسه ) وهو مثل ضربه الله المذين يغفرون ( ومن أساء فعلها ) مثل ضربه للكافر الذين كانوا يقدمون على إزياده الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل ، فبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا وهي عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع إليه ، وهذا تزغيت منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل .

قوله تعالى : ﴿٧﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ  
الْعَالَمِينَ ، وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَتِ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّالُوكُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاهَهُمُ الْعِلْمُ بِغِيَّارِهِمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي  
بَيْنَهُمْ يوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ  
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ  
الْمُتَقِينَ ، هَذَا بَصَارَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ ، أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّعَاتِ أَنْ  
تَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحِيَّهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

اعلم أنه تعالى بين أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد : والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم .

واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا

بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين ، فقال ( ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ) والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه ، أما ( الكتاب ) فهو التوراة ، وأما ( الحكم ) فقيه وجوه ، يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه ، وأما النبوة فعلومة ، وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى ( ورزقناهم من الطيبات ) وذلك لأنَّه تعالى وسع عليهم في الدنيا ، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أزل عليهم المن والسلوى ، ولما بين تعالى أنه أطعم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيباً وأفراً ، قال ( وفضلناهم على العالمين ) يعني أنهم كانوا أكبَر درجة وأرفع مقابة من سواهم في وقتهم ، فلهذا المعنى قال المفسرون المراد : وفضلناهم عن عالم زمانهم .

قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَسْرَ﴾ وفيه وجوه ( الأول ) أنه آتَاهُمْ بَيِّنَاتٍ من الأسر ، أي أدلة على أمور الدنيا ( الثاني ) قال ابن عباس : يعني بين لهم من أمر النبي ﷺ أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب ( الثالث ) المراد ( وآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ ) أي معجزات قاهرة على صحة نبوتهم ، والمراد معجزات موسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَا جَاءُهُمُ الْعِلْمُ بِعِنْدِهِمْ﴾ وهذا مفسر في سورة ( حم ، عسق ) والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة ، لأنَّ حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وهبنا صار بجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف ، وذلك لأنَّهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، ثم هبنا احتمالات يريد أنهم علوا ثم عاندوا ، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التي توصل إلى العلم ، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبيانات التي لو تأملوا فيها العرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا أللزاع .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْلَمُ كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمراد أنه لا ينبغي أن يفتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم الحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوقه ، وذلك كالاجر لهم ، ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والحسد ، أمر رسوله ﷺ بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يتمسك بالحق ، وأن لا يمكِّن له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق ، فقال تعالى ( ثم جعلناك على شريعة من الأمر ) أي على طريقة ومنهج من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبيانات ، ولا تتبع ملاحة حجه عليه من أهواه الجهل وأدبياتهم المبنية على الأهواء والجهل ، قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يحكى : ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأحسن ، فأزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْدِيَنَّكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي لو ملت إلى أدبياتهم الباطلة فضررت مستحقة للعذاب ، فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ، ثم بين تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضًا

فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا وَلِهِ لَهُمْ يَنْفَعُهُمْ فِي إِيصالِ الثَّوَابِ وَإِزَالَةِ الْعَقَابِ، وَأَمَا الْمُتَقْوَنُونَ الْمُتَدْوَنُونَ، فَأَنَّهُ وَلَهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَهُمْ مَوَالُهُ، وَمَا أَبَيَنَ الْفَرَقَ بَيْنَ الْوَلَيْتَيْنِ، وَلِمَا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْبَيَانَاتِ الْبَافِيَةِ النَّافِعَةِ، قَالَ (هَذَا بَصَارَنَا لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يَوْقُنُونَ) وَقَدْ فَسَرَنَا فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَالْمَعْنَى هَذَا الْقُرْآنُ بِبَصَارَنَا لِلنَّاسِ جَعَلَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانَاتِ الشَّافِيَةِ، وَالْبَيَانَاتِ الْكَافِيَةِ بِمِنْزَلَةِ الْبَصَارَتِ فِي الْقُلُوبِ، كَمَا جَعَلَ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ رُوحًا وَحَيَاةً، وَهُوَ هُدَى مِنَ الْضَّلَالَةِ، وَرَحْمَةً مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ وَأَيْقَنَ، وَلِمَا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى الْفَرَقَ بَيْنَ الظَّالِمِينَ وَبَيْنَ الْمُتَقِينَ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي تَقْدِمُ، بَيْنَ الْفَرَقِ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهِ آخَرِ، فَقَالَ (أَمْ حِسْبُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وَفِيهِ مِبَاحِثٌ :

(البحث الأول) (أَمْ) كَلِمةٌ وَضَعَتْ لِلْأَسْتِفَنَامِ عَنْ شَيْءٍ حَالَ كُونَهُ مَعْطُوفًا عَلَى شَيْءٍ آخَرَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْمَعْطُوفُ مَذَكُورًا أَوْ مُضْمِرًا ، وَالتَّقْدِيرُ هُنَّا : أَفَيُعْلَمُ الْمُشَرِّكُونَ هَذَا ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا تَوْلَامُ كَمَا تَرْوِيَ الْمُتَقِينَ ؟ .

(البحث الثاني) الْاجْتِرَاحُ : الْاِكْتَسَابُ ، وَمِنْهُ الْجُواْرَحُ ، وَفَلَانْ جَارَحَةُ أَهْلِهِ ، أَىٰ كَاسِبِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحَتْ بِالنَّهَارِ) .

(البحث الثالث) <sup>كَمْ</sup> قَالَ الْكَلْبِيُّ : نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي عَلِيٍّ وَحْمَزَةَ وَأَبِي عِيَّدَةَ بْنِ الْجَرَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَفِي ثَلَاثَةِ مِنَ الْمُشَرِّكِينَ : عَتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ عَتْبَةَ ، قَالُوا لِلَّذِئْنَيْنِ : وَالَّهِ مَا أَتَنَا عَلَى شَيْءٍ ، وَلَوْ كَانَ مَا تَقُولُونَ حَقًا لَكَانَ حَالُنَا أَفْضَلُ مِنْ حَالِكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا أَنَا أَفْضَلُ حَالًا مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكَلَامُ ، وَبَيْنَ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُؤْمِنِ الْمُطْبِعُ مَسَاوِيًّا لِحَالِ الْكَافِرِ الْعَاصِيِّ فِي درَجَاتِ الثَّوَابِ ، وَمَنَازِلِ السَّعَادَاتِ .

وَاعْلَمُ أَنْ لَفْظَ (حِسْبٌ) يَسْتَدِعِي مَفْعُولَيْنَ (أَجْدَهُمَا) الْضَّمِيرُ الْمَذَكُورُ فِي قَوْلِهِ (أَنْ نَجْعَلُهُمْ) (وَالثَّانِي) الْكَافُ فِي قَوْلِهِ (كَالَّذِينَ آمَنُوا) وَالْمَعْنَى أَحْسَبُ هُولَاءِ الْمُجْتَرِحِينَ أَنْ نَجْعَلُهُمْ أَمْثَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَفَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُنَ) وَقَوْلُهُ (إِنَّا لِنَصْرِ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْاِشْهَادُ يَوْمًا لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ، مَعْذِرَتِهِمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وَقَوْلُهُ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَقِينَ كَالْفَجَارِ) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى (سَوَاءٌ حَيَاهُمْ وَعَانَتْهُمْ) وَفِيهِ مَسَائلٌ :

(المسألة الأولى) قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَانِيُّ وَحَفْصُ عَنْ عَاصِمٍ (سَوَاءٌ) بِالنَّصْبِ ، وَالْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ ، وَاخْتِيَارُ أَبِي عَبْدِ النَّصْبِ ، أَمَا وَجْهُ الْقِرَاءَةِ بِالرَّفْعِ ، فَهُوَ أَنْ قَوْلُهُ (حَيَاهُمْ وَعَانَتْهُمْ) مُبْتَدِأًا وَالْجَملَةُ فِي حِكْمَةِ الْمُفْرِدِ فِي مَحْلِ النَّصْبِ عَلَى الْبَدْلِ مِنَ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِقَوْلِهِ (أَمْ نَجْعَلُ) وَهُوَ الْكَافُ فِي قَوْلِهِ (كَالَّذِينَ آمَنُوا) وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : ظَنِّنْتُ زِيَّدًا أَبُوهُ مَنْطَلِقًا ، وَأَمَا وَجْهُ الْقِرَاءَةِ بِالنَّصْبِ

وَخَلَقَ اللَّهُ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُنَّ  
لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَّا هُوَهُ وَأَضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ  
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرَهِ غِشْوَةً فَنَّ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

قال صاحب الكشاف : أجرى سواه بجري مستويًا ، فارتفع (حياتهم وعما هم) على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ، ومن قرأ (وما هم) بالنصب جعل (حياتهم وعما هم) ظرفين كقدم الحاج ، وخفوق النجم ، أى (سواء) في (حياتهم) وفي (عما هم) ، قال أبو علي من نصب سواه جعل : الحيا والممات بدلاً من الضمير المنصوب في نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل (حياتهم وعما هم) سواء ، قال ويجوز أن يجعله حالاً ويكون المفعول الثاني هو الكاف في قوله (كالذين) .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ اختلفو في المراد بقوله (حياتهم وعما هم) قال مجاهد عن ابن عباس يعني أحسبوا أن حياتهم وعما هم حياة المؤمنين وموتهم ، كلاماً لهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون في الدنيا فإنه يكون ولهم هو الله وأنصاره المؤمنون وحججه الله معه ، والكافر بالضد منه ، كذا ذكره في قوله (ولأن الظالمين بعضهم أولياء بعض) وعند القرب إلى الموت ، فإن حال المؤمن ما ذكره في قوله تعالى (الذين توافقهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة) وحال الكافر ما ذكره في قوله (الذين توافقهم الملائكة ظالماً أنفسهم) وأما في القيمة فقال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) فهذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثاني) في تأويل الآية أن يكون المعنى إنكار أن يستروا في الممات كما استروا في الحياة ، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوى حياتهم في الصحة والرُّزق والكافية بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن ، وإنما يظهر الفرق بينهما في الممات (والوجه الثالث) في التأويل أن قوله (سواء حياتهم وعما هم) مستأنف على معنى أن حياماً المسيتين وعما هم سوء فكذلك حياماً الحسينين وعما هم ، أى كل يوم على حسب معاش عليه ، ثم إنه تعالى صرخ يإنكار تلك التسوية فقال (ساء ما يحكمون) وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ ، أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هُوَهُ وَأَضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرَهِ غِشْوَةً فَنَّ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، وَقَالُوا ماهِي إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نُمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا يَظْنُونَ ، وَإِذَا تُلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانُ حِجْرَتْهُمْ إِلَّا﴾

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَا تُنَا الَّذِي نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّا يَلْتَهَا بَيْتَنَا مَا كَانَ جُنَاحُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُنَوِّعُ بَابَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارْبَيْتِ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾

أن قالوا اتناوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحبكم ثم يبيّنك ثم يجمعكم إلى يوم القيمة لا رب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ۝ .

اعلم أنه تعالى لما قدر بأن المؤمن لا يساوى الكافر في درجات السعادات ، أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى ، فقال ( وخلق الله السموات والأرض بالحق ) ولو لم يوجد البحث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل ، لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ، ولو كان ظالماً بطل أنه ( خلق السموات والأرض بالحق ) و تمام تقرير هذه الدلائل مذكور في أول سورة يونس ، قال القاضي هذه الآية تدل على أن في مقدور الله ما لو حصل لكان ظالماً ، وذلك لا يصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شيء أراده لم يكن ظالماً ، وعلى قول من يقول إنه لا يوصف بالقدرة على الظلم ، وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظالماً كما أن المراد من البتلة والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلة واختباراً ، و قوله تعالى ( ولتجزى ) فيه وجهان : (الأول) أنه معطوف على قوله ( بالحق ) ~~في~~ كون التقدير وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس ، ( الثاني ) أن يكون المعطوف على محنوف ، والتقدير ( وخلق الله السموات والأرض بالحق ) ليدل بهما على قدرته ( ولتجزى كل نفس ) والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعض والقيمة وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحبين وبين المبغضين ، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقايئن طوائفهم ، فقال ( أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هُوَاهُ ) يعني تركوا متابعة المهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه ، وقرى . ( آلهته هواه ) كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه ، فكان أنه اتَّخَذَ هواه آفة شئ يعبد كل وقت واحداً منها .

ثم قال تعالى ( وأضل الله على علم ) يعني على علم بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح ، ونظيره في جانب التعظيم قوله تعالى ( الله أعلم حيث يجعل رسالته ) وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة فنها مشرفة نورانية علوية إلهية ، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية ، فهو تعالى يقابل كلًا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته ، وهو المراد من قوله ( وأضل الله على علم ) في حق المردودين وبقوله ( الله أعلم حيث يجعل رسالته ) في حق المقبولين .

ثم قال ( وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ) فقوله ( وأضل الله على علم ) هو المذكور في قوله ( إن الذين كفروا ) إلى قوله ( لا يؤمنون ) وقوله ( وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ) هر المراد من قوله ( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ) وكل ذلك قد من تفسيره في سورة البقرة بالاستقصاء ، والتفاوت بين الآيتين أنه في هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب ، وفي سورة البقرة قدم القلب على السمع ، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلاماً يقع في قلبه منه أثر ، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبي ﷺ شاعر وكاهن وأنه يتطلب الملك والرياسة ، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه ، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون إليه ، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئاً نافعاً ، ففي الصورة الأولى كان الآخر يصعد من البدن إلى جوهر النفس ، وفي الصورة الثانية كان الآخر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن ، فلما اختلف القسمان لاجرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذه الترتيبين اللذين نهانا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال ( فن يهدى من بعد الله ) أي من بعد أن أضل الله ( أفلأ تذكرون ) أيها الناس ، قال الواحدى وليس يبيق للقدرة مع هذه الآية عنده ولا حيلة ، لأن الله تعالى صرخ بيته إياهم عن المدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره ، وأقول هذه الماذكرة قد سبقت بالاستقصاء في أول سورة البقرة .

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في إنسكار القيامة وفي إنكار الإله القادر ، أما شبهتهم في إنسكار القيمة فهي قوله تعالى ( وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيانا ) فإن قالوا الحياة مقدمة على المرت في الدنيا فنذكرها القيمة كان يجب أن يقولوا أحيا ونموت ، فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة ؟ فلنا فيه وجوه ( الأول ) المراد به قوله ( نموت ) حال كونهم نطفأ في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وبقوله ( أحيا ) ما حصل بعد ذلك في الدنيا ( الثاني ) نموت نحن ونحيانا بسبب بقاء أولادنا ( الثالث ) نموت بعض ويحيانا بعض ( الرابع ) وهو الذي خطر بباله عند كتابة هذا المرضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ( ما هي إلا حياتنا الدنيا ) ثم قال بعده ( نموت ونحيانا ) يعني أن تلك الحياة منها ما يطأ عليها المرت وذلك في حق الذين ماتوا ، ومنها ما لم يطأ الموت عليها ، وذلك في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد ، وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار ، فهو قوله ( وما يهمكنا إلا الدهر ) يعني تولد

الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع ، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة ، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت ، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك ، ولا حاجة في هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار ، فهذه الطائفة جعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيمة .

ثم قال تعالى ( وما لهم بذلك من علم إنهم لا يظنون ) والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها فائمة ، فالذى قالوه يتحمل وضده أيضاً يتحمل ، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيمة حقاً ، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقاً ، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل ، واشكنته خطر يلامم ذلك الاحتمال الأول بجزموا به وأصرروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبتت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى . ثم قال تعالى ( وإذا تل عليهم آياتنا ببيان ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائنروا آياتنا إن كنتم صادقين ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى قوله حجنة لوجه ( الأول ) أنه في زعمهم حجة ( الثاني ) أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله : نحبة بينهم ضرب وجيع [ أى ليس بينهم نحبة لمنافاة الضرب للتحية ] ( الثالث ) أنهم ذكروها في معرض الاحتجاج بها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا لوضح ذلك فائنوا بأياماً الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث .

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جداً ، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول . فإن حصول كل واحد مما كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذى حصلنا فيه ، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكن عدم حصولنا كذلك ، وذلك باطل بالاتفاق .

قوله تعالى : ﴿ قل الله يحييكم ثم يحييكم إلى يوم القيمة ﴾ فإن قيل هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول ( ماهي إلا حياتنا الدنيا ونحبها وما يهلكنا إلا الدهر ) فهذا القائل كان منكراً لوجود الإله ولو وجود يوم القيمة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله ( قل الله يحييكم ثم يحييكم ) وهل هذا إلا إثبات للشىء نفسه وهو باطل ، فلنا أنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً وأطواراً ، قوله هاهنا ( قل الله يحييكم ) إشارة إلى تلك الدلائل التي بينها وأوضحتها مراراً ، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمٌ إِذْ يَخْسِرُ الْمُبْطَلُونَ  
 (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ  
 هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسَخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ  
 (٢٨) فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي دُخُولِهِمْ رَبِّهِمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ  
 وَإِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفْلَمْ تَكُنْ عَيْنَكُمْ فَاسْتَكْبِرُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

(٢٩)

إنات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه النفيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر . ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة يمكنها في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقيقة .  
 وأما قوله تعالى ( ثم بجمعكم إلى يوم القيمة لاريب فيه ) فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره في الآية المتقدمة ، وهو أن كونه تعالى ، عادلا خالقا بالحق منها عن الجور والظلم ، يقتضي صحةبعث والقيمة .

ثم قال تعالى ( ولكن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ) أي لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ، ولا يعلمون أيضاً أنه تعالى لما كان قادراً على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادرآ على الإعادة ثانية .

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمٌ إِذْ يَخْسِرُ الْمُبْطَلُونَ ، وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسَخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ  
 ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تدل عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ) .

واعلم أنه تعالى لما احتاج بكونه قادرآ على الإحياء في المرة الأولى ، وعلى كونه قادرآ على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة ، عم الدليل فقال ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أي

له القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، وإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات مسكن ، إذ لو لم يكن مسكنًا لما حصل في المرة الأولى فلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرًا على الإحياء في المرة الثانية . ولما بين تعالى إمكان القول بالحصر والنشر بهذه الطريقة ، ذكر تفاصيل أحوال القيمة ( فأولها ) قوله تعالى ( ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ) وفيه أبحاث :

( البحث الأول ) عامل النصب في يوم تقوم يخسر ، ويومئذ بدل من يوم تقوم ( البحث الثاني ) قد ذكرنا في مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال ، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجري بجرى تصرف التاجر في رأس المال لطلب الربح ، والكفار قد أتبعوا أنفسهم في هذه التصرفات وما جدوا منها إلا الحرمان والخذلان فكان ذلك في الحقيقة نهاية الخسران ( ونانيها ) قوله تعالى ( وترى كل أمة جائحة ) قال الليث الجنوبي المجلوس على الركب كا يعني بين يدي الحكم ، قال الزجاج ومثله جدا يعني ، قال صاحب الكشاف : وقرى جاذية ، قال أهل اللغة والجنو أشد استيفازاً من الجنو ، لأن المجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصحابه ، وعن ابن عباس جائحة مجتمعة مرتبة لما يعمل بها .

ثم قال تعالى ( كل أمة تدعى إلى كتابها ) على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ، وقوله ( إلى كتابها ) أى إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى ( ووضع الكتاب فترى مجرمين مشفقين ؟ فيه ) والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك ( فأما الذين آمنوا ) .

ثم قال تعالى ( وأما الذين كفروا ) فإن قيل الجنو على الركبة إنما يلقي بالحائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيمة ، فلنا إن الحق الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه حقًا .

ثم قال تعالى (اليوم تجزون) والتقدير يقال لم اليوم تجزون ، فإن قيل كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى ؟ قلنا لامنافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه ( ينطق عليكم ) أى يشهد عليكم بما علمنا من غير زيادة ولا نقصان ( إنما كنا نستنسخ ) الملائكة ( ما كنتم تعملون ) أى نستكتبهم أعمالكم .

نعم بين أحوال المطاعين فقال ( فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات ، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغارة للإيمان زائداً عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة علق الدليل في رسالتها على كونه آتيا بالإيمان والأعمال

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدَرَى مَا أَسَأَعَةُ إِنْ نَظَنْ  
إِلَّا ظَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّعَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهِزُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكُمُ كَمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَنَكَرُ الْنَّارُ  
وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَخْدُمُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَوْغَرْتُكُمُ الْحَيَاةَ

الصالحة ، والتعليق على بجمع أمرين يكون عندما عند عدم أحد هما ، فعند عدم الأفعال الصالحة  
وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة ( وجوابنا ) أن تعلق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم  
عند عدم الوصف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هي سمي التواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الإسم إذا لم تكن واجهة ،  
فوجب أن لا يكون التواب واجباً على الله تعالى .

ثم قال تعالى ( وأما الذين كفروا أعلم تكن آياتي تدل عليكم فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين )  
وفي مسائل :

( المسألة الأولى ) ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسمها ثالثاً وهذا بدل على أن مذهب  
المعزولة إنما المزعول باطل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبدوا عن  
فهمها ، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد جمع الشرع ، وذلك بدل على أن الواجبات  
لاتنجيب إلا بالشرع ، خلافاً لما يقوله المعزولة من أن بعض الواجبات قد ينجيب بالعقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هي جواب ( أما ) عذوف والتقدير ( وأما الذين كفروا ) فيقال لهم ( ألم  
تكن آياتي تدل عليكم فاستكبرتم ) عن قبول الحق ( و كنتم قوماً مجرمين ) فإن قالوا كيف محسن  
وصف الكافر بكونه مجرماً في معرض الطعن فيه والذم له ؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفاراً  
ما كانوا عدولًا في أديان أنفسهم ، بل كانوا فساقاً في ذلك الدين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدَرَى مَا أَسَأَعَةُ إِنْ نَظَنْ  
إِلَّا ظَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّعَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهِزُونَ ، وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكُمُ كَمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَنَكَرُ الْنَّارُ  
وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ، ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَخْدُمُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَوْغَرْتُكُمُ الْحَيَاةَ

الْدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُحْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ ﴿١٣﴾ فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

### الْحَكِيمُ ﴿١٥﴾

أَللّهُ هُرُوا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ ، فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

وَفِيهِ مَسَائلٌ :

﴿الْمَسَأَةُ الْأُولَى﴾ قرئ ، والساٰعَةِ رفماً ونصباً قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعل معنى وقيل (الساٰعَةِ لارِيب فيها) قال الاخفش الرفع أجرد في المعنى وأكثر في الكلام العرب ، إذا جاء بعد خبر إن لأنَّه كلام مستقل بنفسه بعد بعده الكلام الأول بهما .

﴿الْمَسَأَةُ الثَّانِيَةُ﴾ حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعَةَ آتَيْتُ لارِيب فيها قالوا (ما ندرى ما الساعَةُ إِنْ نَظَنَ إِلَّا ظَنَّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ) .

أقوال الأغلب على القلن أنَّ القوم كانوا في هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيمة ، وهم الذين ذكرم الله في الآية المتقدمة بقوله (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا) ومنهم من كان شاكراً متحيراً فيه ، لأنَّهم لكتَّيبة ماسمهو من الرسول ﷺ ، ولكتَّيبة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية ، والذى يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك الفاطمين ، ثم أتبه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغاييرين للفرقـة الأول . ثم قال تعالى (وبـدا لهم) أى في الآخرة (سيئات ما عملوا) وقد كانوا من قبل يهدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانـهم (وحـقـ بهـ ماـ كانواـ بهـ يـسـهـرـونـ) وهذا كالدليل على أن هذه الفرقـة لما قالوا (إن نـظـنـ إـلـاـ ظـنـاـ) إنـماـ ذـكـرـوهـ عـلـىـ سـيـلـ الـاستـهـزاـ وـالـسـخـرـيـةـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ الـوجهـ فـهـذاـ الفـرـقـ شـرـ مـنـ الـفـرـقـ الـأـولـ ، لـأـنـ الـأـوـلـ كـانـواـ مـنـكـرـيـنـ وـمـاـ كـانـواـ مـسـتـهـرـيـنـ ، وـهـذـاـ الـفـرـقـ ضـمـواـ إـلـىـ الـإـصـرـارـ عـلـىـ الـإـنـكـارـ الـاسـتـهـزاـ .

ثم قال تعالى (وقيل الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَانَتْ نَسِيْمَ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا) وفي تفسير هذا النـسـيـانـ وجـهـانـ (الأول) نـتـركـكمـ فـالـعـذـابـ كـاـنـ رـكـنـ الطـاعـةـ الـتـيـ هـيـ الرـوـادـ لـيـوـمـ الـمـعـادـ (الثـانـي) نـجـعـلـكـ بـمـنـزـلـةـ الشـئـيـهـ الـمـسـىـ غـيـرـ المـبـالـيـ بـهـ ، كـاـلـمـ نـبـالـوـ أـتـمـ بـلـقـاءـ يـوـمـكـ وـلـمـ تـلـفـتـواـ إـلـيـهـ بـلـ جـعـلـتـمـوـهـ كـالـشـيـ الـذـيـ يـطـرـحـ نـسـيـاـ مـنـسـيـاـ ، جـمـعـ اللهـ تـعـالـيـ عـلـيـهـمـ مـنـ وـجـوهـ الـعـذـابـ الشـدـيدـ ثـلـاثـةـ أـشـيـاءـ (فـأـوـلـهـ) قـطـعـ رـحـةـ اللهـ تـعـالـيـ عـنـهـمـ بـالـكـلـيـةـ (وـثـانـيـهـ) أـنـ يـصـيرـ مـأـوـاـمـ النـارـ (وـثـالـيـهـ) أـنـ لـاـ يـحـصـلـ لـهـ أـجـرـ مـنـ الـأـهـرـانـ

والأنصار ، ثم بين تعالى أنه يقال لهم إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد ، لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة ( فأولها ) الإصرار على إنكار الدين الحق ( وثانيها ) الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذا الوجهان داخلان تحت قوله تعالى ( ذلكم بأنكم انخذلتم آيات الله هزوا ) و ( ثالثها ) الاستفرار في جب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى ( وغرتكم الحياة الدنيا ) .

ثم قال تعالى (فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا) قرأ حزرة والكسان (يخرجون) بفتح الياء ، والباقيون بضمها (ولَا هُمْ يَسْتَعْبِدُونَ) أي ولا يطلب منهم أن يعتروا بهم ، أي يرضوه ، ولما تام الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى : فقال (فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض ، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والشأن على كل أحد من المخلوقين والمربوين .

ثم قال تعالى (وله الكبriاه في السموات والأرض) وهذا مشعر بأمرٍ (أحد ما) أن التكبير لابد وأن يكون بعد التحميد ، والإشارة إلى أن الحامدين إذا جددوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لاتفاق يانعماه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين ، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين (والثاني) أن هذا الكبriاه له لا لغيره ، لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو .

ثم قال تعالى ( وهو العزيز الحكيم ) يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد ، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بأثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم ، وقوله ( وهو العزيز الحكيم ) يفيد المحصر ، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو ، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو ، ولا حسن ولا مفضل إلا هو .

قال مولانا رضي الله عنه : تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامسة عشر من ذى الحجه سنة ثلاث وسبعين ، والحمد لله حبأ دانماً طيباً مباركاً مخلداً مؤيداً ، كما يليق بعلو شأنه وباهر برهاه وعظيم احسانه ، والصلاحة على الارواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعلى السموات ، وتغورم الأرضين ، من الملائكة والأنبياء والآولياء والموحدين ، خصوصاً على سيدنا ونبينا محمد وآلـه وصحبه أجمعين .

تم الجزء السادس والعشرون ، ويليه الجزء الثامن والعشرون وأوله سورة الأحقاف

صفحة الآيات	صفحة
٥٢ قوله تعالى : ما للظالمين من حيم ٥٤ ، ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ٥٧ ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون ٥٨ ، إن الله لا يهدى من هو سرف كذاب ٦٢ ، ولقد جاءكم يوسف من قبل ٦٤ ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ٦٨ ، جبار وقال فرعون يا مامان الآية ٦٩ ، وكذلك زين لفرعون سوه عمله ٧٣ ، وما كيد فرعون إلا في تباب ٧٧ ، وقال الذي آمن يا قوم اتبعون ٧٩ ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ٧٣ ، فوقاه الله سبئتان ما مكرى ٧٥ ، وقال الذين في النار لخزنة جهنم ٧٦ ، إنما لننصر رسالتنا والذين آمنوا ٧٧ ، يوم لا ينفع الظالمين معذتهم ٧٨ ، وأورثنا بي إسرائيل الكتاب ٧٩ ، إن الذين يجادلون في آيات الله ٨١ ، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ٨٣ ، إن الله لذو فضل على الناس ٨٤ ، إن الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ٨٦ ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين ٨٧ ، وهو الذي عيي وبيت فإذا قضى ٨٩ ، فاتح فاتح وإن وعد الله حق ٩٠ ، الله الذي جعل لكم الأنعام ٩١ ، وعليها وعلى الفلك تحملون ٩١ ، ألم يسيرا في الأرض فيتضروا ٩٣ ، وخسر هنالك الكافرون ( تفسير سورة فصلت السجدة )	٣ قوله تعالى : قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآيات ٥ سبب نزول الآية ٦ قوله تعالى : وأنبوا إلى ربكم الآية ٧ ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ٩ ، ويوم القيمة ترى الذين كذبوا ١١ ، إن الله خالق كل شيء الآيات ١٢ ، له مقاييس السموات والأرض الآية ١٤ ، وما قدروا الله حق قدره الآيات ١٩ ، إلا من شاء الله ٢٠ ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم ٢٢ ، وسيق الذين أتوا ربهم ٢٣ ، حتى إذا جاءهم ما وقعت أبوابها ٢٥ ، وقضى بينهم بالحق وقيل الخدمة رب العالمين ( تفسير سورة المؤمن )
٩٤ قوله تعالى : حم تنزل من الرحمن الرحيم الآيات ١٠١ ، إن الذين آمنوا أو عملوا الصالحات	٢٦ قوله تعالى : حم تنزل الكتاب الآية ٢٧ ، غافر الذنب ٢٨ ، قابل التوب ٢٩ ، ذي أطهول ٣٠ ، إليه المصير ٣١ ، فلا ينحرك قلوبهم في البلاد الآيات ٣٥ ، الذين يحملون العرش ومن حوله الآية ٣٧ ، ربنا وسمت كل شيء رحمة وعلما ٣٨ ، فاغفر للذين تابوا الآية ٣٩ ، وقيم السبئيات ٤٢ ، لأن الذين كفروا ينادون بفتح آلة ٤٣ ، وهو الذي يربكم آياته ٤٤ ، فادعوا الله مخلصين له الدين ٤٥ ، رفيع الدرجات ذو العرش ٤٩ ، يلقى الروح من أمره على من يشاء ٤٩ ، وأنذرهم يوم الأذلة

صفحة		صفحة	
٢٠٩	قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلْ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَيْنَا	١٠١	قوله تعالى : قُلْ أَتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
٢١١	وَإِنَّ لَأَنْ يَكُونَ النَّاسُ أَمْوَاحَةً	١١٠	الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْحِسْبَانِ
٢١٥	إِفَانْتَ سَمِعَ الصَّمْ أَوْ تَهَدَى السَّمْعُ	١١٥	فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنِكُمْ
٢١٧	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا	١١٨	وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ
٢٢١	وَلِسَاعِنْبَرْ بْنِ مُرْيَمْ مِثْلًا	١٢٢	وَفِيَضَنَا لَمْ فَرَنَاهُ
٢٢٣	وَلِسَاعِنْجَاءِ عَيْنِ بِالْبَيْنَاتِ	١٢٤	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ
٢٢٧	صَفَاتُ جَهَنَّمَ فِي الْآيَةِ	١٢٩	وَمِنْ أَحْسَنِ قَوْلَاتِهِ مَنْ دَعَ إِلَيْهِ اللَّهُ
٢٣٠	قوله تعالى : وَمَا ظَلَّنَاهُمْ وَلَكُنْ كَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ	١٣١	وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ
٢٣١	الْأَحْجَاجُ بِوَهْيِ الدَّفَاقِ	١٣٣	إِنَّ الَّذِينَ يَلْعَذُونَ فِي آيَاتِنَا
٢٣٢	قوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ	١٣٦	مَا يَقُولُ لَكَ إِلَامَقْدَقِيلُلرَسْلِ
٢٣٣	الْأَدْنِيَةِ	١٤٢	إِلَيْهِ يُرْدَ عَلَمُ السَّاعَةِ
٢٣٤	( تفسير سورة الدخان )	١٤٧	قُلْ هُنَّ عَسْقَلَانٌ
٢٣٥	قوله تعالى : حِمْ وَالْكِتَابُ الْمَبِينُ	١٥٥	وَكَذَلِكَ أَوْجَبْنَا إِلَيْكَ قَرْآنًا
٢٣٦	الْأَيَاتُ	١٦١	شَرِيعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيْ بِهِ
٢٣٧	الْدَّلِيلُ عَلَى حِدُوثِ الْقُرْآنِ	١٧٠	نُوحًا
٢٣٨	الْخَلْفُ فِي الْلِّيَلِ الْمَبَارِكِ	١٧٥	مِنْ كَانَ بِرِيدَ حَرَثَ الْآخِرَةِ
٢٤١	قوله تعالى : فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حِكْمَ الْآيَاتِ	١٧٨	وَلَوْ بَسْطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوا
٢٤٢	فَارْتَقَبْ يَوْمَ تَأْفِي السَّاهِ بِدَخَانٍ	١٨٤	فِي الْأَرْضِ
٢٤٥	وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلِهِمْ قَوْمُ فَرْعَوْنَ	١٨٧	وَمِنْ آيَاتِهِ الْجِوَارُ فِي الْبَرِّ
٢٤٨	وَلَقَدْ نَجَّبْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ	١٩٦	وَجَزَاءُ سَيِّئَاتِهِ مِثْلُهَا
٢٥١	إِنْ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعُونَ	٢٠١	اسْتَجِيبُوا لِرِبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي

صفحة	صفحة
٢٦٨ قوله تعالى : وخلق الله السموات والأرض الآيات بالحق	٢٥٣ قوله تعالى : إن المتعين في مقام أمين الآيات (تفسير سورة الجاثية)
٢٦٩ ، وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا ،	٢٥٧ قوله تعالى : حم تزيل الكتاب الآيات
٢٧٢ ، والله ملك السموات والأرض و يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر يختسر المبطلون الآيات	٢٦١ ، ويل لكل أفالك أئم ، ٢٦٣ ، الله الذي سخر لكم البحر ، ٢٦٥ ، ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة الآيات
٢٧٤ ، وإذا قيل إن وعد الله حق ،	﴿ تم المهرس ﴾